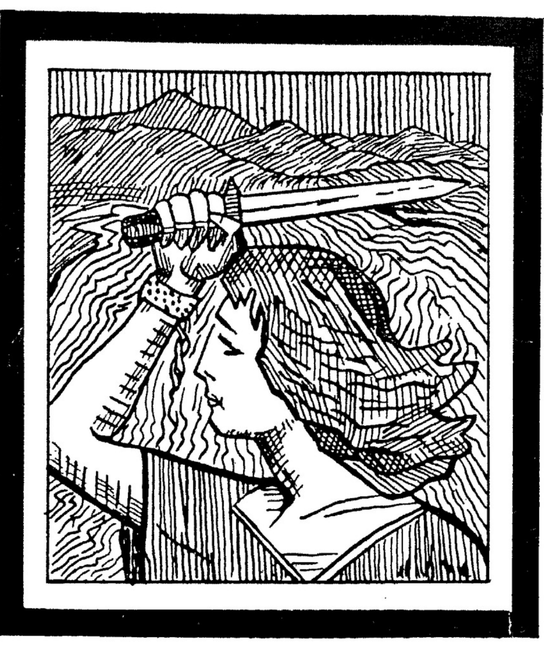
مؤتمر الخريجين العرب



هذه هي الجزائر

أحمد توفيق المدني

اهداءات ١٩٩٨
مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

أحمد توفيق المدني

هذه هي الجزائر

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها: محمد عبد الرازق

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى ضحايا معركة الحرية الحاسمة فى قطر الجزائر النبيل .

إلى أرواح الشهداء ، ودماء الأبرياء ، ودموع اليتامى .

إلى الذين ماتوا لتحيي مقدساتهم .

إلى الذين كسروا بأيديهم الجبارة أغلال الاستعباد .

إلى الذين تحطمت فوق صخرة إيمانهم موجة الاستعمار .

إلى الذين بنوا بعزائمهم الصادقة ، بين أكام من الجثث وبحر من الدماء وطوفان من ألسنة اللهيب ، صرح الجزائر الحرة ، السعيدة المستقلة .

أقدم هذه الدراسة المتواضعة ، اعترافاً بفضلهم ، وتخليداً لذكراهم ، وشهادة لهم أمام الله والناس أجمعين ، بأنهم استحقوا تقدير الوطن والتاريخ ، وتمجيد العروبة والإسلام .

أ . توفيق المدني

تمهيد

من هي هذه الأمة التي أدهشت العالم بجهادها، وبهرت الدنيا بثباتها أمام أعظم قوة استعمارية جردت في قطر من الأقطار، في أي عصر من العصور، واشرأبت إليها أنظار سائر الشعوب تشهد على يدها مصرع الظالمين، وتمزيق آخر صفحة من صفحات الاستعمار الدنيء القذر ؟

وما هي هذه البلاد التي يسجل التاريخ فوق جبالها ونجودها، وبين شعابها وكثبانها، صفحة من أروع صفحات البطولة والمجد، ويروي قصة نضال تحرري لا مثيل له في العالم، شاركت فيه أجيال وأجيال متعاقبة، حتى صار ذلك النضال التحرري «القاسم المشترك الأعظم» بين سائر أفراد هذه الأمة، وبين سائر أبناء هذا الوطن الشريف ؟

تلك هي أمة الجزائر. وذلك هو قطر الجزائر !

اسمان أصبحا ملء السمع وملء الفم وملء الضمير ؛ اسمان أصبحا علماً على كل المعاني التي تقدسها الرجولة الفاضلة، وتمجدها الكرامة الإنسانية : الجهاد في سبيل الحرية، والموت في سبيل الله والوطن، والتضحية، والإيثار، والبطولة الصامتة، والقيام بالواجب، كل الواجب إلى آخر قطرة من الدم، وإلى آخر رمق من الحياة .

تلقت الأمة ، عن أجدادها ، فوق أديم هذا الوطن ، علماً ، وسيفاً ، وضميراً ، وتوارثت ذلك كابراً عن كابر منذ أقدم العصور . فما سقط ذلك العلم ، علم الحرية ، من يد شهيد ، حتى تلقته أيدى الذين يقتفون فى ميدان الشرف خطاه ؛ وما استقر ذلك السيف ، سيف الكفاح والنضال فى غمده يوماً ، فهو دولة بين الأجداد والآباء والأحفاد لا يزال مشهراً منذ آلاف السنين ، يمجد الماضى ، وينشىء الحاضر ، ويهيىء المستقبل . وما خبت نار ذلك الضمير المتقدة ، ولا خفت نوره الوضاء ، فهو ضمير الإيمان والعقيدة والشعور . هو روح قدسية جماعية ألفت بين قلوب عشرة ملايين من البشر فصيرتهم جسما واحداً عملاقاً ، يقف موقف الجبار العنيد ، يحمى الحمى ، ويصون المقدسات ، ويقاوم الغاصبين ، لا يضعف ولا يلين .

لكن العالم ، والعالم العربى على الأخص ، لا يعرف عن هذا الشعب ولا عن بلاده الشىء الكثير ، فالاستعمار الفرنسى قد أقام بين العالم وبين هذه القطعة الثمينة الطيبة من أرض العروبة والإسلام ، جداراً حديدياً ، أراده هو أبدياً ، وأراده الله مؤقتاً ، فلم تشع أخباره ، ولم يذع ذكره . وتعمد الاستعمار محق معالمه ، وطمس تاريخه ، ومحو جنسيته ، وإعدام شخصيته ، كيلا يذكر بعد ذلك فى عالم العروبة ، ولا ضمن بلاد الإسلام ، ولا بين صفوف الأمم الحرة .

غير أن المستعمر لم يستطع أن يفرض إرادته ، رغم وسائل البطش

والقوة العسكرية الرهيبة اللذين مافتىء يشهرهما فى وجه الشعب الجزائرى المناضل ، فكان الشعب الجزائرى فى الأخير هو الذى فرض إرادته بقوة إيمانه وبقوة ساعديه وبقوة تضحيته ، وأصبح العالم اليوم ، — والعالم العربى على الأخص — ، يريد أن يعرف عن هذا الشعب المكافح الأبى وعن بلاده كل شىء .

وهذا هو موضع بحثنا اليوم .

فأنا لم أكتبه للدعاية ، إنما كتبته تسجيلا للواقع ، وتعريفاً علمياً بهذا القطر ، وبهذا الشعب . فهو يعتمد على الصادق من أبناء التاريخ ، وعلى الثابت من أرقام الإحصاء ، ويصف الحالة الحقيقية كأنها الصورة طبق الأصل ، فلا مبالغة ولا تهويل . فإذا ماصبر القارىء عليه ، وتلاه حتى نهايته ، وجد نفسه ملماً بكل مايجب أن يعرفه عن هذا القطر ، وعن هذا الشعب ، وعن هذا الجهاد .

ثم إنى قد استجبت فى تأليفه ، لرغبة عربية وطنية كريمة ، أبداها أخ مؤمن صادق كريم ، ألا وهو المجاهد الكبير الأستاذ محمد فؤاد جلال ، سكرتير عام مجلس الخدمات ، ورئيس مؤتمر الخريجين العرب .

فقياماً بواجبى ، وتلبية لهذه الرغبة المخلصة ، أقدم لعالم العروبة ، ولأقطار الأسلام ، هذا الكتاب ، وأرجو أن يكون وسيلة تزداد بها

روابط الأخوة والتضامن والكفاح ، بين العالم العربى الناهض ، وبين شعب الجزائر المجاهد ، واسطة عقد المغرب العربى الكريم ، حتى نشترك معاً فى تقويض آخر معاقل الاستعمار ، وإقامة جدران المستقبل العربى الباهر ، على أسس الأخوة الصادقة ، والتضامن الفعال ، تحت راية الحرية ، وفى نعيم الاستقلال .

ا . ت . المدنى

القسم الأول

التعريف بالبلاد الجزائرية

اسمها :

لماذا أطلقوا على هذه الأرض الشاسعة الغنية الممتدة بين حدود المملكة التونسية شرقا ، والمملكة المراكشية ، غربا ، اسم « قطر الجزائر »

وهل هذا القطر مؤلف من مجموعة من الجزر البحرية ، حتى استحق هذا الاسم ، . إن هذا القطر كان يدعى فى التاريخ العربى القديم « المغرب الأوسط » إلى سنة ١٥٠٠ ميلادية ، حين تدخل الأتراك العثمانيون فى أمره ، استجابة لطلب أهله ، وساعدوا على إنقاذه من السقوط تحت ضربات الاستعمار الإسبانى الفتاك ، بعد أن انتهى أمر الممالك الإسلامية ببلاد الأندلس .

وإذ جمع الأتراك العثمانيون ورجال المغرب الأوسط سائر البلاد تحت إدارة مركزية موحدة ، اتخذوا عاصمة لها بلدة صغيرة ، ذات موقع جغرافى ممتاز ، تتوسط الساحل كأنها درة تاجه ، تدعى « جزائر بنى مزغنة »

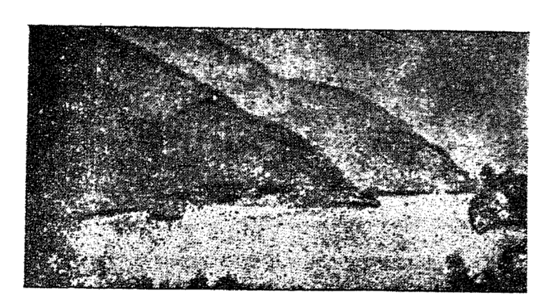
لوجود عدد من الجزر الصغيرة أمامها ، تستعملها لحماية سفنها والدفاع عن ديارها ضد غارة الأعداء فأخذ الأتراك وأهل البلاد يعمرون تلك المدينة ، وينشئون بها الدور والقصور إلى أن تضخمت وأصبحت من أكبر المدن الأفريقية قاطبة ، وصارت تدعى باختصار « مدينة الجزائر » ثم أطلقوا اسمها على كامل البلاد المترامية الأطراف التى تدين لحكمها ، وهكذا نشأت فى مستهل القرن السادس عشر ، وحدة تدعى الجزائرية ، أو قطر الجزائر ، مع نشأة العصر التاريخى الحديث فى العالم .



(شكل ١) مدينة الجزائر أيام الدولة المستقلة

ساحلها :

تقع البلاد الجزائرية كلها على البحر الأبيض المتوسط ، ولها ساحل صخرى فى الغالب ، يمتد نحو ١٢٠٠ كيلو متر ، فيما بين مملكتى تونس ومراكش . ويكاد هذا الساحل يسير على خط مستقيم ، ليس به كثير من الخلجان أو الجونات أو الجزر ، قد شيدت عليه من الشرق إلى الغرب،وراء جدران وسدود سميكة ، أهم المدن والمراسى البحرية : عنابة



(شكل ٢) خليج قرب مدينة جيجل

(بونة) سكسيدة (فليب فيل) ، بجاية ، الجزائر ، وهران ، جيجل . الخ

حدودها :

الحد الشرقى الجزائرى حد وضعى ، يفصل عمودياً بينها وبين مملكة

تونس ، من نقطة تبتدىء شرق « القالة » على البحر ، إلى نقطة تنتهى على مقربة من مدينة « غدامس » فى المملكة الليبية .

أما الحد الغربى . فهو وضعى كذلك ، لايعتمد على أى حاجز طبيعى . فينحدر عمودياً من نقطة غرب « الغزوات » (نمور) إلى واحة « الفقيق » ثم ينتهى غربا جنوب المملكة المراكشية .

وأما الحد الجنوبى فهو يفصل ، بصفة وضعية بحتة ، بين قطر الجزائر وأفريقيا الغربية الفرنسية ، بحيث يترك لقطر الجزائر بلاد « الهفار » التى تسكنها قبائل « الطوارق » العتيقة .

مساحتها :

يتألف القطر الجزائرى من قسمين : القسم الشمالى الآهل ، وقسم الصحراء والواحات الجنوبية .

أما مساحة بلاد الجزائر الشمالية فتبلغ ٢٠٧و٥٠٠ كيلو متر مربع
ومساحة بلاد الصحراء الجنوبية تبلغ ١و٩٨٧و٦٠٠ « « «
فتكون جملة مساحة القطر الجزائرى ٢و١٩٥و١٠٠ « « «

طبيعة الأرض الجزائرية :

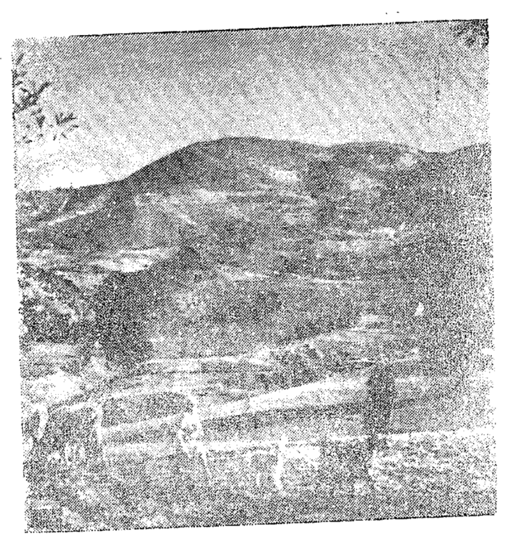
القطر الجزائرى فى مجموعة نجد مرتفع ، فإذا ماألقيت نظرة على خارطة القطر الجغرافية ، رأيت سهولا ضيقة شاسعة الغنى بديعة الحسن ،

تنحصر بين الجبال وساحل البحر . ووراء هذه السهول الساحلية تمتد سلسلة جبال الأطلس التلى ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . فإذا ما انحدرت من هذه الجبال المتواصلة رأيت نفسك فى إقليم « النجود » المترامى الأطراف ، والذى يبلغ ارتفاعه أحياناً نحو ٨٠٠ متر . فإذا استمر بك السير نحو الجنوب ، ارتفعت أمامك شامخة عظيمة سلسلة جبال الأطلس الصحراوى التى تخترق القطر بأسره من شرقه إلى غربه ، كأنها سد منيع أحكمت صنعه يد الله ، ليحول دون تسرب رمال الصحراء إلى إقليمى النجود والأطلس التلى .

وإذا ما اخترقت تلك الجبال الصعبة المرتقى ، الوعرة المنحدر ، وجدت نفسك أمام إقليم الصحراء المترامى الأطراف . وإليك نبذة وجيزة عن كل قسم من هذه الأقسام التى هى كل البلاد الجزائرية المجاهدة :

التل والساحل :

الساحل الجزائرى جنة يانعة ، وحديقة غناء ، هو غوطة دمشق ، أو دلتا النيل . إنه القطعة الحيوية من أرضنا الجزائرية ، حيث الأشجار الباسقة والفواكه والثمرات ، والأعناب التى يرتد الطرف عنها خاسئاً وهو حسير . ففى هذا الساحل تمتد سهول عنابة وسهول متيجة ، وسهول وهران ، وقد صيرها الاستعمار الفرنسى قطعة من أوربا ، بعد أن أبعد عنها بشتى الوسائل سكانها المسلمين ، وتركهم كنبوذى الهند فى العهد القديم ،



(شكل ٣) الأطلس التلي عند سكا مودي

أما الأطلس التلي فهو يمتد ويتضخم ، وينفسح أحياناً عن السهول الشاسعة الثرية ، وأهمها سهول المدية ، وسيدى بلعباس ، حيث المزارع الغنية . وترتفع جبال التل أحياناً إلى ٢٣٠٨ أمتار (قمة لالا خديجة ببلاد الجرجرة) .

هذه الجبال التلية غنية ، فيها المزارع ، وتكتنفها الغابات الكثيفة ، ويسكنها الجبليون من أصلب الناس عودا . وتشمل هذه السلسلة عدة جبال متلاحقة ، أهمها من الشرق للغرب : جبال سوق أهراس . وجبال بابور . وجبال جرجرة وتدعى بلاد القبائل الكبرى حيث يعيش مليون من الناس الكادحين العاملين . وجبال الونشريس ذات الغابات البديعة ، وجبال تلمسان التى هى من أجمل ما تراه العيون .

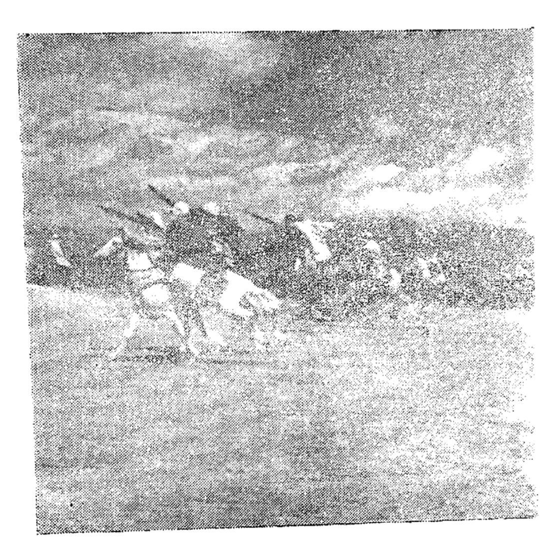
فثلاثة أرباع القطر الجزائرى يعيشون من خيرات هذه السهول وهذه الجبال . وفى هذه المنطقة تقع أهم وأكبر المدن الجزائرية الساحلية ، مثل عنابة ، وسكيكدة ، وبجاية ، والجزائر ، ووهران ، والداخلية مثل سوق أهراس ، وقالمة ، وقسنطينة ، وسطيف ، والبليدة ، والمدية ، ومليانة ، وسيدى بلعباس ، وتلمسان الخ . وتمتاز هذه المنطقة بجو معتدل ، وطقس جميل ، وأمطار منتظمة .

النجود :

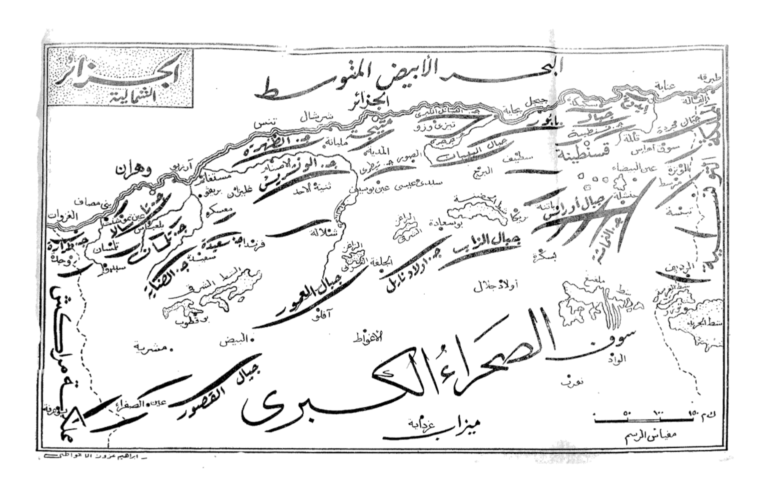
هذه المنطقة الشاسعة تنحصر بين سلسلتى الأطلس التلى ، والأطلس الصحراوى ، فهى بلاد المراعى والفضاء الفسيح ، لا تجد بها مدناً كبيرة ولا عمراناً واسعاً ، وقلما وجدت بها نبع ماء أو مجرى واد ، فأرضها تكتسى بنبات « الحلفة » الذى يجمعه الأعراب لبعض الشركات الاستعمارية الكبرى المحتكرة ، ويستعمل فى أوربا لصناعة الورق الرفيع وبعض الأقمشة ، ويكاد يكون ذلك هو المورد الوحيد الضئيل لسكان هذه

الناحية . والطقس فيها قاس شديد : ثلوج فى الشتاء ، وقيظ فى الصيف .

وفى فصل الربيع تكتسى هذه النجود كلها حلة سندسية من الأعشاب الزبرجدية ، ذات الزهور المختلفة الألوان ، فيغدو النجد كله كأنما هو زربية (سجاد) أتقنت صنعها يد الله .



(شكل ٤) سباق الخيل عند العرب فى النجود



ابراهيم عزوز الاغواطي

فرعاة الغنم بالصحراء ، يصعدون بماشيتهم إلى هذه النجود أثناء الربيع ويعضون بها جزءاً من الصيف والخريف ، يغذون قطعان الماشية بالأعشاب الخضراء ربيعاً ، فإذا ما جفت تلك الأعشاب أصبحت تدعى « الهيشر » وصلحت لغذاء الماشية صيفاً . وبما أن الاستعمار لم يتملك هذه الأرض ، فهو لم يحدث بها أى اصلاح ، ولم يفكر فى إيجاد وسائل لجمع الماء بها وادخاره لزمن الصيف ليكون مصدر حياة للرعاة العرب وسكان الجنوب . فالماشية الجزائرية ، وهى أهم مصادر الثروة عند العرب ، تصاب فى غالب الأحيان بكوارث فادحة من جراء العطش ، تذهب ضحيتها ملايين الأغنام ، وويل لأمة لا تحكمها الفئة الصالحة من بنيها ، وليست إدارتها فى يد ذويها .

الصحراء :

الجبال الشاهقة التى يجدها المرء فاصلة بين النجود والصحراء ، وهى من الشرق إلى الغرب : جبال النمامشة ، وأوراس ، موطن الأبطال ومنبت الصناديد من أقدم العصور ، ثم جبال أولاد نائل ، وجبال الجلفة ، وجبال عمور ، وجبال القصور .

ومن هذه الجبال ما هو مأهول مسكون ، كجبال أوراس التى تعتبر روضة من رياض الدنيا ، وجبال أولاد نائل وعمور ، من أقحاح العرب ، سلائل بنى هلال ، ومنها ما هو خلو تقريباً من السكان ، كجبال القصور .

وفى جبال أوراس الأشم ترتفع قمة « الشلية » وهى أعلى نقطة فى القطر الجزائرى (٢٣٢٧ متراً) .

خلف هذه الجبال الشاهقة ، ذات الجمال والعمران ، تمتد الصحراء بقسميها : الحمادة ، وهى بلاد الصخور المحترقة بوهج الشمس ، حيث لا حياة لحيوان أو لنبات ؛ والعرق ، وهو بلاد الرمال الذهبية ، مرتع الغزلان ، حيث توجد الحياة كلما وجد نبع ماء ، فهناك الواحات الواسعة



(شكل ٥) واد بو سعادة

الغنية التى تضرب بجمالها وبنخيلها الأمثال . ولا تنزل الأمطار بهذا الإقليم الصحراوى إلا نادراً جداً . وجوه قاس شديد ، حيث إن حرارته تبلغ صيفاً درجة ٧٠ ، وتنزل إلى درجة منخفضة جداً أثناء الليل ، أما زمن الشتاء فالبرد فيه لا يطاق .

الملحقات وبلاد الطوارق :

الملحقات هى الامتداد الطبيعى لقطر الجزائر جنوب الصحراء . وهذه الملحقات ناحية شاسعة تمر بها طرق القوافل الكبرى نحو الجنوب ، وتقع بها واحات توات ، وعين صالح ، والمنيعة وغيرها .

أما بلاد الهقار ، ويسكنها الطوارق الملثمون ، من قدماء البربر الامازيغ ، فهى قطر جبلى واسع ، أمطاره كثيرة ، وجباله شاهقة ، (٣٠٠٠ م) .

وللمرأة فى بلاد الطوارق السيادة . ويدعى الحاكم « أمين العقال » . وعدد الطوارق نحو ١٥ ألفاً ، وقد أثبتت البحوث الجيولوجية (علم طبقات الأرض) أن ثروات معدنية عظيمة جداً تختفى فى الصحراء والملحقات . لهذا أصبح الاستعمار الفرنسى يفكر فى سلخها عن قطر الجزائر وجعلها مقاطعة فرنسية ، ومساومة رؤوس الأموال العالمية عليها لاستثمارها . وهكذا يموت الاستعمار وهو يسير مع الأحلام .

الأمطار :

القطر الجزائرى قطر فلاحى بحت ، حال الاستعمار بينه وبين التصنيع ؛ والفلاحة فى قطر الجزائر لا تعتمد إلا على المطر ، فنظام الأمطار فى قطرنا هو مقياس الحياة وخاصة بالنسبة للمسلمين .

فالاستعمار الفرنسى قد استحوذ على سائر الأرض الفلاحية الجيدة ، وشاد بها السدود . أما الأرض الفلاحية الفقيرة التى بقيت بيد أهل البلاد لزهد الاستعمار فيها ، فقد بقيت فى إهمال تام ، فإن لم يجد عليها المزن بماء حدث الجدب ، وكانت الكارثة .

فالأمطار فى قطر الجزائر تكون غزيرة فى المناطق الساحلية الغنية — حيث ضرب الاستعمار أوتاده — وخاصة فى الساحل الشمالى الشرقى ، وينزل المطر فى هذه الناحية على معدل ١٠٠٠ مليمتر فى السنة .

وتليها منطقة أخرى لا تنال من الغيث إلا بمعدل ٧٠٠ م . م . وهى الناحية الشرقية الشمالية من البلاد — مما يلى المنطقة الأولى .

وهكذا تقل الأمطار كلما انحدرنا صوب الجنوب ، فنجد أرض النجود لا تنال إلا معدل ٣٠٠ م . م ثم الصحراء التى تنال أقل من ٢٠٠ م.م فى السنة

وتتهاطل الثلوج على المناطق الساحلية والتلية كلما زاد ارتفاع الأرض عن ٦٠٠ متر . وكذلك جهات النجود والأطلس الصحراوى ، أما جبال الجرجرة الشامخة ، فالثلج يلازمها نحو سبعة أشهر كل سنة .

الأودية والأنهار :

الأودية بقطر الجزائر — وخاصة الجهة الشمالية — عديدة ، لكنها ضعيفة جداً ، وأغلبها يجرى زمن الشتاء دافقاً ، فإذا ما حل فصل الصيف جف أكثرها . فما كان موجـــودا منها بالمناطق الاستعمارية بنيت عليه

السدود للانتفاع بمياهه ، أما ما كان بالمناطق التى بقيت للعرب فيضيع سدا ولا ينتفع به .

وليس بقطر الجزائر من الأنهار التى تسمى مع التسامح أنهاراً ، لأنها لا تجف زمن الصيف ، إلا ثلاثة ، : مجردة فى شرق البلاد ، والحراش فى الوسط ، والشلف فى الغرب ، وهو النهر الجزائرى الوحيد ، ويبلغ طوله (٧٠٠ كيلو متراً) ، وكل هذه الأنهار تصب فى البحر المتوسط .

وهنالك أودية ثانوية تصب مياهها فى البحيرات والسباخ الداخلية الآتى ذكرها . أما الأنهار التى تتكون فى شعاب الجبال الجنوبية ، فإنها تتجه نحو الصحراء ، ومن فضل الله على هذا القطر الصحراوى أن تلك الأودية ترسب فى الرمال إلى أن تجد طبقة طينية ، فتسير معها مختفية ، إلى أن تقترب تلك الطبقة الطينية من سطح الأرض ، فتتكون الواحات الغناء ويكثر العمران ، ويستمر سير المياه تحت الرمال بهذه الصفة ، إلى أن يبرز طبيعياً فتنشأ الواحة أو إلى أن يقع البحث عنها بواسطة حفر الآبار الفوارة (الارتوازية) ولولا أن النظام الاستعمارى الشنيع المفروض على أرض الجزائر قد أهمل النجود والصحراء ، لأن سكانهما من العرب ، واهتم أكبر الاهتمام بأقليمى الساحل والتل ، لأنهما محط رحال المستعمرين الأجانب ، لكانت حياة المسلمين فى الصحراء والنجود ، بواسطة حفظ المياه والبحث عنها ، حياة رغد وهناء ، وهذا ماستنشئه الجزائر المستقلة بحول الله .

وأهم الأودية التى تتكون حولها الواحات : وادى أريغ ، وعايه واحات

تقرت وتماسين — ووادى سوف ، الذى قامت على مياهه المباركة واحات : الواد ، وقار ، وكوينين — ووادى جدى ، وهو مصدر حياة مدن وواحات : الأغواط وأولاد جلال — ثم وادى ميزاب الذى تكونت حوله حضارة وعمران الميزابيين فى سبع من المدن والواحات الجميلة أهمها غرداية ومليكة وبنى يزقن .

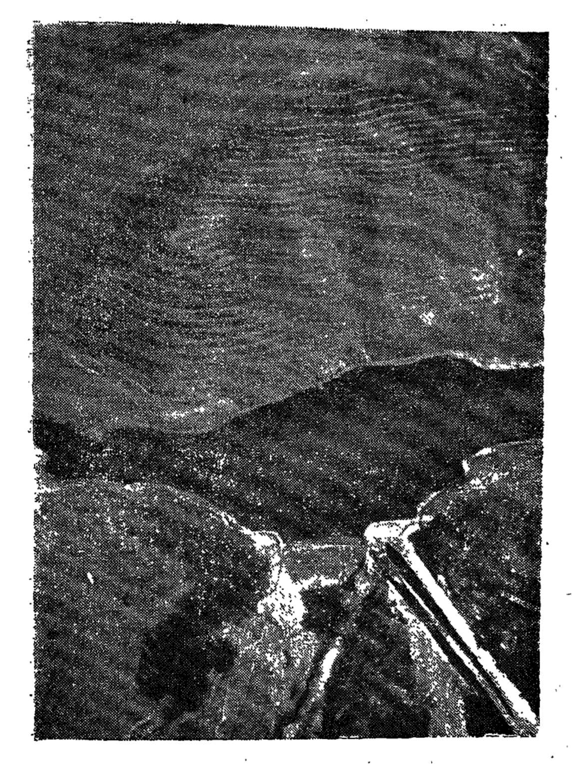
السباخ والبحيرات :

فى داخل إقليم النجود السالف الذكر ، يوجد عدد من السباخ والبحيرات ، يسمى بعضها : الزاغر ، إذا كانت صغيرة ، فإذا كبرت سميت : الشط ، وأهمها : شط الحضنة ، ومساحته ٢٧٦٥٠ هكتارا ، ثم الزاغر الشرقى ومساحته ٥٠٠٠٠ هكتار وتقدر كمية الملح الذى فيه بنحو ٣٣٠ مليون طن . ثم الشط الشرقى ، وهو بحيرة تقع على ارتفاع ١٠٠٠ م عن سطح البحر ، وتمسح ١٦٥ ألف هكتار ، ويقول علماء الجيولوجيا إن المياه الغزيرة التى تتسرب من هذه البحيرة تكون كمية هائلة من المياه العذبة ، لا يستطيع العقل تصورها ، تضيع دون جدوى فى بطن الأرض . فلو كانت الجزائر مستقلة ، ولو كانت مقاليد أمورها بأيدى أبنائها ، لوقعت العناية بهذه المياه الضخمة فكانت مصدر حياة ورخاء ، فى قطر حكم عليه الاستعمار بالموت فقراً وإهمالا .

السدود :

أنشأ الاستعمار لنفسه ، من أموال الميزانية التى يدفع المسلمون معظمها ، عدداً من السدود العظيمة فى مختلف الجهات التى استحوذ عليها وجعلها مصدر غناه ومنبع قوته . وتتجلى عظمة هـذه السدود خاصة بالناحية الغربية من قطر الجزائر ، حيث أصبح المستعمرون يمثلون الربع من مجموع السكان . . . فللمستعمر الأرض والثروة والسدود ، والمدن والقصور ، وللمسلم الفقر والفاقة والحرمان ومدن القصدير . وقصارى أمره أن يكون أجيراً ، يعمل لصالح المستعمر بأبخس الأثمان . شأنه فى ذلك شأن بقية إخوانه المسلمين فى قطر الجزائر ، حيثما وجد الاستعمار الـكبير .

وأهم هذه السدود : سد الغريب ، على وادى الشلف ، يوزع سنوياً ١٤٠ مليون متر مكعب من الماء ، ويسقى ٣٠ ألف هكتار من الأرض . وسد بو خيفية ، فى الغرب الجزائرى ، يوزع سنوياً على الأرض الاستعمارية ، (١٠٠ مليون متر مكعب) ، ويسقى (٢٠ ألف هكتار) الخ . فمجموع السدود فى الأرض الاستعمارية — ولا ينتفع منها إلا عدد قليل جداً من المسلمين بقوا فى شىء من الأرض — ١٢ سدا ، (تسقى ١٢٥ ألف هكتار) ، ومجموع المـاء المخزون بها سبعماية مليون متر مكعب . وتوزع سنوياً على الأرض الاستعمارية (٥٠٠ مليون متر مكعب) .



(شكل ٦) سد وادى سيق

الغابات :

كان القطر الجزائرى غنياً بغاباته الكثيفة قبل الاحتلال ، إلا أن العدوان الفرنسى الشنيع على البلاد سنة ١٨٣٠ والحروب الطاحنة التى وقعت إثر ذلك فدامت عشرات السنين ، قد خربت البلاد ، وأتلفت القرى وأحرقت الغابات وأعدمتها . فالاستعمار الفرنسى قد استقر فى البلاد الجزائرية على أشلاء الضحايا ، ورفع مدنه فوق خرابات المدن والقرى الجزائرية ، وغرس كرومه فى الأرض التى كانت مصدر حياة الأمة الجزائرية وقد سقتها بدمائها ، فكان عدد الذين ماتوا دفاعاً عنها ، أكثر من عدد الذين بقوا إلى حين عبيداً للاستعمار فيها (أنظر قسم السكان) .

فالغابات فى قطر الجزائر لا تحجب اليوم إلا نحو ثلاثة ملايين من الهكتارات . بينما البلاد فى حاجة إلى ما يزيد على السبعة ملايين هكتاراً . والاستعمار لا ينفق أموال البلاد إلا فيما يعود بالنفع القريب على المستعمرين وعلى الإدارة الاستعمارية . وعلى القوى الاستعمارية التى يجب أن تخضع أهل البلاد، فلم يبق من الموارد ماينفق على تعمير البادية ولا على تشجير الجبال ، ولا على ما يعود بالنفع على السكان المسلمين فى المناطق الجبلية والنجود والصحراء .

فغابات القطر الجزائرى التى لا تزال موجودة ، تقع غالباً فى إقليم التل كغابات القرو (**Chene**) والصنوبر (**Pin**) والبلوط أو الفلين (**Chene Hier**) ببلاد الجرجرة الأبية ، رافعة رأس الشمم إلى السماء . وغابات الأرز (**Cedre**) الشهيرة ببلاد الونشريين . وكذلك غابات الصنوبر الحلبى (**Pin d'aep**)

ثم ما بقى من غابات الزاياتين التى سيأتيك ذكرها فى القسم الاقتصادى .

هذه فذلكة موجزة ، عن الجغرافية الطبيعية للقطر الجزائرى المجاهد

فإن أردت أخى، زيادة فى التفصيل ، أو تعمقاً فى البحث ، فاسمح لى أحيلك على كتابى (جغرافية القطر الجزائرى) طبع الجزائر عام ١٩٥٢ دار الكتب المصرية عدد ط ٢٢٠٣ — أو كتابى (كتاب الجزائر) ط الجزائر عام ١٩٣١ — دار الكتب المصرية عدد

القسم الثاني

سكان القطر الجزائري

جاء في الإحصاء الرسمي، الذي وقع في اكتوبر سنة١٩٤٨ أن سكان القطر الجزائري كان يومئذ ٧,٦٧٩,٠٠٠ من المسلمين ، و ٩٢٢٢٧٠ من غير المسلمين .

وبما أن مصلحة الإحصاء تثبت أن عدد المسلمين يزداد كل سنة ١٦٥٠٠٠ وعدد غير المسلمين يزداد كل سنة ١٨٠٠٠ نسمة ، فيكون عدد السكان هذه السنة كما يلي :

مسلمون	٩,٠٠٠,٠٠٠
فرنسيون وأجانب	٠,٨٦٦,٠٠٠
يهود جزايريون متفرنسون	٠,٢٠٠و٠٠٠
مجموع عدد السكان	١٠,٠٦٦,٠٠٠

وإليكم كلمة موجزة عن كل قسم من هذه الأقسام .

المسلمون

هم سكان البلاد الأصليون ، وأصحابها الشرعيون . عرف التاريخ منذ عهده الأول أصولهم وأنسابهم ، وسجل لهم أمجادهم قبل الإسلام وبعده والمسلمون الجزائريون — ولله الحمد والمنة — عصبة واحدة هي عصبة الإسلام ، وأمة واحدة هي أمة القرآن ، وجماعة واحدة هي جماعة القومية الجزائرية ، قد اعتنقوا الإسلام ديناً منذ القرن الأول الهجري بصفة اجماعية واتخذوا العربية لساناً ، والسنة المحمدية مذهباً ، لا فرق في ذلك بين جبال الجزائر وسهولها ونجودها وصحرائها ولطالما حاول المستعمرون وأنصار المستعمرين أن يحدثوا التفرقة بين المسلمين بإثارة النعرات العصبية والجنسية التي يحاربها الإسلام وتقاومها الوطنية ، فما نجح الاستعمار في ذلك ، لا قليلا ولا كثيراً .

وقامت الثورة الكبرى على الاستعمار ونظمه وأحكامه ، فإذا بالأمة الإسلامية الجزائرية تهب كلها عن بكرة أبيها ، مشاركة في الثورة ، مؤيدة لها ، ولربما كانت الجهات التي حاول الاستعمار إبعادها عن العروبة وصدها عن الإسلام ، أكثر الجهات إيماناً في الثورة وإقداماً عليها .

أما إذا نظرنا إلى أصول المسلمين الجزائريين ، نظرة بحث علمي بحت ، رأيناهم ينحدرون من أصلين اثنين : الأصل الأمازيغي ، الذي أطلق عليه

اللاتينيون ومن والاهم اسم البربر ، والأصل العربى الوارد مع الفتوحات الإسلامية .

العرب :

العرب هم الأغلبية الساحقة من سكان القطر الجزائرى ، (٧ من ١٠). وقد استقرت أقدامهم فى بلاد المغرب العربى منذ أيام الفتح الإسلامى الأولى ، وتغلغلوا بين السكان الأولين الأمازيغ — نسبة إلى جدهم الأعلى مازيغ — يعلمونهم الدين ويجمعونهم حول القرآن وسنة محمد صلى الله عليه وسلم .

لكن الجند العربى الأول ، جند الرواد ، لم يكن كثير العدد ، فبقيت أكبر أقسام البلاد على مازيغيتها ، إلى أن حدثت تلك الهجرة التاريخية الشهيرة ، هجرة قبائل بنى هلال وبنى سليم ، من صحراء شرق النيل إلى المغرب العربى ، سنة ٤٤٤ هجرية ، فتدفق سيلهم وتكاثر عددهم ، وانتصبوا فى سائر السهول والواحات وأغاب الجبال ، واختلطوا بالعنصر الأمازيغى المسلم اختلاطاً وثيقاً فتصاهر العنصران وامتزجا ، وصهرتهم بوتقة الإسلام والعروبة ، فتكونت منهم الشعب الجزائرى ، العربى المسلم ، المجاهد فى سبيل دينه وعروبته ووطنه .

كان الخليفة الفاطمى المستنصر ، يريد أن ينتقم من أمراء صنهاجة فى المغرب العربى ، لأنهم خلعوا بيعته ، وخطبوا باسم الخليفة العباسى ، فأمر

أعراب الصحراء الشرقية المصرية بالاجتياز إلى أرض المغرب ، وما كان يدور بخلده يومئذ أنه وطد أقدام العروبة فى هذه الأرض إلى الأبد . فرغم وقوع اضطراب سياسى واقتصادى فى البلاد من جراء هذه الهجرة ، دام عدداً من السنين فقد تمكن السكان الأقدمون من أمازيغ وعزب ، والسكان الجدد ، من بنى هلال وبنى سليم ، من الاختلاط والامتزاج ، فتكونت الجامعة الإسلامية العربية على فلول العنصريات القديمة .

والعرب فى قطر الجزائر ينتسبون إلى هذه القبائل العربية الأصيلة : أثبج — جوشم — رياح — زغبة — معقل — وكلهم من بنى هلال ابن عامر .

ثم قبائل : دباب — هيب — زغب — عوف — وهم من بنى سليم ابن منصور .

ومن أراد الاطلاع على تفصيل قبائل العرب ، وأصولهم وبطونهم ، ومنازلهم ، ومواطنهم فى القطر الجزائرى ، فإنه يجد ذلك مفصلا فى كتابنا (كتاب الجزائر) صفحة ١٢٩ إلى صفحة ١٣٨ .

والعرب اليوم فى قطر الجزائر يتحلون بأرقى وأرفع ما فى العادات والتقاليد العربية الكريمة : النجدة والمروءة والكرم والوفاء . ولسانهم — وخاصة فى الجهات التى لم تدنس باستقرار الاستعمار الفرنسى — فصيح بصفة مدهشة ، لم يختلط بأى كلمة دخيلة ، فهم يتكلمون لغة قريش ،



(شكل ٧) جباة الواحة العربية

ويستعملون تراكيب القرآن ، وراثة عن آبائهم وأمهاتهم لا تعلما وتصنعا وهذا شأن البادية الجزائرية كلها ، وخاصة فى النجود وفى الجنوب .

الأمازيغ (البربر) :

هم أصل سكان المغرب العربى كافة ، وهم الذين اخترقوا عشرات القرون من تاريخه ، كما سيمر بك بعد قليل ، إلى أن وحد الله البلاد تحت راية الإسلام فى دائرة العروبة .

وهل الأمازيغ الأحرار ، بمعزل عن العرب ، أغراب عن العروبة الأولى ؟ كلا ! فابن خلدون مؤرخ البربر الأكبر ، وعمدة تاريخ البلاد القديم والمعتز بأصله البربرى كما يبدو من تاريخه ، يؤكد أن الأمازيغ أو البربر من أبناء : مازيغ بن كنعان بن حام ، وأن أصلهم من جهات ما بين النهرين بآسيا ، ثم ارتحلوا إلى بلاد المغرب ، مارين بالبلاد المصرية ، وقد أخذوا منها بعض الطقوس الدينية ، كعبادة « عمون » وآثارهم المنقوشة العتيقة ببعض جهات الجنوب تؤكد هذا .

ثم إن بنى كنعان من أهل فنيقيا ، قد اختلطوا بامازيغ اختلاطاً وثيقاً منذ سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ، وإذ كانت لغة الفنيقيين عربية تشبه إلى حد بعيد اللهجة العـــامية العربية المستعملة اليوم فى بلادنا ، فاستعمل البربر الأمازيغ تلك اللغة ، وأصبحت لسان العاملة والعلم بينهم ، قبل انبثاق فجر الإسلام بنحو ١٧٠٠ سنة .

الجزائر

مقياس الرسم

فرنسا
ايطاليا
اسبانيا
البرتغال
البحر الابيض المتوسط
بنزرت
عنابة
تونس
الجزائر
قسنطينة
وهران
طنجة
الرباط
الدار البيضاء
مراكش
مملكة مراكش
قابس
طرابلس
الأغواط
غرداية
ورقلة
كلوم بشار
المنيعة
الجزائر
ليبيا
فزان
الهقار
(الطوارق)
جانت
تمنراست
ريو دي اورو
موريتانيا
افريقيا الغربية
السودان الفرنسي
النيجر

وأغلبية الأمازيغ المستقرين بالقطر الجزائرى ، والذين لم يندمجوا اندماجاً تاماً فى العرب ، من قبائل البرانس ، ومنها : صنهاجة ، وكتامة ، ومصمودة ولمطة . والأمازيغى البربرى ، فى الجهات التى يسكنها بالبلاد الجزائرية ، يمتاز بالصلابة والشجاعة ، والتصلب للرأى ، وعشق الحرية إلى درجة الهيام ، وهو يسكن غالباً الجهات الجبلية الوعرة ، التى آوى إليها إثر الحروب الكبيرة التى اصطلى بنارها منذ عهد روما ، ويعيش فيها عيش الكد والعمل والإقلال ، فيشترك الرجل والمرأة والصبى فى الأعمال المرهقة للاحتفاظ بالحياة فى بلاد الآباء والأجداد . والأمازيغى البربرى فى جباله محافظ — مع إسلامه المتين — على تقاليده وعوائده ، مضياف كريم ، رغم فاقته ، لايصبر على عار ، ولا يضيع عنده ثأر .

والكتلة الامازيغية الكبرى فى قطر الجزائر ، هى جبال الجرجرة ، أو بلاد القبائل الكبرى ، وأهمها قبيلة « زواوة » وتقع شرق مدينة الجزائر موازية للبحر ، ففى هذه الجبال المنيعة التى صارعت الأمم وغالبت الدول ، وسجل التاريخ على فجاجها ومرتفعاتها أروع صحف البطولة والنجدة ، يعيش فى ضيق مادى وأدبى مليون إنسان ، يحتفظون بنظام العائلة والصف ويدينون جميعاً بالإسلام الحنيف ، ولهم صلابة فيه ، ويتكلم أكثرهم اللغة العربية إلى جانب اللغة المحلية ، فليس فيهم من لايتكلم العربية ، إلا نحو ٥٠ ألفاً من الناس ، ورغم أن الاستعمار قد أصاب سكان هذه البلاد بنكبات فادحة ، واستحوذ على أجود أرضهم الجبلية ، فقد حاول أن يفصل بينهم

وبين العرب ، وأن يقتطعهم من جسم العروبة والإسلام ، فنشر بين ربوعه التعليم الحكومى الفرنسى ، وقاوم العربية مقاومة عنيفة ، وحارب الإسلا حرباً لاهوادة فيها ؛ وأفسح الطريق أمام الإرساليات المسيحية التى تنادى بالنعرة البربرية ، وتدعو الناس جهاراً لمقاومة العربية والإسلام ، لكى تتكون له فى هذا القطر فئة من أهل البلاد ، لغتها الفرنسية ، ودينه المسيحية ، ولكن أهل البلاد قاوموا وتصلبوا فباء الإستعمار بالفشل الذريع

فبفضل الدعوة الإسلامية التى قام بها الشيوخ المسلمون قديماً ، والنهض الحديثة التى تولت كبرها جمعية العلماء المسلمين ، والبعث السياسى الذى تم على أيدى الأحزاب الوطنية الجزائرية ، خسر الاستعمار معركته ، فإذ بالكتلة الأمازيغية البربرية تقف اليوم فى صف الثورة الكبرى ، تحت راية الإسلام ، والعروبة ، والوطنية الجزائرية ، وقد ذابت فى جميع ذلك كل الفروق ، ولم تبق لكل أبناء الوطن من غاية ، إلا الاستقلال الوطنى ولم يبق لهم من عدو ، إلا الاستعمار الغاصب .

الفرنسيون

الفرنسيون المستقرون اليوم بأرض الجزائر على نوعين : النوع الأول مؤلف من أبناء فرنسا الذين دخلوا البلاد مع جنود الاحتلال فاستولوا بحكم الفتح على أرضها وعلى خيراتها وأموالها ، أو الذين جاؤا بعد الفتح جموعا متوالية ، تنشطهم على ذلك حكومتهم وإدارة البلاد ، لكى ينالوا



(شكل ٨) الأمازيغ الأباة فى جبال جرجرة

الثروة والسلطان دون تعب أو مشقة ، وأكثرهم من جزيرة كورسكا وجهات الأثراس والورين .

أما النوع الثانى ، فهو خليط من أبناء العنصر اللاتينى ، من إيطاليا وإسبانيا ، جاءوا البلاد واستقروا فيها وأغدقت عليهم السلطة الأموال ومنحتهم الأرض الشاسعة ، لكى يتضخم بهم عدد الجالية الأوروبية المسيحية ، فنالوا الجنسية الفرنسية ، وأصبحوا فى بلادنا سادة ، بعد أن كانوا فى بلادهم حثالة ، بل أصبحوا الحاكين بأمرهم ، وأصحاب السلطة المطلقة مع بقية الفرنسيين

فهؤلاء الفرنسيون أو المتفرنسون ، الذين بلغ عددهم اليوم نحو ثمانمائة ألف رجل ، هم سبب مصيبة القطر الجزائرى ، وهم أصل البلاء الذى عانت البلاد منه الأمرين ، إلى أن وصلت بعد المحاولات العديدة إلى الثورة الكبرى الحالية ، التى لاتكون وراءها إلا الحياة الحرة أو الموت الشريف .

تجمع بين أفراد هذه الطائفة التى تدعى «فرنسية» رابطة مقدسة ذات شعار مربع : الاستبداد ، الاستحواذ ، الاحتقار ، التنكيل .

١ — فالاستبداد جعل هذه الطائفة المحظوظة تستأثر وحدها بكل مقاليد الحكم فى البلاد ، فهى الدولة ، وهى الإدارة ، وهى الحكومة ، ولاتسمح لأحد ، ولا لحكومة فرنسا نفسها ، أن يزج بأنفه فى أمور القطر الجزائرى ، فهى تراه ملكها الخاص بها . ووصل بها الأمر مرارا إلى تهديد فرنسا بالانفصال عنها ، وتشكيل دولة عنصرية فى قطر الجزائر على غرار دولة الدكتور

مالان الدينية فى اتحاد جنوب افريقيا . ولقد قاوموا كل أصلاح ، ووقفوا الموقف الصارم ضد كل محاولة لأزالة شيء من الحيف الفظيع والاجحاف الفاضح الذى أوجدته أدارتهم وحكومتهم بالقطر الجزائرى . فبواسطة أموالهم الطائلة وصحفهم القوية ، وسماسرتهم . . . الموجودين فى الوزارات والمجالس النيابية الفرنسية ، كانوا يتصرفون فى أمور الدولة ، ويبعدون عن القطر الجزائرى كل وال وكل موظف لم يخضع لإدارتهم ، أو تقاعس عن تنفيذ أغراضهم . وآخر منظر لهم من مناظر هذا الاستبداد الفظيع ماقابلوا به — يوم ٦ فبراير سنة ١٩٥٦ — تعيين الجنرال كاترو من قبل حكومة ق مولى الزعيم الأشتراكى حتى اضطروه لتقديم استقالته ، لأنهم ظنوا أنه ربما أنصف المسلمين فى شيء ، ثم ماقاموا به نفس ذلك اليوم ، فى مدينة الجزائر العاصمة ، من اعتداء منعدم النظير على شخص رئيس الحكومة ، وقذفه بالشتائم القذعة ، فما وسعه إلا أن انهار أمامهم ، ورضخ لإرادتهم ، وأصبح لسان الدفاع عنهم ، يلتمس لهم المعاذير .

٢ — والاستحواذ وهو المصيبة الثانية ، جعل هذه الطائفة تستأثر بكل شيء فى القطر الجزائرى ، فلها كما رأينا الحكومة ؛ ولها الإدارة ؛ ولها المجالس المنتخبة ؛ ثم لها وحدها كامل الأرض الزراعية الخصبة فى كل البلاد الجزائرية ، ولها كل البنوك ، وكل الشركات ؛ وجميع رؤوس الأموال ، ولها كل المناجم ، وكل المعادن ، وكل حركات التجارة بين صادر ووارد ، ولها كل الصناعة القليلة التى وجدت فى البلاد .

أما أهل البلاد ، التسعة ملايين من السكان المسلمين ، فقضارى أمرهم

أن يكونوا فى أرض آبائهم وأجدادهم أجراء ، يكدحون آناء الليل وأطراف النهار ، مقابل مالا يكاد يسد الرمق . أما فى الإدارات ودواليب الحكم وشركات الأعمال الكبرى ، فلا يوجد من المسلمين أحد . فالوظيفة وقف على الفرنسى ، والعمل أن ارتفعت درجته وقف على الفرنسى ، (من ٥٠٠٠ موظف بالدواليب الحكومية لا يوجد ألا ٨ فقط من المسلمين !) .

٣ — الاحتقار : وهو ثالثة الأثافى . فهذا العنصر الذى أصبح يعتقد اعتقادا دينيا أن الله قد خلقه وفضله فى أرض الجزائر على العالمين ، لا يكتفى بالاستبداد فى الحكم ، ولا بالاستئثار بسائر وسائل الثروة والعمل والإنتاج ، بل يعزز ذلك بصفة ملازمة لا يشذ عنها إلا فى النادر القليل ، ألا وهى احتقار المسلم ، وامتهانه ، والإمعان فى إذايته ، والتفنن فى تلقيبه بالألقاب الجارحة . فكل مسلم عند هؤلاء القوم أما (بيكو) يعنى القذر ، وأما — ترون فيقى — يعنى جذع التين الشوكى ، وكل سيدة مسلمة عندهم إما « لاموكير » أو « فاتما » وليقس ما لم يقل . ولو أردنا أن نضرب الأمثال على ذلك لكتبنا عنه الصفحات الطويلة . إنما نحن لم ننس أننا ما كتبنا هذه الرسالة إلا لعرض علمى تحليلى ، لا لنتخذ منها وسيلة للدعاية والتشهير ولو بالحق . ومن أمثالهم المألوفة المعروفة : « العربى هو الخطر ! » و « إذا رأيت فى طريقك عربياً وأفعى ، فبادر بقتل العربى قبل الأفعى » .

٤ — التنكيل : يعلم هؤلاء القوم ، أن حكمهم الغاشم المبنى على القوة

والاستبداد لا يمكن أن يستمر وأن يدوم ، إلا ما دام المسلم الجزائرى ، جاهلا ، فقيرا ، مهملا ، فاقد الصوت والـكانة ، فهم يسرفون فى سياسة التجهيل والتفقير ، وقد أصبحت عندهم نوعاً من الهيستريا الجماعية — ولا أقولها تحاملا — فكل مسلم تعلم ، فهو عدو يجب محقه ، وكل مسلم أثرى — وذلك هو النادر — فهو الخصم الذى يجب أن يحطم . لهذا فهم يمعنون فى إيصـاد أبواب العلم والمعرفة فى وجه الأمة (أنظر قسم التعليم فيما يلى) ويحاربون العربية والدين الإسلامى محاربة لا مثيل لها فى الدنيا ، ويقفون بما فى أيديهم من نفوذ وسلطان ضد أى مشروع إقتصادى لعرب القطر الجزائرى .

فإذا ما وقعت عملية زجر وقمع ، بادروا قبل كل شىء بقتل وإفنـاء الطبقة المتعلمة والطبقة الثرية ، كما وقع فى حوادث ١٨٧١ و ١٩٤٥ و ١٩٥٥ .

وقد تفننوا فى وضع القوانين الصارمة المنـافية للإنسانية ، لإنزال البطش والتنكيل بالمسلمين ، كقوانين الأهليـة « الأنديجنا » وقوانين المسئولية الجماعية التى تصيب كامل القرية أو القبيلة لذنب — نظرى — يجترحه أحد أفرادها . ثم هم يغتنمون أول فرصة تسنح لهم ، للقيام بأعمال الزجر الفظيعة الرهيبة ، بدعوى إخماد الفتنة وضرب المثل ، فآلاف الناس من رجال وشيوخ ، ونساء وصبيان يقتلون تقتيلا شنيعا ويمثل بهم ، بعد انتهاك الحرمات بصفة يتورع عن وصفها القلم النزيه . فبـــلاد القبائل

الكـبرى، وبلاد أوراس ، والمواطن الواقعة بين قالمة وسطيف وخراطه قدشاهد من ذلك فصولا من العار والشنار لا تمحوها يد الدهر كحوادث (٨ مايو سنـة ١٩٤٥) ثم حوادث الثورة الأخيرة وما يسلـكون فيها من سياسة البطش الجماعى ، وتحطيم الجهات العديدة وإز كل مراسم الحياة فيها . فأسفرت حوادث ماى سنة ١٩٤٥ عن ٤٥ أ من القتلى ، وأسفرت الحوادث الأخيرة عن ١٣٠ ألفاً من الشهداء إ يومنا هذا ، وهذه هى سياستهم منذ سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٩٥٦ .

فمن علم كل هذا ، ومن علم ما سنقوله بعد هذا ، لا يعجب من وقو الثورة الجزائرية الـكبرى سنة ١٩٥٤ ، بل يعجب ويمعن فى العجب كيف أنها لم تقع قبل ذلك !

واليوم ، نفس هذا اليوم ، بينما تضج الدنيا بأسرها مما هو واقع بقد الجزائر من مجازر وفضائح وموبقات ، وحرب ضروس لا تبقى ولا تذر وبينما يقف الـكثير من أحرار فرنسا ورجال الفـكر والأدب والسياس فيها موقف الحزم والصراحة فى استنكار هـذه الأساليب الوحشية ؛ نر الفرنسيين فى قطر الجزائر — إلا النادر القليل — لم يتعلموا من منطو الحوادث شيئاً ، ولم ينسوا من تعاليمهم القديمة شيئاً ، فهم يرون أن لاعلا الحالة إلا بتحطيم كل وسائل المقاومة فى أيدى المسلمين ، ثم الإمعار فى السياسة الاستعمارية التقليدية ، كأن لم تقع ثورة بدلت الأرض غير الأرض وأوصدت أبواب الماضى ، وفتحت أبواب المستقبل !

هذا هو وصف الفرنسي الجزائري . أو بالأحرى : اللاتيني الجزائري . لأن هذا العنصر أناني إلى درجة أنه لا يفكر في فرنسا إلا متى استطاع الاستفادة منها . وبما أن فرنسا ترى أنه لا يمكن لها البقاء في أرض الجزائر إلا إذا ما هي خدمت ركاب هذا العنصر ونفذت له رغائبه ، فإنها كانت له — ولا تزال — المطية الذلول ، إلى أن تتمكن الأمة الجزائرية الجبارة من تغيير هذا المنكر العظيم بقوة سواعدها ودماء شهدائها وصادق عزيمتها .

اليهــــود

يبلغ عدد اليهود في القطر الجزائري نحواً من مائتي ألف نسمة ولقد كانوا يعاملون في القطر الجزائري قبل الاحتلال معاملة أهل الذمــة ، ويعتبرهم المسلمون جيراناً لهم يرعون عهدهم ويحققون لهم حرية العمل وحرية المعتقد ، بل كان اليهود ينالون أحياناً المناصب الرفيعة في الإدارة ، وخاصة — أيام الجمهورية الجزائرية — العثمانية ودولة الجزائر الحرة العربية .

وكان اليهود يلجأون إلى قطر الجزائر كلما نابتهم نائبة في أقطار البحر المتوسط ، فمن أيام بختنصر (٣٢٠ ق . م) إلى أيام انهيار الدولة الإسلامية ببــلاد الأندلس ، (أواخر القرن الرابع عشر) كانت وفود اليهود ترد على البلاد الجزائرية ، فتحل فيها على الرحب والسعة .

لــكن اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم جالية مستقلة ، فلا يشاركون في

الدفاع عن البلاد ، ولا يراعون مصلحة الوطن فى معاملاتهم التجارية والاقتصادية ، وجاء الاحتلال الفرنسى فمملوا إلى جانبه ، واشتغلوا له سماسرة وتراجمة ، وأثروا ثراء عظيما ، وأخذوا فى الاستيلاء على مرافق البلاد التجارية والاقتصادية ، وكانوا لا يزالون معتبرين من الأهالى . إلى أن انتصبت حكومة الثورة سنة ١٨٧٠ فى باريس ، وكان من بين أعضائها اليهودى « كريميو » فأعلن فرنسة كل يهود الجزائر الشمالية ، وأخذوا من ذلك الوقت يندمجون فى الحياة العامة الفرنسية اندماجاً تاما ، وغيروا أسماءهم وألقابهم ، وتصاهروا مع الفرنسيين وتغلغلوا فى وسط عائلتهم ، إلى أن قامت ضدهم فتنة من الفرنسيين فى البلاد الجزائرية سنة ١٨٩٧ ، فما نجوا من الذبحة إلا بأعجوبة ، لكنهم عادوا بعد قليل إلى مكانتهم ونفوذهم .

وإنهم لا يزالون يسلكون سياسة اللعب على حبلين ، فهم فرنسيون استعماريون غلاة ، إن كانوا مع الفرنسيين ، وهم « أبناء البلاد » إن كانوا مع المسلمين فى تجارة أو معاملة ، إلى أن انهارت فرنسا بصفة فاضحة مخجلة سنة ١٩٤٠ ، ولم تستطع الثبات فى وجه ألمانيا أكثر من نصف شهر ، فسلكت حكومتها سياسة الميز العنصرى الألمانية ، ونزعت عن يهود الجزائر جنسيتهم الفرنسية ، فأصبحوا من جديد « أنديجين » ، وحجزت أملاكهم ، وأبعدوا عن منابع الثروة . فكثر عندئذ تقربهم من المسلمين ، وأخذوا يذكرونهم بحسن الجوار القديم .

لكن ، ما كاد الحال يتغير بانتصار المتحالفين ، حتى عاد اليهود سيرتهم الأولى ، واستعادوا أموالهم ، ونفوذهم ، ومراكزهم ، وجنسيتهم الفرنسية .

وفاجأتهم الثورة وهم على تلك الحال .

ولقد أعلنوا أنهم يلازمون سياسة الحياد ولو بصفة ظاهرية . ويبدى صغارهم للمسلمين وخاصة فى المدن الصغيرة ، عطفه ، كما يبدى كبارهم للمستعمرين تأييدهم ، وربط مستقبلهم بمستقبلهم ؛ إلى أن تحرج الموقف أخيراً — فى ماى سنة ١٩٤٦ — إذ شارك رعاعهم فى أعمال التنكيل والزجر بمدينة قسنطينة — إلى جانب الفرنسيين ، فقتلوا جماعة من المسلمين وهددوا بقتل جماعة أخرى ، بدعوى أن أحد اليهود قد قتل أثناء عملية من عمليات الثورة .

فأعلن المسلمون أخيراً فى جهة قسنطينة مقاطعة التجار اليهود — تأديباً لهم — وأخذت هذه الحركة تنتشر وتعم . ويقول الجزائريون اليوم وقد وصلت قضية الجزائر إلى هذه المرحلة الحاسمة : على اليهود أن يبينوا موقفهم بصفة صريحة لا التواء فيها ، فإما أن يعتبروا أنفسهم جزائريين ، فيعملوا ما توجبه عليهم جزائريتهم ، وإما أن يعتبروا أنفسهم فرنسيين ، فنعاملهم فى جزائر الغد على تلك القاعدة .

ولم يقل اليهود بعد كلمتهم فى هذا الصدد ، لكن نقول لهم بكل صراحة : إن من لعب على حبلين يوشك أن يخسر الصفقتين .

* * *

والآن ، وقد عرفت الأرض وتعرفت على السكان ، اتريدان أن تجول معى جولة قصيرة خلال تاريخ هـذا القطر المجاهد ، من أوائل عهـده إلى يومنا هذا ، لترى كيف جاهد خلال عشرات القرون فى سبيل حريته والذود عن حماه ، وكيف هو أقام أسس الدول العظيمة ، وأنشأ الحضارات العريقة ؟

إن أردت ذلك ، فهلم معى نخترق غياهب العصور ، إلى أن نصل إلى الاحتلال الفرنسى ، ثم ندرس بعد ذلك آثار هذا الاحتلال ، وتطوراته ، وما عمـله لتحطيم الأمة الجزائرية ، وماذا كانت آثاره فى المجتمع وفى اقتصاد البلاد ، إلى أن تجـد أن الثورة الحاضرة كانت ضربة لازب ، وكانت النتيجة الطبيعية المحتمة لهذا الاستعمار الفظيع ، ونلج بعدئذ ميدان الثورة ، فنلقى على جوانبه وعلى أغواره نظرة فاحصة ، نرى بها أعمالها ، ونشاهد بها تحقيق آمالها . فهيا بنا ...

القسم الثالث

ما يجب أن نعرف عن تاريخ الوطن الجزائري

١ — الفنيقيون

كانت أمة الأمازيغ الأحرار « البربر » تعيش عيشة بدائية ساذجة فوق أديم أرضها بكامل تراب المغرب العربي ، وكانت مقسمة إلى عشائر متعددة ، وممالك صغيرة محلية ، إلى أن جاءها النور من الشرق العربي ، منذ ثلاثة آلاف سنة .

ذلك أن الفنيقيين ، عمالقة الحضارة القديمة ، ومخترعي الأحرف الهجائية ، ومكتشفي أقطار العالم بواسطة مغامراتهم البحرية التجارية ، قد أموا بسفنهم وبمصنوعاتهم سواحل المغرب العربي ، واستقروا فيه . ولم يكونوا مستعمرين ولا فاتحين ، إنما كانوا رواد مدنية ، ودعاة تبادل ثقافي واقتصادي ، على بساط السلم والمعاملة الحسنة ، فأسسوا على سواحل القطر الجزائري مدناً كانت تدعى المراكز التجارية ، ومنها : عنابة ، وبجاية ، وجيجل ، وتنس ، وغيرها . وأصبحت هذه المدن بعد قليل أسواقاً وطنية تؤمها جموع الأمازيغ من كل جهات البلاد ، للتبادل التجاري ، وللتعلم ، والاطلاع على أنباء الدنيا .

وإذ كانت اللغة الكنعانيين عربية الأصل[١] ، فالأمازيغ قد أخذ يكترعون من حوض تلك اللغة ، وجعلوها لسان الطبقة الراقية منهم ثم أخذوا عن الفنيقيين كذلك دينهم الوثني : عبادة الشمس «بعل» والقم «تأنيث» وغيرها .

فالقطر الجزائرى قد تلقى النور من الشرق ، واندمج فى الحضار الشرقية واصطبغ بها إلى الأبد .

٢ — قرطاجنة ونفوذها العظيم

فى سنة ٤٨٠ ق.م . حدث فى بلاد المغرب العربى حدث غير مجرى التاريخ . ذلك أن أميرة فنيقية أسست مع جماعة من الأشراف ، مدينة جديدة فى الشمال الشرقى من مملكة تونس ، أسمتها « قرطة حدثت » أى القرية الحديثة . وهى التى أصبحت بعد تحريفها : قرطاجنة .

فهذه القرية الحديثة أصبحت بعد قليل ، الدولة الحديثة . وما عتمت أن صارت الامبراطورية الحديثة . فالدولة القرطاجنية الكنعانية ، وطدت أركانها فى كامل أطراف المملكة التونسية ، ثم بسطت نفوذها وسلطانها بصفة سلمية على كامل بلاد المغرب العربى ، وعلى الأخص بلاد الجزائر .

(١) تدل على ذلك الكتابة التى تركوها منقوشة على الحجارة ، بحيث أن الإنسان يستطيع فهمها دون أدنى مشقة (أنظر كتابى « تقويم المنصور » ج ٥ طبع الجزائر سنة ١٩٢٩ . .

وكان من تأثير قرطاجنة على أمراء البربر الأمازيغ ، أنهم أخذوا يقتدون بها فى إنشاء الممالك الواسعة ، والعواصم الفسيحة ، وتمدهم هى بالخبراء الذين يساعدون على تدوين الدواوين ، وتنظيم أمور المملكة ، وهكذا نشأت بقطر الجزائر دولة نوميديا العظيمة .

٣ — نوميديا وملوكها

فى قرطة (قسطنطينة) اليوم ، استقر الملك شامخاً عظيما ، وحاول ملوك دولة نوميديا أن يجمعوا شمل كامل قطر المغرب الأوسط ، فيما بين دولة قرطاجنة (مملكة تونس) ودولة موريطانيا (مملكة مراكش) ونجحوا فى ذلك إلى حد بعيد . وكانت الدولة الجزائرية قد انتظمت وتوحدت لأول مرة فى التاريخ حوالى سنة ٣٠٠ ق . م . وتولى أمرها ملوك سجل التاريخ أسماءهم بأحرف بارزة .

وهنا اصطدم القطر الجزائرى بالاستعمار ، والاستعمار اللاتينى بعينه ، لأول مرة فى تاريخه ، حوالى سنة ٢٥٠ ق . م .

ذلك أن دولة روما الناشئة قد أخذت تتحدى دولة قرطاجنة الضخمة المترفة ، ودخلت معها فى سلسلة من الحروب الفظيعة التى دامت نحو المائة عام ، ظهرت أثناءها شخصية أعظم قادة الدنيا على الإطلاق ، « حن بعل » ويدعوه الأوربيون « هنيبال » ، وإذ كانت روما أكثر نظاماً ، وأوفر قوة ، وإذ كان جندها جندا منظما منقادا أحسن انقياد ، بينما كان جند

قرطاجنة من المرتزقة ، كتبت الغلبة لرومة ، ومحت بصفة إجرامية فظيعة مدينة قرطاجنة من الوجـــود ، فطمست بذلك صفحات مدنية من ألمع مدنيات العالم القديم ، وكان سكان قرطاجنة العاصمة يبلغون ساعة الفتك بالمدينة ٨٠٠ ألف نسمة ؛ لم يبق منهم بعد النكبة إلا ٣٥ ألفاً !

لعب الأمازيغ دورا حاسما فى هذه الحروب . وانقسموا إلى حزبين :

حزب أراد الوفاء لقرطاجنة ، وتحقيق الاستقلال الوطنى بواسطتها ، وكان على رأس هذا الحزب الملك صفاقس. وحزب آخر، رأى أن كفة رومة هى الراجحة وأن دولة قرطاجنة قد دالت ، واعتقد أن الحكمة تقضى عليه بنصرتها والاحراز على رضاها ، وعلى رأس هذا الحزب الملك ماصينيسا ، وكانت الغلبة له وللرومان المستعمرين الذين أيدهم وساندهم برجاله وبدهائه .

وهكذا انتهى أمر دولة قرطاجنة التى كانت أول دولة ديمقراطية فى العالم ، إذ كان يشرف على نظامها مجلس نيابى يمثل أصحاب المصالح وعدد أعضائه ٣٠٠ نائب ، ومجلس القدماء أو الأعيان ، ويشمل مائة عضو ، ويتولى السلطة التنفيذية سبطان : سبط البر وسبط البحر (جمعه أسباط) .

لكن نفوذها الأدبى ، وسلطانها التمدينى ، قد عاشا بعدها فى قطر الجزائر مئات السنين ، حتى جاء الإسلام بنوره الساطع .

٤ — الاستعمار الرومانى

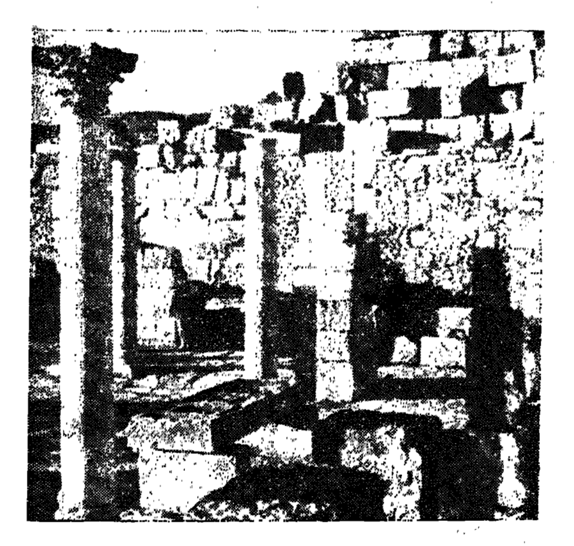
خيم الرومانيون على البلاد بصفة قاسية ، وكان تاريخهم فيها ، وقد دام

٧٠٠ عام ، ينقسم إلى خمسة أدوار :

الدور الأول : دور « الحماية » فقد اعترفت روما بمملكة نوميديا ، وتركت ماصنيسا يديرها إدارة مستقلة تحت إشرافها ونفوذها الذى أخذ يعظم وينتشر . فرأى فى آخر أيامه أنه قد أصبح صورة لا حياة فيها ، وأن الاستقلال والاحتلال لا يتفقان أبداً فقضى نحبه خائب الأمل . وهكذا كان شأن بقية الملوك الذين نصبتهم رومة تحت حمايتها .

الدور الثانى : دور النزاع المسلح بين الوطنية النوميدية « الجزائرية » وبين الجيوش الرومانية . إذا ما كاد الملك العظيم « يوغورطا » يتربع على عرش قرطة ، ويحكم نوميديا ، حتى رأى أن الحرب قد أصبحت ضربة لازب ، فإما استقلال وإما فناء . وحياة الذل والخضوع حرام على كرام الرجال .

ورأى الرومانيون كذلك أنهم إن تركوا هذا الملك وشأنه ، عظم أمره ، فاستعدوا له ، واستعدوا عليه ، وما عتمت الحرب أن اشتعلت شديدة قاسية بين الجانبين ، واستبسل النوميديون « الجزائريون » استبسالا فى الدفاع عن استقلالهم وحريتهم ، لم يسع المؤرخ الرومانى « سالستس » إلا تسجيله وتمجيده . ودامت هذه الحرب زهاء الثلاثين سنة ، وعمت سائر جهات القطر الجزائرى ، وانتهت بانهيار الحق أمام القوة ، وموت البطل يوغورطا جوعاً فى سجون رومة الطاغية .



(شكل ٩) بقايا مدينة جميلة الرومانية

الدور الثالث : انتهى أمر دولة نوميديا ، ورضخت البلاد لسلطان روما القاسى العنيف مرغمة ، لكنها وجدت مفرجاً لكربتها ، بتلك الحروب الطاحنة التي كانت تدور بين كبار القواد والأباطرة من الرومانيين في سبيل الاستئثار بالملك والسلطان . فكان زعماء الأمازيغ « البربر

ينضمون حسب مصالحهم المحلية ، إلى هذا أو إلى ذلك ، طمعاً في التخلص من الاثنين معاً . إلى أن انتهى عصر الأباطرة ، وجاء عهد الجمهورية في رومة .

الدور الرابع : اتفقوا على تسميته بعصر السلام الرومانى . ومن أراد أن يفهم شيئاً عن هذا العصر الذى دام نحو مائتى عام ، فليدرس نظام الاستعمار الفرنسى اليوم بقطر الجزائر ، فهو يسير على غراره ، ويتبع تقاليده :

الاستبداد بالحكم دون أهل البلاد — الاستيلاء على كامل الأرض الفلاحية وتوزيعها على المستعمرين الرومانيين — إسكان نحو مليونين من مستعمرى الرومان بالبلاد ، وإقامة المدن الشاهقة والمسارح العظيمة والمنتديات الضخمة لهم — احتقار أهل البلاد واعتبارهم خدماً لركاب الاستعمار لا يعيشون إلا به ولا يحيون إلا له .

الدور الخامس : وهو الدور النهائى الطبيعى المنجر مما تقدم . فإن الأمم تمهل الاستعمار ، حتى إذا أخذته لم تفلته . فأنوار الدين المسيحى قد أخذت تتسرب إلى القطر الجزائرى ، وأقبل الأمازيغ عليه أفواجا ، فنالهم العقاب الصارم الذي كان مهيئاً للشهداء . وما كادت المسيحية تصبح ديناً للدولة ، حتى اعتنق الأمازيغ نوعاً من الاعتزال ، واتخذوا الدين مطية للثورة .

فمن نفس جبال « أوراس » الأبية ، التى انبعثت منها ثورة سنة ١٩٥٤ ضد الاستعمار الفرنسى ، انبعثت ضد الاستعمار الرومانى ثورة عارمة ، انضمت لها سائر جهات البلاد ، وشد أزرها كل أفراد الشعب الذين لم يترك لهم الاستعمار شيئا . فأخذ ثائروا الأمس — كما أخذ ثائروا اليوم — يحطمون معاً الاستعمار ، ويقوضون منشآته ، وعمت الحرب وأعمال الزجر والتنكيل سائر جهات البلاد ، وأخذ المستعمرون يرجعون إلى رومة أفواجاً تاركين وراءهم حياة البذخ والنعيم والإباحية التى ألفوها .

وما جاءت سنة ٤٢٩ ، حتى كان آخر جندى لهم يخرج من بلاد الجزائر ذليلا حقيرا .

٥ — الوندال

شعب جرمانى ، هاجم بلاد أسبانيا واستقر بها ، فأصبحت تعرف باسمه « وندلوسيا » (الأندلس) . فما كاد ذلك الشعب يرى اختلال أمر الرومان بالمغرب ، حتى عزم على مهاجمته والاستقرار فيه ، وهكذا هاجم ٨٠ ألف رجل من أصلب الرجال عوداً تحت إمرة الزعيم « جنصريق » هذه البلاد من المغرب للمشرق ، والتفت حوله جموع البربر الأمازيغ تعينه على تقويض أركان النظام الرومانى ، وكل ما هو رومانى ، فانهارت تلك النظم الظالمة ، واستقر الونداليون بكامل البلاد ، إنما اكتفوا بحكمها حكما سطحيا . فنشأت الممالك الوطنية من جديد . واسترجع الأمازيغ الأحرار ،

أرض آبائهم وأجدادهم ، وكأن سبعمائة عام من احتلال رومة الجبارة ، لم تكن . ودامت هذه الحالة مائة عام . (٤٢٩ — ٥٣٠)

٦ — الروم

وهم رجال القسم الشرقى من إمبراطورية الرومان الذى استقل فى بيزنطه (استامبول) . فهؤلاء القوم رأوا مدى ما لحق بمستعمرى الرومان فى بلاد المغرب من أذى ، ومدى ما لحق المسيحيين من بلاء ، وعلموا أن موجة الوندال الدافقة الأولى قد نضب معينها ، فأرسلوا جنداً وأسطولا ، وافتتحوا البلاد من جديد .

لكن الأمازيغ كانوا بالباب . ولم يتركوا الاستعمار ينال منهم هذه المرة منالا . فالروم اكتفوا بإبعاد الوندال ، وحكم البلاد إسما . إنما الأمازيغ كانوا أصحاب السلطان الحقيقى وأصحاب الأرض . كان كل هم الروم الأحراز على الثروة الطائلة والرجوع بها إلى بيزيطة ، فسلكوا أبشع سياسة من السلب والنهب والارتشاء وكل أنواع الكسب الحرام ، فتدحرجت البلاد وخاصة قسمها الشرقى ، فى ميادين الفوضى والارتباك والحروب المتوالية ، وشعر الناس جميعاً بأن الحالة تستدعى منقذاً جديداً .

٧ — الفتح العربى

وجاء الانقاذ من الشرق بواسطة الدين المحمدى ، ومجاهديه الميامين

وقد كانت الدنيا تنتظر نوراً جديداً ، فجاءها النورُ من مكة أم القرى. وكان المغرب على الأخص ينتظر نظاما جديداً ، قوامه العدل والحرية والتساوى ، فجاء النظام الجديد يضمن له سعادة الدنيا ونعيم الآخرة. يقول قرآنه : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ويقول رسوله : الناس سواسية. ويقول خليفة رسوله لأحد العظماء : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ .

كانت سنة ٦٦٧ سنة انقاذ لبلاد المغرب العربى ، حولت مجرى تاريخه إلى الأبد ، ورمت به فى اتجاه جديد ، اتجاه الحضارة الإسلامية العربية ، فبرز فى ذلك الميدان قوياً عزيزاً ، وساهم بقسط وافر فى إقامة دعائم تلك الحضارة الرفيعة الذرى .

جاء عبد الله بن سعد ، وعبد الله بن الزبير ، فحاربا الروم وانتصرا . ثم جاء عقبة بين نافع ، لتوطيد أركان الفتح ، واصطدم بالقومية الوطنية الأمازيغية التى لم تكن تريد الخضوع لأحد ، فوقعت المعارك الطويلة التى استبسل فيها رواد الدين وطلائع المدنية ، كما استبسل فيها أبطال الوطنية وأنصار الاستقلال الملتفين حول زعيمة خالدة الذكرى: الكاهنة. وكانت الغلبة فى بادىء الأمر لها ؛ وكان معقلها « جبل أوراس » الأشم. ثم رأت — لأول مرة فى التاريخ — أن تسلك سياسة « الأرض المحترقة » فأمرت باحراق القرى والمدن والمزارع والغابات ، كيلا يبقى للعرب مطمع فى البلاد . لكن القائد حسان بن النعمان ، أعاد الكرة على

رأس أبطال العرب ، فدمر الكاهنة وجموعها ، وأفهم الأمازيغ الأحرار أن القادمين الجدد إنما يتخذون شعارهم من قوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى الآية ، وإنهم ما جاءوا مستعمرين يريدون الأرض ، إنما جاءوا دعاة يريدون الهداية ، فانضم الأمازيغ لهم ، وآزروهم ، ودخلوا فى دين الله أفواجا ، وما مضت مدة طويلة حتى أصبح الجند الإسلامى يعتمد على الفرق الأمازيغية المسلمة ، بل لم ينقض على الفتح إلا أمد وجيز ، حتى كان «طارق ابن زياد» الأمازيغى ، يسير إلى فتح بلاد الأندلس ، على رأس جند من خير ما عرف الإسلام من جند ، قوامه الأمازيغيون «البربر» الذين حققوا بواسطة الإسلام تلك الأمال العظيمة التى حطمتها رومة ، والتى بقيت تصارع الموت بين موجات الوندال والروم . لقد حقق الإسلام الحرية والاستقلال !

٨ — الدولة الرستمية

كان اتساع رقعه الفتوحات الإسلامية ، وامتداد أطراف المملكة من تخوم الهند وسمرقند حتى أواسط فرنسا ، وبعد الأطراف عن مركز الخلافة بدمشق ثم ببغداد ؛ سبباً فى استقلال الكثير من البلاد الإسلامية ، بأمر نفسه ، وتأسيسه ممالك محلية ، تتبع الخلافة فى بعض الأحيان اسما وتخرج عنها أحياناً أخرى .

ومما يسجله التاريخ لأمة المغرب الأوسط — الأمة الجزائرية — أنها كانت أول أمة حققت استقلالها ضمن دائرة الإسلام . فأول مملكة إسلامية مستقلة ، منظمة ، إنما نشأت بمدينة تيهرت (على مقربة من تيارت الحالية) سنة ١٦٩ للهجرة . أسسها القاضى عبد الرحمان بن رستم ، فانضمت لها كل ارجاء البلاد الجزائرية الحالية (ماعدى بعض جهات قليلة بالجنوب والشرق) وبهذا سبق الجزائريون بتأسيس دولتهم الرستمية ، المصريين الذين شادوا ملك بنى طولون ، والمراكشيين الذين أقاموا دولة الإدارسة .

كان نظام الدولة الرستمية ، الأباضية المذهب ، نظاماً محكما ، مقاماً على الشورى وانتخاب الامام . وله مجلس يدعى مجلس « الشراة » يمثل أصحاب الحل والعقد . وقد عملت على مد الطرقات التى خربتها الحروب السابقة ، ونشرت العدل والأمن بين الناس ، وأحسنت تنظيم فرقتى الشرطة لحفظ النظام ، والحسبة ، للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فكانت دولة من أرفع الدول الإسلامية المحلية التى سجل التاريخ ذكرها .

دامت هذه الدولة ١٣٦ عاماً ، وتولى أمرها ستة من الأئمة ، أشهرهم أفلح ، وابنه أبو اليقظان ، وقد ازدهر فى عهدها أمر البحث العلمى ، فعمت دروس العلم سائر المساجد ، واشتهر فى الأدب والعلم والحديث أمثال : ابراهيم بن عبد الرحمان التنسى المالكى ، وقاسم بن عبد الرحمان ، والأديب الكبير ابن الهرمة ، والشاعر العظيم بكر بن حماد المتوفى سنة ٢١٦ .

ومن أغرب ما يذكر عن هذه الدولة ، فى ذلك العصر ، وفرة تسامحها الدينى

مع اليهود من أبناء البلاد ، ونبغ منهم يهود ابن قريش الذى ترك كتابا برهن فيه على أن العربية ، والعبرية ، والكنعانية والبربرية ذات أصل واحد. ولا تزال نسخة منه فى مكتبة اكسفورد .

٩ — التوحيد الفاطمى

فى وقت واحد انقرضت ثلاث من الدول فى المغرب العربى : دولة بنى الأغلب بتونس ، ودولة تيهرت بالجزائر ، ودولة الإدارسة بالمغرب الأقصى ؛ لتحل محلها دولة مغربيه عربية واحـدة هى دولة الفاطميين الشيعية ، التى تأسست بالمغرب الأقصى ، ثم جعلت عاصمتها مدينة المهدية على الساحل التونسى ، ووحدت المغرب العربى فى دولة واحدة .

وكان مما امتاز به هذا العصر التوحيدى الفاطمى بقطر الجزائر أن اتسعت تجارته نحو الجنوب ببلاد السودان ، ونشـأت على سواحلنا الأساطيل البحرية التجارية والحربية .

أما من حيث العلوم والفنون والآداب فقد كادت البلاد تزاحم مملـكة الأندلس ، ونشأ ونبغ فيها فى ذلك العهد ، أمثال ابن تميم ، الطبيب الفيلسوف اللغوى ، والجغرافى العظيم محمد بن الوراق .

١٠ — دولة بنى حماد العظمى

رأى خليفة الفاطميين المعز لدين الله الانتقال إلى مصر، بعد ما اختط له قائده المغربى جوهر الصقلى مدينة القاهرة، فعهد بأمر المغرب إلى قائد من أعظم قادته، هو بلقين بن مناد الصنهاجى. وقد كان هذا البطل مؤسس عدة مدن جزائرية، مثل مدينة جزائر بنى مزغنة، والمدية، وغيرها.

ثم أن زعماء صنهاجة بقطر الجزائر، اتفقوا مع الأمير حماد على تأسيس دولة مستقلة، فاختط حماد مدينة « القلعة » وانشأ ملكا عظيما شمل سائر جهات القطر الجزائرى، وذلك سنة ٣٩٨ ه.

عظم الملك واتسع، واستقرت إدارته على أسس متينة، فترك ملوك بنى حماد القلعة واختطوا لأنفسهم عاصمة جديدة هى مدينة بجاية، فأخذوا فى تعميرها وبناء الأسوار والقصور والدواوين فيها، والبساتين والمنتزهات ونقلوا إليها عاصمة المملكة سنة ٥٣٨ ه.

وكان الملك الناصر بن علناس أعظم ملوك عصره شأناً، وأوفرهم قوة وأكثرهم تنشيطاً للعلم والعلماء، وقد سجل التاريخ عصره ضمن أجمل صفحات تاريخ التمدن الإسلامى.

وخلد اسمه شاعر العروبة الأكبر، عبد الجبار ابن حمديس الصقلى فى غرر من بدائع الشعر.



(شكل ١٠) مئذنة المسجد الكبير بمدينة الجزائر

وتداول ملوك بنى حماد الملك ، يوطدون الأمن وينشرون العلم ، ويوسعون دائرة التجارة والصناعة ، حتى أصبحت بلاد الجزائر من أكثر أقطار الإسلام رفاهية وعلماً ورخاءاً وأمناً ، واشتهرت بعلمائها وشعرائها وحكمائها ممن ألفت فيهم وفى أعمالهم المجلدات ، من أمثال محمد بن على الصنهاجى ،

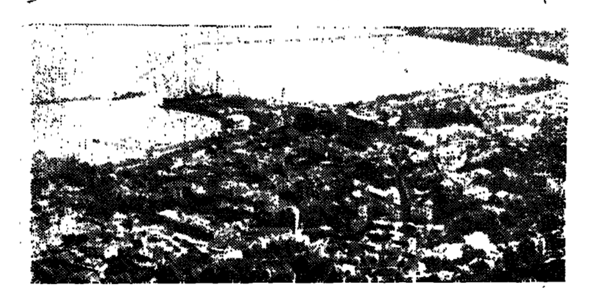
صاحب كتاب « نبذة المحتاجة ، في تاريخ صنهاجة ، » والمؤرخ ابن على ، واللغوى النحوى ابن العفراء ، والمجتهد ابن الرماح ومئات ومئات من أمثالهم

وحدث أيام الدولة الحمادية حادثان غيرا مجرى الحياة العامة في البلاد :

أولهما : نزوح الأعراب الهلاليين إلى المغرب . واستقرارهم فيــــه ، وتعريبهم البلاد نهائياً .

وثانيهما : نزوح الجماعات الـكثيرة من مهاجرى الأندلس إلى البلاد الجزائرية التي قبلتهم على الرحب والسعـة ، فجاؤوها بعلومهم وآدابهم وصناعتهم وطرق الفلاحة والرى في بلادهم . فساعدوا على تنمية الثروة ونشر العلوم والمعارف والآداب .

دامت دولة بنى حماد ١٧١ عاما ، تولى أمرها تسعة من الملوك ، كان لهم السلطان المطلق . وفي أيامهم عرفت الجزائر في البلاد الغربية الأوروبية



(شكل ١١) مدينة بجاية المعاصرة ومرساها

وتعاقدت بمعاهدات تجارية مع أغلب دول البحر المتوسط ، وكان أسطول الدولة الجزائرية فى أيامهم ضخماً ، يضرب بسهم واسع فى التجارة العالمية.

١١ — التوحيد « الموحدى »

فى تلك الأثناء كانت بلاد المغرب الأقصى « مراكش » تتمخض عن حادث إسلامى عظيم ، هو تأسيس دولة الموحدين . فبطل من أبطال القطر الجزائرى ، عبد المؤمن بن على الندروى [١] ، تولى كبر تأسيس هـذه الدولة لتقضى على كل ما ألصق بالدين من بدع ومن خرافات وأساطير ، ولتجمع الأمة فى كامل بلاد المغرب على الهدى ودين الحق ، والتسامح الإسلامى المنقطع النظير .

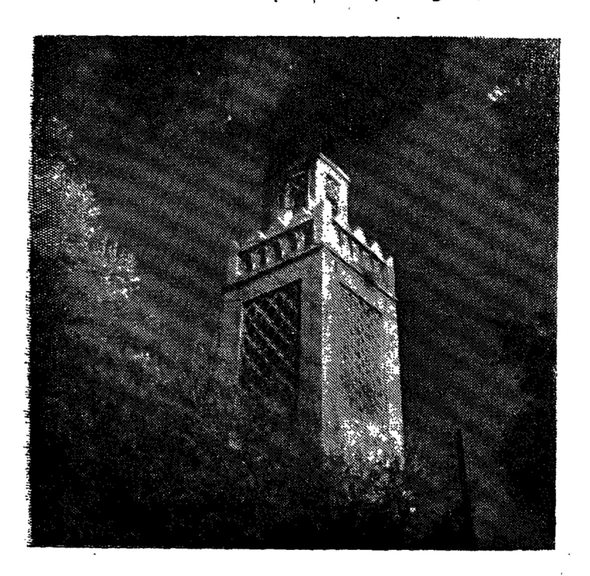
ففى سنة ٥٢٤ هجرية ، أسس عبد المؤمن العظيم دولة الموحدين ، وقضى على دولة المرابطين فى المغرب الأقصى ، ثم التفت إلى المغرب الأوسط ، حيث ابتدأ أمر دولة الحماديين يضعف ، وإلى المغرب الأدنى ، حيث أصبح النرمانيون الذين حطموا صقلية الإسلامية ، يهددون السواحل ، ويعيثون فسادا فى أمهات المدن على البحر ، بينما كانت الإدارة فى كل من القطرين لم تستطع هضم جموع الأعراب الهلاليين الذين نزحوا إليها واستقروا فيها .

جرد عبد المؤمن جيشاً من مائة ألف رجل ، كانوا كما يروى التاريخ يصلون خلف إمام واحد ، وتقدم إلى المشرق ، فتسلم زمام المغربيين الأوسط

---

(١) من مدينة ندرومة بغرب الجزائر وقد اشتهرت شهرة فائقة أثناء الثورة الأخيرة .

وأهم عواصم العلم والسياسة بالعالم الإسلامى قاطبة ، ونبغ فيها عدد لا يشق له غبار من العلماء والأدباء والشعراء والباحثين ، وقصدها طلاب العلم وطلاب الشهرة من كل جهات العالم العربى .



(شكل ١٢) مئذنة مدينة تلمسان

وقد أطلق ملوك بنى زيان على أنفسهم لقب «أمير المؤمنين» وأحاطوا الدولة بسياج من الأبهة والجلال . وقسموا السلطة إلى ثلاث شعب : الشعبة العسكرية يتولاها « صاحب السيف » والسلطة الإدارية ،يتولاها: « صاحب القلم » والسلطة القضائية ، يتولاها « قاضى القضاه » . وكان المزوال ، أو الوزير الأكبر يتولى الأشراف على كل الادارات وتحت سلطته صاحب الأشغال ، او وزير المالية والتعمير ، و « ديوان الإنشاء » المكلف بالمراسلات العامة ، والذى اشتغل فيه رجال من كبار الأدباء والعلماء سجل التاريخ أسماءهم .

وفى كل مدينة أو قبيلة يوجد « الحافظ » وهو الوالى ، والى جانبه « المحتسب » وهو حافظ النظام الاسلامى ؛ والقاضى ، الذى ينشر العدل بين الناس ، وغيرهم من موظفى الدولة وجباة الضرائب ، فكان النظام العام من أحسن النظم التى نشأت فى القطر الجزائرى . إلا أن أواخر أيام هذه الدولة التى عمرت أكثر من ثلاثمائة سنة ، قد امتازت بأمرين :

أولهما : كثرة تهالك الأمراء على الملك ، وقد غرتهم مظاهر النعيم والجلال التى فيه .

وثانيهما : قضاء الأسبان بصفة قطيعة على مملكة غرناطة ، آخر معاقل المسلمين ببلاد الأندلس ، وتشريدهم للبائسين من أهل ذلك الفردوس الإسلامى المفقود ، ثم مهاجمة الأسبان بعدذلك للثغور الإسلامية والسواحل فى المغرب العربى ، وخاصة بقطر الجزائر . وصادف أن وقعت هذه المحاولات

فى أواخر أيام الدولة ، وضعف رابطتها ، وتهالك أمرائها على الملك ، حتى أصبح بعضهم ألعوبة فى أيدى الطامعين الأسبان .

وهذان الأمران هما اللذان سببا انهيار دولة بنى عبد الواد ، التى سجلت على صفحات التاريخ فى بلادنا أنشودة فخر ، ينطق بها فم الدهر . ومن يرجع إلى تاريخ يحى بن خلدون وهو « بغية الرواد » يشهد روائع ومدهشات من التقدم العلمى والفنى والصناعى لا يكاد يتصورها العقل .

لقد زاحمت تلمسان ، كما زاحمت بجاية قبلها ، القاهرة وبغداد وقرطبة ، واجتمع فيها من رجال الدين والعلم والأدب ما لم يجتمع مثله أبداً فى قطر الجزائر ، وجاءتها وفود العلم والشعر من كل جهات العالم العربى .

أما تجارة المملكة ، وصناعتها ، واقتصادياتها ، فقد كانت فى تلك العصور مضرب المثل . وكتب عنها الرحالة والمتسوحون من عرب وأغراب صحائف جليلة ووقائع مدهشة . أما من اشتهر فى هذه الدولة من أعلام الأدب ورجال العلم وكبار الشعراء ، فقد ألفت فيهم عدة كتب ، أهمها : « البستان » لابن مريم ، والدرر والعقيان ، للتنسى ، وبغية الرواد السالف الذكر ، وغير ذلك كثير .

وامتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التى تعتبر من آيات الفن المعمارى العربى ، وأجرت على طلبتها وشيوخها الأرزاق ، بحيث لا يهتم معلم ولا متعلم بمسكن أو ملبس أو مطعم ، إلى أن يبرز إلى ميدان الحياة العامة عاملا عالمـــاً ، وإن أردت أن أسرد بعض الأسماء ، ذكرت

المفسر الكبير محمد بن مرزوق ، والعالمين المؤلفين احمد بن يحي الونشريسي ومحمد السنوسي ، وصاحب الجواهر الحسان ، عبدالرحمن الثعالبي ، وصاحب البدر المنير محمد المغيلي ، وطائفة تعد بالآلاف ، من الكتاب ومبرزي الشعراء والعلماء والمؤلفين ومن الفلكيين كالقلصادي وابن قنفذ ، ومن المهندسين العالميين كابن الفحام ، واضع « المنجانة » في تلمسان ، وهي ساعة ناطقة لا تعد أمامها أشهر ساعات سويسرا شيئاً مذكوراً . وقد نال عنها جائزة سنوية من ملوك تلمسان قدرها ألف دينار ذهباً .

وأديب الجزائر الأكبر ، وشاعرها العظيم ، المقري التلمساني ، صاحب ديوان نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب . ولا أستطيع ياعزيزي ، ومعذرة ، أن ألخص لك في صفحات ، ما تعجز عن جمعه كبريات الموسوعات إنما هي قطرة من يم .

الجمهورية الجزائرية العثمانية

لو كان هذا التعبير من بنات أفكاري ، لاتهمني البعض بالمبالغة والإسراف في إطلاق إسم على غير مسمى . لكن ما رأي القارئ الكريم إذا علم أن هذا الأسم قد استعمله سفير من سفراء فرنسا في القرن الثامن عشر ، وعالم باحث من جلة علمائها إذ ألف بعد تمثيل دولته لدى دولة الجزائر كتاباً قيماً أسماه : الجمهورية الجزائرية في القرن الثامن عشر ؟ . ذلك هو

مبسيو « فونتير دى بارادى » . وكتابه مطبوع[(١)] .

ولنعد إلى التاريخ . لقد احتل الأسبان مرسى وهران والمرسى الكبير وهددوا مدينة جزائر بنى مزغنة تهديداً مباشراً ، واستولوا على أكبر الجزيرات الواقعة تجاهها وجعلوا فيها حصناً يضع البلدة تحت رحمته ثم أخذوا يوالون غاراتهم البرية قاصدين مدينة تلمسان . ولم تكن دولة بنى زيان فى آخر عهدها مستطيعة أن تجمع الأمة لقتال هؤلاء المستعمرين الذين كانوا تحت قيادة راهب متهوس ربما لم يعرف التاريخ راهباً أكثر منه تعصباً وبعداً عن روح دين عيسى عليه السلام . فكانت الحملة الأسبانية حملة نهب ولصوصية ، وانتقام من الإسلام وانتهاك فظيع لحرمات المسلمين وكانت أخبار غارات الأسبان على سواحل المغرب العربى حديث الناس أجمعين فى ذلك العهد .

وحدث عن لصوصية البحر ولا حرج . فالأسبان والبرتغاليون قد أنشأوا مع غيرهم من رجال أوروبا سفن القرصنة ، وانهالوا على مهاجرى الأندلس التعساء ، فما كان يصل منهم إلى أرض الجزائر إلا القليل الذى فقد كل متاع وكل مال .

وكاد المغرب العربى كافة يسقط تحت تلك الضربات الفتاكة ، لولا أن تدخل القدر ، وحدثت المعجزة .

(١) أنظر كتابى « محمد عثمان باشا داى الجزائر » ففيه فصول مختارة من هذا الكتاب .

كانت المعجزة تدخل بطلين من أبطال الإسلام الخالدين : بابا عروج التركي وشقيقه خير الدين ، في ميدان الكفاح الجزائري . كانا على رأس عمارة بحرية من القرصان الأتراك ، يعملان متطوعين في سبيل الله لإنقاذ مهاجري الأندلس ، والاجتياز بهم إلى أرض المغرب ، ووقعت بينهم وبين الأسبان وقائع ذاع صيتها في البحر المتوسط ، وتحدث بها المهاجرون المساكين في كل جهات البلاد .

وأخذت وفود المسلمين الجزائريين تترى على الزعيمين البحريين ، طالبة منهما النجدة والإنقاذ ، والإعانة على دفع الأسبان عن السواحل وعن البلاد . فجمع التركيان عمارة قوية ، وتدخلا فعلا ، وحاربا الأسبان جنباً إلى جنب مع مقاتلي الجزائريين الذين التفوا حولهما ، وتكونت قوة جديدة في البلاد ما لبثت أن طهرتها من التدخل الأسباني الفظيع . ولم تستطع دولة بني زيان الثبات وسط هذه الزعازع ، إذ تخلى عنها الناس ، فانتهى أمرها ، وأصبح خير الدين باشا ، ويلقبه الفرنج « بارباروس » صاحب الحكم في القطر الجزائري (سنة ١٥١٩) . فاتخذ من « جزائر بني مزغنة » عاصمة للملك الإسلامي الجديد ، وأمر بردم البحر بين مختلف الجزيرات الصغيرة وأقام عليها جداراً وقلعة يحتمي وراءهما مرسى المدينة . وهكذا تنشأت « مدينة الجزائر » وبسطت في مدة قليلة جداً سلطانها على كامل البلاد التي أصبحت تدعى البلاد الجزائرية ، وقبل السلطان سليمان القانوني ضمها إلى السلطة العثمانية ، كولاية ممتازة . نشأت « الدولة الجزائرية » التي تعترف

بخلافة سلاطين استامبول ، وأخذت توسع استقلالها شيئا فشيئا ، إلى أن لم يبق بينها وبين الخليفة العثمانى سوى الروابط الأدبية الشكلية : السلطان يصادق على تعيين « الباشا » الذى ينتخبه الديوان الحكومى فى مدينة الجزائر ، وإذا وقعت حرب خارجية ، ترسل الجزائر بقطع من أسطولها وجماعة من متطوعيها للمشاركة فى الجهاد تحت راية الخليفة . أما ماعدا ذلك فالدولة الجزائرية حرة ، مستقلة ، تحارب من حاربها ، وتسالم من سالمها وتعقد المعاهدات الحربية والسياسية والتجارية مع بقية دول العالم ، وكانت لها فى عالى الحروب والسياسة صولات وجولات .

وإذ كان الأوربيون يومئذ وخاصــة الأسبان والبرتغال ورجال الشمال ينظمون لصوصية بحرية (piraterie) قوية ، ساهم فيها الفرنسيون بنصيب وافر ، نظم الجزائريون قرصنة بحريه عظيمة ، أصبحت ذات شوكة ترهب البحر المتوسط ؛ إنما لم تكن تلك القوة البحرية تعمل إلا ضد الدول المعادية فحسب . أما الدول المعترفة بدولة الجزائر ، والمرتبطة معها بمعاهدات فكانت تتمتع بحماية سفن القرصان الجزائريين .

وانتظم سلك الإدارتين السياسية والعسكرية فى البلاد بصفة كانت تحسدها عليها الكثير من بلاد أوربا . فكانت السلطة التشريعية بين يدى مجلس يدعى « الديوان » وفيه أكابر الدولة ورؤساء الجند .

أما السلطة التنفيذية فهى بيد الباشا الذى ينتخبه الديوان[1] ، ومجالس

---

(١) يطلقون عليه لقب « الداى » أى رئيس الجماعة .

ووزراء مؤلف من ستة رجال : خوجـة الخيل ، للحرب ، وكيل الحرج ، للبحر ، الخزناجي ، للمالية وحساب الدولة ، الآغا ، قائد الجند العام ، القبودان رايس أمـيرال الأسطول ، الباشكاتب ، وزير الداخلية ؛ أما الخارجية فهي من اختصاص الباشا نفسه ، والقول الفصل فيها للديوان .

وقد قسم الديوان أرض الجزائر إلى ثلاث عمالات: قسطنطينه ، شرقاً ، وتيطرى وسطاً ، ووهران غرباً . ووضع على رأس كل عمالة والياً يدعى « الباى » مسؤلا عن أعمال ولايته . أما مدينة الجزائر العاصمة وسوادها ، فكانت موضوعة تحت سلطة وزير الحرب «الآغا ». ولم يبق فى قطر الجزائر مكان لم يتبع هذه الإدارة المركزية المحكمة ، إلى أقصى تخوم الجنوب .

أصبحت الدولة الجزائرية مهابة محترمة ، ذات قوة عسكرية يقرأ لهـا الجميع حسابها ، وذات أسطول شارك فى كل معارك البحر المتوسط ، فى الطليعة . ولا يزال المتأخرون يذكرون شدة شكيمة الجزائريين فى حرب « المورة » واستشهاد الأسطول الجزائرى فى معركة « نفارين » .

وكانت الدول جميعاً ، وفى طليعتها فرنسـا ، تعترف باستقلال الدولة الجزائرية ، وتتزاحم فيها حول نيل الحظوة والنفوذ ، وتعين فيها ممثلين من أكبر رجال السلك السياسى ، وتعقد معها المعاهدات دون أى تدخل من استانبول ، أو أى مجرد استشارة . فالقضية كانت تبعية إسمية للخلافة الجامعة ، لا أكثر ولا أقل .

ولطالما أرادت الدول ، وخاصة أسبانيا ، والدانمرك ، وفرنسا ، قهر

الجزائر ومحقها ، فكان النصر خاتماً للجزائريين ، وانكسر الأسبان شر كسرة عرفوها فى تاريخهم أمام أسوار الجزائر مرتين . وتركوا كل سلاحهم ومتاعهم فيها (سنة ١٥٤١ وسنة ١٧٧٥) كما انكسرت عدة حملات فرنسية على السواحل الجزائرية . وكان الأسطول الجزائرى يشمل أكثر من ٢٢٠ سفينـة ، يركبها ما يزيد عن الثلاثين ألفاً من البحارة من أبناء البلاد .

كان أسرى الفرنج يعاملون فى قطر الجزائر أحسن معاملة ، ويتمتعون بحريتهم الدينية ، ومنهم الـكثير كانوا يعتنقون الإسلام ويدخلون عاملين ضمن الجماعة الجزائرية .

وكانت دولة الجمهورية الجزائريه فى طليعة الدول التى اعترفت بحكومة الثورة الفرنسية الـكبرى عام ١٧٨٩ ، بينما كانت أغلب دول العالم تحاربها ، كما كانت من أول الدول التى اعترفت باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية . وإذا قارنا بين دول العالم يومئذ ، طيلة قرون ١٦ و١٧ و١٨ رأينا أن البلاد الجزائرية كانت خلال ثلاثمائة سنة (١٥٣٠ — ١٨٣٠) من أحسن بلاد العالم نظاماً ورفاهية وأمناً وعدلا .

كانت وارداتها التجارية واسعة جداً . وكانت صناعاتها المحلية ذات شهرة ذائعة فى أغلب جهات العالم ، وكانت مزارعها غنية منتشرة تفيض على الأمة بالخير والبركات ، فكان تصدير الفواكه والحبوب ، والزيت ، والأصواف ، من أهم نشاط البلاد .

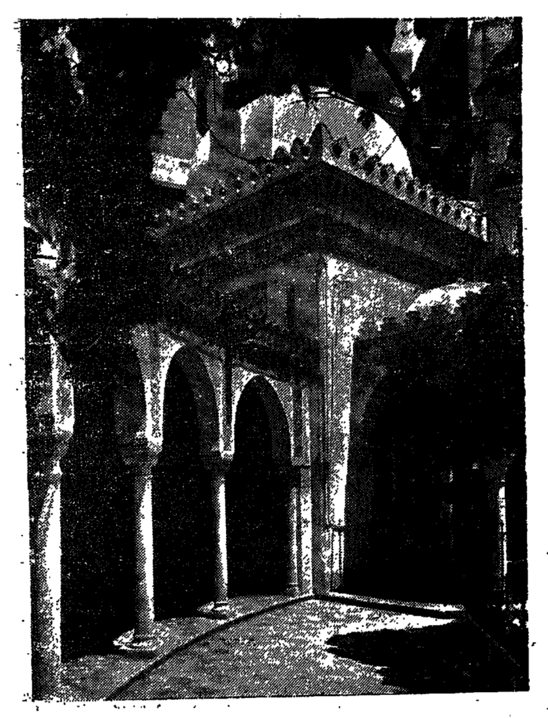
يقولون لنا اليوم مغالطين ، انظروا كيف هو حال الجزائر اليوم ، وانظروا كيف هى كانت قبل ١٥٠ عاماً !

ونقول لهم : بل قارنوا بين حالة القطر الجزائرى ، وحالة بقية بلاد العالم ، قبل ١٥٠ عاماً . فأيام كان الجهل والظلم وجبروت الإقطاع وقسمة الناس بين سادة وعبيد يسود بلاد العالم الأوربى ، كان قطر الجزائر يعتبر مثالا من أبدع أمثلة العدل والحرية والتسامح وحفظ كرامة الإنسان .

ثم نقول لهم : أن قطر الجزائر كان فى تلك العصور ملكا لكل أبنائه ، وكانت أرضه متاعاً لمزارعيه . أما اليوم ، وتحت ظل النظام الاستعمارى ، فلم يبق شىء من قطر الجزائر بيد بنيه ، واستأثر المستعمرون دونهم ، بالأرض ، وما فوقها ، وما تحتها .

ولقد كان الجزائريون طيلة مدة الجمهورية الجزائرية العثمانية ، يتبارون أتراكا وعرباناً فى أعمال الخير ، ووقف الأوقاف الطائلة على المساجد والمدارس والمنشآت العامة ، وكانت دور العلم عامرة ، وحلقات الدروس غاصة بالطلاب فى كل مساجد المدن الكبرى . أما التعليم الابتدائى فكان يلقن فى ثلاثة آلاف « كتاب » أو مدرسة ابتدائية .

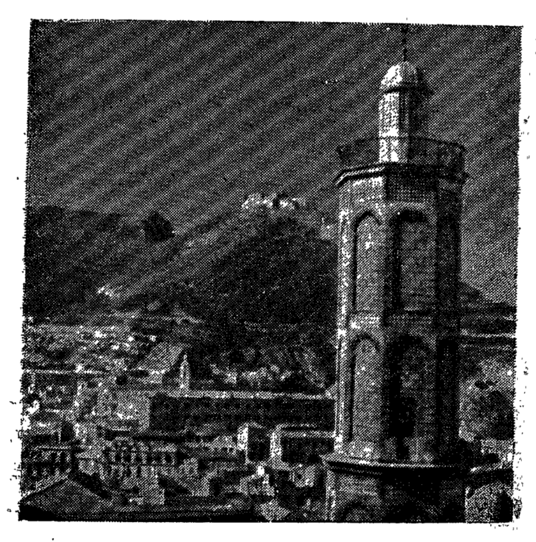
وقد نبغ فى هذا العهد رجال أفذاذ ، تألق أسمهم فى كامل بلاد العالم الإسلامى ، من أشهرهم عيسى بن محمد الثعالبى ، ويحى بن صالح المليانى صاحب التآليف الشهيرة ، وسعيد المقرى ، واحمد بن عمار الجزائرى ، وعمر



(شكل ١٣) مسجد محمد باشا بوهران

ابن محمد المنقلاتي ، وطائفة عظيمة من شيوخ الإسلام وعظماء المدرسين الذين أفادوا الأمة بعلمهم وبعملهم .

فالجمهورية الجزائرية التي تألق نجمها ساطعاً خلال ثلاثة قرون ، ولم يكن بها من الجند التركي إلا زهاء ثلاثة آلاف رجل (٣٠٠٠) لا غير، كانت حلقة من تلك السلسلة الاستقلالية الذهبية التي صاغها الجزائريون بجهادهم



(شكل ١٤) مئذنة مسجد الباشا بوهران

ودمائهم ومهجهم ، واستمرت من يوم أسسوا دولة بنى رستم ، إلى يوم انهيار مقاومة الأمير عبد الله القادر الهاشمى .

فهل تستطيع فرنسا الاستعمارية الجبارة الطاغية ، أن تمحو بجرة قلم تحت حكم السيف والنار كل هذا التاريخ ، وتحطم هذه التقاليد المتأهلة منذ عهد يوغورطا وتدعى أن الجزائر ، بحكم الفتح ، جزء من فرنسا ؟ وأن الجزائريين لاحق لهم فى وطن ، ولا فى جنسيته ، ولا فى علم ، إنما هم قوم من الفرنسيين ؟ .

هذا الأفك المبين ، وهذا الإدعاء الظالم ، هو ما قامت الأمة الجزائرية ضده ، منذ ١٢٥ سنة ، ترده خائضة بحراً من دم الشهداء ، مقدمة مواكب من أرواح الضحايا ، فى جهاد اشترك فيه الأجداد ، والآباء ، والأحفاد ، إلى أن ينتهى عار الاحتلال ، وترتفع أعلام الاستقلال ، بواسطة الثورة الكبرى ، وجبهة التحرير الوطنى الجزائرى .

الاحتلال الفرنسى

جاءت فرنسا وأضرت بها المسبغة ، أيام الثورة الفرنسية الكبرى ، وأوصدت دونها انكلترا ودول أوروبا أبواب العالم ، فلم تلق نجدة إنسانية الا من أرض الجزائر الحرة ، وحكومة الجزائر الجمهورية الحرة فكانت المراكب تترى بين الساحلين ، تحمل لفرنسا من الحبوب ما وقاها شر المجاعة

ولقد اشتركت خزينة الدولة مع بعض التجار — كشركة اليهوديين

برخريص ، وبوشناق — فى تموين تلك العمليـة الإنقاذية ، فما كادت الثورة تنجح ويستقر أمر حكومتها ، حتى كانت فرنسا مدينة للخزينة الجزائرية بمقدار ٢,٥٠٠,٠٠٠ من الفرنـكات الذهبية .

وتلـكأت فرنسا فى الدفع . وألحت الحـكومة الجزائرية فى المطالبة . وسقطت حـكومة الجمهورية الفرنسيـة الأولى ، وانتهى أمر الحـكم الأمبراطورى ، وتسلم السلطة الملك الطاغية شارل العاشر ، وفرنسا تمتنع عن الدفع ، والديوان يوالى الاحتجاج والإلحاح .

وكان شارل العاشر يحكم حكماً استبدادياً لا يتحمله الشعب الفرنسى ، وكانت رياح الثورة تهب خفيفة تنذر بوقوع كارثة . فأراد الملك أن يباشر حرباً أجنبية ضد دولة مسلمة ، ليستدر عطف رجال الـكنيسة من جهة ، وليتخلص من عدد كبير من العاطلين المشاغبين من جهة أخرى ، فأرسل — كما يؤكد أعظم مؤرخى الفرنسيين هنرى قارو — أمراً لقنصل فرنسا بالجزائر ، بأن يغتنم فرصة مغيب الأسطول الجزائرى فى نفارين ، لخلق حادث يبرر غزو الجزائر والاستيلاء عليها .

ففى يوم العيـد ، ذهب القنصل لتهنئة الداى حسين باشا ، فى قصر القصباء وبعد تبادل التحية وعبارات التهنئة ، قال الباشا : ولماذا لم أتلق إلى الآن جوابا من الملك عن رسالتى المتعلقة بتصفية حساب الدين ؟ فتعمد القنصل دوفال العجرفة كما أمر ، وقال : وهل تظن أن جلالة ملك فرنسا يتنازل لجواب داى الجزائر ؟ .



(شكل ١٥) ضربة المروحة !

فوجم الجميع ، وفهموا أن الحادث متعمد ، ووقف الباشا وسط الديوان يرد الإهانة المقصودة ، وقال للقنصل : أخرج يا ابن الكلب ! وأشار بمروحة من الريش كان يحملها، إلى الباب، فادعى القنصل أن ريش المروحة قد لمس وجهه ، وخرج صاخبا محتجاً ، وعلم قناصل الدول كافة أن « الحادث » قد وقع ، وأن « الخاتمة » قريبة .

وقف شارل العاشر ملك فرنسا يقول فى خطاب العرش يوم ٢ مارس سنة ١٨٣٠ مانصه : أن العمل الذى سأقوم به لترضية شرف فرنسا ، سيكون باعانة العلى القدير ، لفائدة المسيحية جمعاء .

وكان إذاك قد هيأ أسطولا ضخماً يشمل ١٠٣ من السفن تحمل نحو الثلاثة آلاف مدفع ، و٣٤٠٠٠ مقاتل ، مع ٣٨٣ سفينة لنقل المؤن والذخيرة وعزم على اتخاذ قاعدة أعماله ضد الدولة الجزائرية ، شبه جزيرة سيدى فرج على نحو ٢٠ كيلو متراً غربى الجزائر ، حسب الخطة التى كان هيأها الجاسوس الفرنسى برتان « أيام الأمبراطور نابليون » .

كان الديوان على علم بما يهيؤه الفرنسيون . وخلافاً للمعتقد الشائع ، فان الجزائريين قد استعدوا للمقاومة ، وهيأوا براجها ، وقرروا إخلاء شبه الجزيرة التى كانوا يعلمون أن الفرنسيين سينزلون بها ، ثم مبادرتهم بالهجوم أثر ذلك ، للرمى بهم إلى البحر ، وللاستحواذ على كل ما بأيديهم .

وأخذت جموع المجاهدين الجزائريين تحتل مراكزها ، حوالى شبه الجزيرة ، ثم نزل الجند الفرنسى بقوته وعتاده يوم ١٣ يونيو سنة ١٨٣٠ .

قام الجند الجزائرى بالهجوم فى المعركة الحاسمة يوم ١٩ ، وكان هجوماً عنيفاً موفقاً ، زلزل أقدام الفرنسيين ، وألحق بهم خسارة عظيمة ، وكاد يرمى بهم إلى البحر ، لولا فرقة عسكرية فرنسية صغيرة بقيت وراء الصفوف وخافت أن يقضى عليها ، فصعدت ربوة وأخذت تستغيث وتشير لمعظم الجيش ، فظن أحد قادة الجيش الجزائرى أن الفرنسيين المذكورين قد عملوا حوله حركة التفاف قصد قطع خط الرجعة عنه ، فتقهقر كيلا يحدق به ، وكانت فى تقهقره القاضية ، لأن القيادة الفرنسية أعادت الكرة ، وأرجعت الجزائريين إلى مركزهم الأصلى ، واغتنمت فرصة الاضطراب

الذى وقع فى الصفوف للاستيلاء على معسكر « مصطفى ولى » فكانت هذه المعركة من أكبر المعارك الحاسمة فى التاريخ . وتلك الأيام نداولها بين الناس .

كانت نتيجة هذه الهزيمة ، أن اضطرت مدينة الجزائر للاستسلام فدخلها جنود فرنسا صبيحة يوم ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ ، وكان يوماً من أسود أيام التاريخ الجزائرى . ولم يحترم الفرنسيون عهدهم باحترام الأشخاص والحريات ، فطفقوا ينهبون ويسلبون ، وينتهكون الحرمات ، واشترك فى الاختلاس واللصوصية كبراؤهم وصغارهم . فسجلوا على فرنسا صفحة عار لا تمحى أبد الدهر .

لكن ملك فرنسا الطاغية لم يفرح بانتصاره . ففى نفس شهر يوليو هذا ثار الشعب ضده ، وأسقطه ، فسار إلى المنفى ذليلا ، وأخذ الفرنسيون يتوغلون فى سوادمدينة الجزائر الذى كان عبارة عن حديقة غناء ، ينهبون ويسرقون وينتهكون الحرمات .

ولايزال الجزائريون يعتبرون يوم ٥ يوليو يوم حداد عام ، إلى أن كان يوم ٥ يوليو سنة ١٩٥٦ ، فأعلنوا فى سائر جهات القطر الجزائرى الاعتصاب التام ، ولم يبق من المسلمين أحد لم يشارك فى هذا الحداد الوطنى ، رغم إنذار السلطة الفرنسية وتهديدها بانزال صارم العقاب بالمضربين .

نكبة شرقية عامة

ومن الغلط القول بأن احتلال فرنسا للجزائر كان نكبة على شعب

أر وحـده ، بل أنه كان نـكبة على الشرق بأسره ، وعلى الحرية
قدس معانيها ، وعلى القارتين الافريقية والأسوية على السواء :

إن احتلال فرنسا للجزائر كان أول ثغرة فتحها الاستعمار فى بلاد
وبة بأقطار البحر المتوسط ، ولم تستطع الدول العربية والإسلامية أن
ساكنا أمام ذلك الحادث العظيم ، فالدولة العثمانية ، صاحبة السيادة
مية على قطر الجزائر ، كانت « الرجل المريض » وكانت الحروب
اكة التى يشنها عليها جيرانها الروسيون قد أنهكت قواها . ثم أن
كة نافارين التى حطم فيها الانـكليز والفرنسيون والروس الأسطول
مانى ، والجزائرى ، والمصرى كانت قد أصابت الدولة فى الصميم ،
لخت عنها بلاد اليونان ، وفتحت بصفة رسمية وراثتها .

أما البلاد المصرية فـكانت تجرب يومئذ مغامرات محمد على ، وكانت
ياستها تجامل الدولة الفرنسية إلى حد بعيد ، نـكاية بالدولة الانـكليزية ،
جريا وراء التوسع والاستقلال .

وأما تونس والمغرب الأقصى ، فـكان ضعف الدولتين الحسينية
لشريفية لا يكاد يمـكنهما من حفظ الامن الداخلى ، فضلا عن التدخل
انجدة الجزائر ومد يد المساعدة للمناضلين الجزائريين . أما دول أوربا فقد
كتفى بعضها بالاحتجاج وإثارة العراقيل فى وجه فرنسا ، بصفة فاترة ،
نـكلترا ، والتزم بعضها الآخر خطة السكوت ، بينما أبدى معظمها
تهاجه بهذا النصر الأوربى المسيحى فى بلاد الاسلام .

فماذا كانت نتيجة كل ذلك يا ترى ؟

كانت النتيجة أن فرنسا أخذت تكيد لتونس ، وتثير فيها القلاقل إلى أن تمكنت من احتلالها عام ١٨٨١ .

كانت النتيجة أن الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وانكلترا ، والذى سمح باحتلال تونس ، قد جعل الانكليز يستبدون بأمر مصر ، ويتآمرون على استقلالها ، ويدمرون جيشها فى التل الكبير ، ويحتلونها فعلا سنة ١٨٨٢

كانت النتيجة توغل فرنسا فى صحراء افريقيا ، وتحطيمها للممالك الاسلامية المستقلة فيها ، ومحاولة احتلال جنوب وادى النيل (حادث فاشودا) .

كانت النتيجة ، استيلاء إيطاليا بصفة فظيعة وحشية على قطرى طرابلس وبرقة ، ومحاولتها محق العروبة والإسلام والوطنية فيها .

وكانت النتيجة أخيراً ، ضياع كامل القسم الأوربى من السلطنة العثمانية ، فى حرب البلقان ، ثم انهيار هذه الدولة نهائياً ، أثر الحرب العامة الأولى ، وسقوط العراق تحت انتداب الانكليز ، وسوريا ولبنان تحت انتداب فرنسا ، ووقوع فلسطين العزيزة الغالية فى النكبة التى أدت إلى استشهادها المؤقت .

فجذور هذا السرطان الاستعمارى الفظيع قد امتدت كلها من مدينة الجزائر ، أثر ذلك اليوم الأسود التعس ، يوم ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ .

روح النضال

فهل استكانت الأمة الجزائرية لما أصابها على يد الاستعمار فى تلك المعركة الهوجاء ، وهل استسلمت لسيف جلاديها ؟ .

كلا ! أن تاريخ الأمة الجزائرية ، كان بعد ذلك اليوم النحس ، تاريخ بطولة لم يشهد العالم — بحق — لها مثيلا . وكان تاريخ كفاح طويل ، وتضحية مستمرة ، ومقاومة عنيفة لم تفتر ساعة من نهار ، فكانت أحياناً حربية قاسية ، ذات وقائع وأهوال ، ودماء ودمار ونار ، وكانت سياسية أحياناً أخرى . واستمر كفاح الجزائر الأبية كذلك ١٢٥ عاماً ، يحاول الاستعمار محاولات يائسة تحطيمها والقضاء عليها ، ويصيبها كل يوم بضربة جديدة ، ويبطش بها كل ليلة بطشة جديدة ، دون أن يقضى على روحها الأبية ، ودون أن ينال من كيانها العربى الإسلامى الشريف أى منال ، إلى أن طفح الكيل ، ودقت ساعة القدر ، وهبت رياح التحرير الوقح على العالم ، فحزمت الأمة الجزائرية أمرها وقامت إلى ثورة جبارة ، لاتزال تدهش الدنيا بوقائعها ، ولا تزال تسجل بدمائها صفحات الروعة والجلال ، فى ميدان البطولة ، فوق الأرض الجزائرية الكريمة التى عجنت منذ قديم الأجيال ، بدماء الأبطال ، فى ميادين الكفاح والنضال .

المقاومة فى الشرق : أحمد باشا

ما كاد ينتهى أمر « الديوان » بمدينة الجزائر ويساق الباشا وكبراء الجند إلى المنفى ، حتى هبت الأمة الجزائرية على بكرة أبيها ، تنظم المقاومة ، وتنادى بالجهاد ، وتقيم فى كل جهة من جبالها وسهولها معاقل للنزال .

وقد اكتست المقاومة الأولى شكلين : شكل المقاومة الرسمية الحكومية وشكل المقاومة الشعبية .

أما المقاومة الحكومية ، فقد تولى زمام أمرها الحاج أحمد ، باى قسنطينة ، الذى بايعته الناحية الشرقية « باشا » ، والتف حوله رجال الأمة من عرب ومن بقايا أتراك ، وكانت له مع الجند الفرنسى وقائع مشرفة . وطالت الحرب بين الأمة وبين الغاصبين فى تلك الجهات الشرقية والجنوبية ، وذاق الفرنسيون من بأس الأمة ومن شدة مراسها ، ما سجله تاريخهم ، وما لا يزالون يذكرونه إلى اليوم ، لكن القوة والكثرة تغلبتا على المقاومة الشعبية التى لم تتلق أى مدد خارجى ، وكان احتلال لاموريسيار لمدينة قسطنطينة ، سنة ١٨٣٨ ، انذاراً بنهاية حركة المقاومة المنظمة ، فانتهى أمرها ظاهراً ، وبقيت كالنار تومض تحت الرماد ، وقد سجلت مدينة قسطنطينة بدفاعها المجيد صفحة عالية من صفحات البطولة



(شـكل ١٦) الفرنسيون يحتلون قسطنطينة داراً فداراً وحارة فحارة

الخالدة ، إذ اضطر الفرنسيون لاحتلالها حارة فحارة وداراً فداراً ، وتـكبد الجانبان فى هذه الملحمة خسائر كبيرة جداً .

المقاومة فى الغرب : الأمير عبد القادر

إلا أن أروع مثل من مثل المقاومة الشعبية قد ضربه أهل الناحيتين الوسطى والغربية من قطر الجزائر ، إذ لم تـكن هنالك سلطة تقليدية ، ولا بقايا نظام إدارى ، بل كان كل شىء جديداً ، وكان كل شىء مبتكرا .

ففى سنة ١٨٣٢ ، جمع وجوه القوم ورؤساء العرب أمرهم فى مؤتمر عقدوه بمسجد مدينة معسكر ، وبايعوا بالإمارة شابا فى الرابعة والعشرين من عمره ، عرف بينهم بالشهامة وقوة الشكيمة ، والرأى الحصيف ، هو الأمير عبد القادر ابن الشيخ محيى الدين الهاشمى ، على أن يؤسس فيهم دولة إسلامية عربية ، تصون الأمن وتوطد العدل داخل البلاد ، وتحارب المعتدى الفرنسى ، فتصده عن هاتيك الأقطار أولا ، ثم ترمى به خارج البلاد أخيراً .

وفتح التاريخ يومئذ صفحة من أمجـــد صفحات البطولة فوق أديم الأرض الجزائرية . صفحة سجلتها أيدى الشهداء مدى ١٧ عاما ، وتترنم بذكرها الأجيال أبد الآبدين .

وأن المؤرخ المنصف ليقف موقف الحيرة والذهول أمام هذه العبقرية الفذة ، التى جعلت شابا فى مقتبل العمر ، عديم التجربة ، ينظم دولة فيحسن تنظيمها ، ويدون دواوينها ، ويضبط أمورها ، ويسك نقودها ، ويربط لها علاقات متينة مع الخارج ، وينشر دعايتها ، يكتسب لها الأنصار ، ثم هو إلى جانب ذلك ، ينشىء جيشاً نظامياً ، على أحدث طراز ، وجيشاً من المتطوعين الفدائيين ، ويرتب أمور ذلك الجيش بحكمة القائد المدرب المدنه ، ويسلحه فيحسن تسليحه ، ثم يحسن القيادة الحربية إلى جانب ذلك ، كما أحسن القيادة المدنية ، فيسوق جيشه فى كل الميادين ، وينزل بالأعداء ضربات فتاكة ، ويتحمل ضربات الأعداء بصبر وجلد ، ولقد

جهزت فرنسا ضده أعظم قواها ، ورمته بأكبر قادتها العسكريين ، ولولا تفوق عظيم فى العدد وتفوق عظيم فى السلاح ، لما نالت منه منالا . حقا والله أنها لمعجزة من معجزات التاريخ . ولقد قلت يوماً أثناء خطاب : إن كانت النبوءة بالمعجزات ، فشعب الجزائر ولاشك نبي الأمم !

ولقد تخللت فترة الحرب عدة معاهدات عقدتها فرنسا مع الأمير ، واعترفت له فيها بالاستقلال والسلطة على البلاد التى نصب فيها دولته ، لكنها كانت معاهدات غش وخداع ، لا تعقدها إلا متى رأت الخطر ، وأرادت أن تستعد لضربة قاسية . أما هو فكان يعقد تلك المعاهدات ، ليستريح قليلا وليستعد لتسديد الضربات ولتلقيها .

ففى سنة ١٨٤٠ اشتعلت نيران المعارك الكبرى ، قاسية فظيعة ، فتاكة — واستعمل فيها الفرنسيون أبشع وأشنع مايستعمله جند مستعمر فى بلاد عدوة مستعمرة : إفناء جماعى ، وإتلاف المدن والقرى ، وحرق المزارع والغابات ، وانتهاك الحرمات بصفة يخجل القلم عن ذكرها ، ولصوصية ونهب وسلب لا تليق إلا بوحوش بنى آدم لا بالمتمدينين منهم .

واستمرت الحرب على هذه الحالة إلى أن مات من الأمة أكثر من نصفها . وأراد سلطان المغرب مولاى عبد الرحمن الاستجابة للشعب الجزائرى ، فأعلن الحرب على فرنسا ، وأرسل جندا لإعانة الأمير ، لكن الفرنسيين دحروا ذلك الجند فى معركة واحدة — معركة يسلى — وضربوا بالقنابل بعض مدن المغرب . فاضطر السلطان لعقد الصلح ، وتعهد بعدم إعانة الجزائريين .



(شـكل ١٧) الأمير عبد القادر الهاشمى

ووقع ما لم يكن بد من وقوعه ، فأمام قوة الجند الذى وضعت فيه

فرنسا كل إمكانياتها ، وأمام الفظائع والأهوال ، وإحراق القبائل العديدة أحياء بواسطة النيران ، وأمام الفراغ العظيم الذى حصل فى صفوف الأمة ، لم يسع الأمير عبد القادر إلا الاستسلام فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٤٧ . فسيق مع أهله وذويه ووجوه دولته أسيراً ، وبقى خمسة أعوام بفرنسا ، إلى أن أفرج عنه وسير به إلى بلاد الشام ، حيث استقر ، وترك هو ووجوه قومه خلفا كثيرا .

على أن المقاومة لم تنته يومئذ فى بلاد الجزائر ، إنما هى انتهت بالصفة المنظمة فحسب فكانت المقاومات المحلية تترى ، من جبال الشمال إلى رمال الصحراء ، وما احتل الفرنسيون مكانا فى أرض الجزائر إلا بعد أن قدموا ثمنه من لحم ودم جنودهم ، وبعد أن سقى المجاهدون الأبرار أرضه الطاهرة بدمائهم الزكية الغزيرة .

فظائع وأهوال وموبقات

إن ذكر التفاصيل عن فظائع الحرب الإبادية التى باشرتها فرنسا بصفة وحشية فى قطر الجزائر ، لا يتفق مع صفة الإيجاز التى تعمدناها فى هذا الكتاب ، فلسنا بذا كرين — على سبيل المثال — إلا قليلا جدا من الوثائق والشهادات التى ذكرها نفس الفرنسيين ، لكى يرى القارىء «عينة» من الطريقة التى أراد بها الاستعمار الفرنسى إرضاخ القطر الجزائرى ، والسير به فى طريق الابادة .

يقول المؤرخ كريستيان فى كتابه « أفريقيا الفرنسية » :

« تلقى الجند أمرا من القائد العام الجنرال روفيقو ، بالخروج من مدينة الجزائر ليلة ١٦ ابريل سنة ١٨٣٢ ، ففاجأ قبيلة العوفية عند الفجر وهى نائمه تحت خيامها ، وأمعن فى ذبح أولئك المساكين الذين لم يستطع أى واحد منهم الدفاع عن نفسه ، وهكذا وقع قتل كل نفس حية فى القبيلة ، دون أى تمييز بين جنس وسن . وعند الرجوع من هذه الحملة المخجلة (كذا بالأصل) كان الفرسان الفرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسنة رماحهم

ويقول الجنرال شانقارنيي : لقد كانت التسلية الوحيدة التى أستطيع أن أسمح بها للجند أثناء فصل الشتاء ، هى السماح لهم بغزو القبائل المعادية التى تسكن فيما بين وادى الحراش وبورقيقه . ويقول المؤرخ دبوزايد عن ذلك مانصه : أما الغنيمة من الحيوان فقد بيعت إلى ممثل قنصلية الداغراك . وأما بقية الغنائم الصامتة فقد عرضت للبيع فى سوق باب عزون ، وكان من بين الغنائم أساور نساء وهى لاتزال فى أيديهن المقطوعة ، وأقراط نساء لاتزال تلتصق بها قطع من آذانهن . ثم وزع ثمن كل ذلك على السفاكين من رجال الطابور الفرنسى . وفى ذلك اليوم أصدرت السلطه أمرها لسكان الجزائر المسلمين ، بأن يضيئوا ليلا حوانيتهم ، إظهارا لسرورهم بذلك الانتصار [1]

---

(١) فى كتابى « محمد عثمان باشا » طبع الجزائر سنة ١٩٣٩ ، عدة قطع معربة من هذه الكتب ، فليراجعها من أراد التوسع فى الموضوع .

أما حديث حريق الكهف الذى آوت إليه قبيلة بأسرها ، سنة ١٨٤٥ ، فارة أمام الجند الفرنسى ، فقد صار مضرب المثل فى الخسة والدناءة والوحشية ، إذ ما كاد الجند يكتشف ذلك الكهف الفسيح ، حتى وضع أمامه وعلى مداخله أكواما من الحطب والقش ، ثم أوقد عليها النيران ، وأستمر يغذى تلك النار كامل الليلة . فما جاء الصباح ، ودخل الجند الكهف ، حتى كانت جثث ٧٨٠ من الضحايا البريئة بين رجال ونساء وأطفال ؛ مفككة الأوصال ممزقة الاشلاء ، تحت أقدام الثيران والحيوانات التى دفعتها غريزتها نحو الباب ، فداست كل شىء ، ثم لقيت حتفها .



(شكل ١٨) غار الجريعة بالظهرة

ومن أفظع ماشوهد ، داخل الـكهف ، رجل أسلم الروح وهو ممسك بقرن أحد الثيران دفاعا عن امرأته وصبيه ، وقد مات الرجل والمرأة والصبي والثور وهم على ذلك الوضع .

ولقد قال أحد قوادهم : سانت أرنو ، فى كتاب مطبوع يعتبر ديوان الفظائع والفضائح ، : لقد كنت أستطيع مع جنودى اقتفاء أثر القائد العام دون أن أضل الطريق . لأننى كنت أسير على ضوء الحرائق التى يوقدها قبلى فى القرى والمداشر والدواوير العربية التى كان يمر بها .

أننى ماذكرت إلا الأمر الوجيز والنزر القليل . وفى كتب الفرنسيين التى تباهوا بطبعها ونشرها ، فيما بين سنتى ١٨٣١ — ١٨٥٠ — مايسجل أبشع صفحات الخزى والعار ، والغدر والخيانة ، على هذا الاستعمار الفظيع الذى سلطته فرنسا الظالمة على القطر الجزائرى ، والذى لا يعرف العالم له مثيلا .

ولاختمن هذه الصفحة البشعة القذرة من تاريخ الاحتلال الفرنسى ؛ بهذه الجملة المقتطفة من تقرير لجنة البحث الرسمية ، التى بعث بها ملك فرنسا لاطلاع البرلمان على حقيقة ما وقع فى قطر الجزائر من مظالم :

« اننا قد ضممنا إلى ممتلكات الدولة ، سائر عقارات الأوقاف الاسلامية ، ووضعنا تحت الحجز ممتلكات طائفة من السكان تعهدنا لها باحترام أشخاصها وممتلكاتها . وبدأنا أعمالنا فى ميدان السلطة بظلمة ، إلا وهى أرغام الناس على المشاركة فى قرض اجبارى (١٠٠٠٠٠ فرنك) . واستولينا على ممتلكات خاصة ، دون أن ندفع مقابلها أى تعويض بل قد

أجبرنا فى كثير من الأحايين أصحاب الديار على دفع نفقات تهديمها ، كما أجبرناهم على دفع نفقات تهديم مسجد[1] . ولقد اعتدينا دون أى مراعاة ، على حرمة الأضرحة ، والزوايا ، والمساجد ، وعلى المنازل الخاصة التى تعتبر مقدسة عند المسلمين .

« لقد ذبحنا جماعة من الناس كانت تحمل جوازات مرور ممهورة بختمنا ، وقد أبدنا فى مذابح عامة ، لمجرد شك ، طوائف عديدة من السكان ، تبين فيما بعد أنها كانت بريئة مما اتهمناها به . ولقد حاكمنا جماعة من وجوه القوم واشراف الأمة ورجال الصلاح فيها ، ما كان لهم من ذنب إلا أنهم تقدموا أمام بطشنا ، يسألوننا الشفقة والرحمة بأبناء البلاد المساكين ؛ فلقد وجدنا حكاماً منا يصدرون أحكاماً باعدامهم ، ووجدنا جلادين منا ، يقومون بتنفيذ تلك الأحكام . أننا قد فقنا فى أعمال الوحشية ، هؤلاء المتوحشين الذين جئنا لتمدينهم . (لجنة البحث نفامبر ديسامبر ١٨٣٣) .

وكل هذا وقع قبل فظائع وفضائح السنوات الحمراء : ١٨٤٠ وما يليها... قال أحد نواب فرنسا أثناء مناقشة هذا التقرير : أننا قد ارتكبنا فى ثلاثة أشهر ، من الفظائع وأعمال التنكيل ، أكثر مما نسب للاتراك خلال ثلاثمائة سنة (سجل مذاكرات مجلس الأمة الفرنسى) .

وكنى . أننى كانسان ، تمترينى حمرة الخجل ، وأنا أسطر وصف هذه الفظائع والأهوال . لكننى كوطنى ، وكعربى ، وكمسلم ، أشعر وأنا

---

(١) هو مسجد « السيدة » وكان من بدائع الفن المعمارى الاسلامى فى مدينة الجزائر .

أن كتبها ، أو أرويها ، بثورة الدم فى عروق حتى لتكاد تنفجر ، وبتهيج أعصابى ، حتى لتكاد تتمزق ، وبغشاوة حمراء على عينى ، حتى لأكاد أرى كل شىء أمامى دما وناراً .

ولولا الوقار العلمى الذى يجب أن يلازم هذا العرض حتى نهايته ، ولولا تعهدى بأن يكون هذا الكتاب كتاباً تصويرياً تحقيقياً ، لحالة الشعب الجزائرى ، والوطن الجزائرى ، دون أن أسير مع التأثر الشخصى ، والانفعال النفسى ، أو العاطفة ، لكان هذا الكتاب مكتوباً بلغة أخرى ، ولربما احترقت صفحاته بمداد هو السم الزعاف ، وتحت أنفاس هى اللهب المتصاعدة .

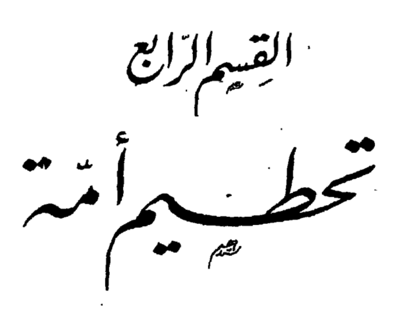
وبعد ، فكل ماوقع فى القطر الجزائرى بعد ذلك فى ميادين الحكم ، والمجتمع ، والاقتصاد ، والتشريع ، إنما هو محاولة مستمرة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، لتحطيم الأمة الجزائرية ، وتقويض أركانها ، وتشتيت شملها وقتل أحساسها ، وجعلها أمة من السائمة ، أو أقل من السائمة ، لادين لها ، ولا لغة ، ولا جنسية ولا رابطة ، ولا أخلاق ، ولا علم ، ولا عمل : أمة من العبيد فى يد شر النخاسين .

فإن حمل البعض قولى على الغلو ، فليقرأ الصفحات التالية ، ثم لينظر هل تحملت أمة من الأمم ، مثل هــذه المصائب ووسائل التحطيم والقتل ، وعندئذ يعترف من اتهمنى بالغلو ، أننى على العكس من ذلك ، قد عجزت عن تصوير نفس الحقيقة كما هى .

إنما الذين صوروا الحقيقه كما يجب ، وقدموها للعالم ، عارية ، فهم أباة الظيم ، أسود العرين ، الذين تقدموا المنكر الاستعمارى العظيم ، يغيرونه بأيديهم الجبارة التى ستدك صروح هذا الاستعمار الآثم الخبيث ، وسيقيمون على انقاضه فى قطر الجزائر ، حياة العزة والكرامة الإنسانية ، حياة الحرية والاستقلال :

هم رجال الثورة الجزائرية الكبرى .

فلهم المجد الأبدى ، ولهم حياة الخالدين .



— ١ —

الحكومة – الإدارة – المجالس

استقرار الفرنسيين

ما كادت تستقر أقدام الجند الفرنسي ببعض جهات البلاد الجزائرية ، رغم المقاومات والحروب المستمرة ، حتى أصبحت سياسة حكومة فرنسا تتبلور حول غايتين :

الأولى : أقطاع الأرض للفرنسيين والاتيان بأكبر عدد منهم إلى البلاد ، حتى تمحى صبغتها العربية الإسلامية ، وتغدو أرضا لاتينية مسيحية

والثانية حكم البلاد حكما مباشرا ، لادخل لأهل البلاد فيه ، أي دخل.

فبلاد الجزائر كانت تحكم بادىء ذى بدء بواسطة قادة جيش الاحتلال ،

وقد اشتهر منهم الكثير بأعمال التنكيل والمذابح الجماعية ، وافناء المسلمين بالجملة ، حتى تخلو الأرض لساكنيها الجدد ، وكان شعار المارشال بيجو ، السفاح الشهير : إحتلال الجزائر بالسيف وبالمحراث ؛ السيف فى رقاب العرب ، والمحراث بيد المستعمر الفرنسى .

وكانت الأرض توزع على حثالات الفرنسيين العاطلين ، فأنشأت الإدارة أول الأمر ٤٢ مركزا استعماريا ، وزعتها مجانا على عشرين ألفا من الباريسيين ، نقلوا بنفقة الحكومة الى أرض الجزائر ، ووزعت عليهم الأرض التى ذهب أهلها شهداء الإرهاب بين السيف والنار .

وفى سنة ١٨٤٨ أعلن مجلس النواب الفرنسى ، أن أرض الجزائر قطعة « طبيعية » من فرنسا ، وأنها جزء من أم الوطن ، وأن الفرنسيين ينتخبون نائبين عنهم للمجالس القومية الفرنسية بباريس — كأن لا وجود للمسلمين .

أما التقسيم الإدارى ، فقد وضعت أسسه سنة ١٨٤٥ ، حيث قسمت الأرض إلى مناطق الشمال ، التى يحكمها الفرنسيون المدنيون ، وبلاد الجنوب التى يحكمها العسكريون الفرنسيون .

وإذ وجدت السلطة أن عدد المستعمرين الفرنسيين لم ينم بالدرجة المطلوبة ، نشرت دعاية واسعة بين فقراء ومعدمى الأسبان ، والطليان ، كى يفدوا نحو البلاد الجزائرية ، حيث الأرض ، والقروض ، والثروة والغنى

فجاء هؤلاء الملقون ، حفاة يحماون الأسمال البالية ، وكثر عددهم ونما واقطعوا صالح الأرض ، ومنحوا واسع الأموال ، ثم نالوا الجنسية الفرنسية واندمجوا بالفرنسيين الأولين ، فكونوا العنصر المستعمر ، الذى أصبح من تلك الساعة هو الحاكم بأمره فى قطر الجزائر ، يستأثر بها دون أهله المسلمين ، وأصبح بواسطة ثروته ونفوذه يتحكم فى ضمائر الحكومات الفرنسية .

ووضع نظام الجزائر الجارى به العمل الآن سنة ١٨٦٩ ، فهو يجعل على رأس البلاد موظفاً ساميا فرنسيا يدعى « الوالى العام الذى يشرف على إدارة فرنسية بحتة ، تحكم من أجل الإستعمار ، ولفائدة الإستعمار .

ثم تدفق سيل جديد من المستعمرين أثر الحرب التى نكبت فيها فرنسا شر نكبة ، أمام الألمان سنة ١٨٧١ فاستقرت ببلادنا جموع عظيمة من الالزاسيين ، اقطعوا جيد الأرض ، ومنحوا الأموال الغزيرة ، واشتدت حركة الرمى بالمسلمين إلى الجنوب وبلاد النجود ، دون شفقة أو رحمة ونزعت عنهم بقايا أرضهم الفلاحية الصالحة .

وفى سنة ١٨٨١ ، أصدرت فرنسا قانون الجنسية ، يضفى الجنسية الفرنسية على أبناء كل الأجانب الذين يولدون فى الأرض الجزائرية . فإذا أضفنا إلى ذلك مجموع اليهود الذين زج بهم فى الجنسية الفرنسية سنة ١٨٧١ ، رأينا

كيف تمكن الفرنسيون من وضع مليون أجنبى فوق أديم الأرض الجزائرية وتمكينهم من كل خيراتها ومرافقها وأرضها وأموالها .

وفى مفتتح القرن العشرين ، سنة ١٩٠١ ، نال الاستعماريون فى قطر الجزائر نوعا من الاستقلال المالى ، بواسطة الاستعمار ، ولفائدة الاستعمار ؛ واشتد الكرب بالمسلمين، وأشرفوا على الهلاك . وكانت لهم قوانين زاجرة، سنت للبطش بهم ، ومنع كل حق عنهم ، تدعى « قوانين المدجنين » الأنديجينا ، التى لا يعرف العالم لها مثيلا .

واستمر زحف السيل العرم من المستعمرين . ففيما بين سنتى ١٩٠٤ — ١٩٢٧ ، وزعت عليهم (٢٣٧٠٠٠) هكتار من جيد الأرض ، مع منح مالية عظيمة ، وأمضوا كلهم التزاما بأنهم إن اضطروا إلى بيع تلك الأرض، فلن يبيعوها إلا لمستعمر ليس إلا ، ولا تباع لمسلم أبدا .

الحكومة

جربت حكومة باريس عدة أنواع من الحكم المباشر فى أرض الجزائر، إلا أنها تتعمد ، عند كل تجربة جديدة ، الأمعان فى ابعاد العنصر الإسلامى عن الحكم ، ووضعه موضع المتشرد أمام أصحاب السلطان .

فالوالى العام الفرنسى ، الذى يعينه مجلس الوزراء ، يمثل السلطة الفرنسية ، ويتلقى الأوامر من وزير الداخلية ، لكنه لا ينفذ إلا ما يرضى عنه الاستعمار ، وما يفيد الاستعمار . فإذا بدا من أحد الولاة العامين ما يدل

على الاستقلال برأى ، أو على مخالفته لأى مصلحة استعمارية ، ثار عليه المستعمرون ، وواطأتهم حكومة باريس ، فاستبدلت به غيره . لهاذا فالوالى العام بقطر الجزائر ، هو خادم ركاب الاستعمار ، منفذ لأرادة المستعمرين .

برأس الوالى العام « الإدارات » الحكومية التى تشملها الولاية العامة ، وهى : الداخلية ، المالية ، البريد ، الأشغال العامة ، المواصلات ، الفلاحة والتجارة ، العلوم .

وكل مصلحة من هذه المصالح ، يتولى أمرها : المدير العام ، وهو موظف فرنسى ، ويباشر العمل فيها مئات من الموظفين ، كبار وصغار ، كلهم من الفرنسيين . فالملا بين التسعة من المسلمين الذين يقطنون أرض الجزائر ، لاوجود لهم أصلا ، مطلقا ، داخل جدران هذه العمارة العملاقة التى يدعوها الجزائريون : « مغارة على بابا » وقد اعترف الفرنسيون أخيراً بأنه لايوجد من بين خمسة آلاف موظف ، إلا ثمانية رجال من المسلمين . فالولاية العامة التى تتولى إدارة القطر الجزائرى ، وتحكمه حكما قاسيا ، أنما هى إدارة فرنسية ، عنصرية ، استعمارية ، شعارها : كل شىء للفرنسيين ، ولا شىء للمسلمين !

العمالات

كانت بلاد الجزائر مقسمة ، إلى يوم الثورة الكبرى ، إلى عمالات « مقاطعات » فرنسية ، هى : قسطنطينة ، والجزائر ، ووهران . أما البلاد

الجنوبية ، وهى الصحراء الواقعة تحت جبال الأطلس الصحراوى ، فيحكمها العسكريون حكما عرفياً .

والعامل أو « البريفى » فرنسى ، يتبع رأساً وزير الداخلية بباريس . وللوالى العام عليه حق الإشراف ليس إلا . والعمالة عبارة عن إدارة محلية واسعة النطاق ، شديدة الحكم صارمة التنفيذ ، للاستعمار فيها سلطة تعادل سلطته ونفوذه فى الولاية العامة . فالأوربى يعتبر فى دار العمالة صاحب البيت كل من فيها يخدم ركابه . أما المسلم ، فأذل فيها من اليتيم على مائدة اللئيم .

وفى كل إدارة عمالة ، طائفة عظيمة من الموظفين ، الذين تغدق عليهم الأموال جزافاً ، لكن لا وجود لمسلم بينهم . والإدارة هنا ، كما فى الولاية العامة ، فرنسية ، عنصرية ، لا تعمل إلا لفائدة المستعمر .

البلديات

وتنحدر درجات السلطة فى القطر الجزائرى ، وينحدر معها التعفن الاستعمارى إلى أقصى الدرجات .

فالبلديات على ثلاثة أنواع :

١ — البلدية التامة : وهى تشمل كل المدن فى الجهة الشمالية ، وبعض القرى . وإذ كانت أغلبية المجلس البلدى مؤلفة من الأوربيين (٣ من ٥) فشيخ المدينة ، أو « المير » يكون دائماً فرنسياً ، استعمارياً ، وقد ألف شيوخ المدن هؤلاء جمعية استعمارية تملى إرادتها على الدولة وعلى الحكومة .

ويرى هؤلاء الأنانيون الجشمون ، أنهم أصدق من يمثل الرأى العام الأوربى ويعلنون ما يكتمه غيرهم ، من العداوة ، والبغضاء ، للعنصر الإسلامى .

والبلدية عبارة عن إدارة ضخمة ، تتناسب وقيمة المدينة من حيث الغنى ، والاتساع ، والعمران ، وهى كالإدارات السابقة : فرنسية ، عنصرية استعمارية ، قلما رأيت فيها موظفاً مسلماً ، إلا النادر ، اللهم إلا طبقة البوابين وكانسى الطرق وأضرابهم .

٢ — البلدية الممتزجه : وهى توجد فى الجهات التى يقل فيها العنصر الأوربى ، فخلقوا لها نظاماً خاصاً كيلا تكون بلدية عربية ولا وطنية .

فهذه البلدية يديرها موظف فرنسى ، مطلق التصرف ، يدعى المدير أو « الادمنستراتور » وله مجلس ينتخب الفرنسيون — مهما قل عددهم — أغلبيته . بينما تعين الإدارة تعيينا ، جماعة من أعوانها ، لتمثيل المسلمين . ورغم أن دستور عام ١٩٤٧ ، قد أعلن الغاء هذا النظام الفاجر ، فإنه قد بقى موجودا إلى يوم اعلان الثورة . وكل الموظفين من الفرنسيين .

٣ — البلدية العربيـة : ولا تسرع فى التفاؤل . فليس لهـا من العربية إلا الإسم . فهذه البلديات توجد فى بلاد الجنوب العسكرى ، ولا ينتخب السكان أحدا فيها . فالفرنسيون فيها هم رجال السلطة العسكرية ، والمسلمون فيها هم أعوان تلك السلطة ، من : قياد ، وغيرهم . والقائد ، فى الاصطلاح الإدارى الجزائرى ، هو موظف صغير مسلم ، يختارونه غالبا من قدماء المحاربين ، ليكون حارسا للنظام فى القرى والمداشر والبادية ، يعين

السلطة على استخلاص الضرائب ، ويجند لها الناس ، ولا تدفع له الإدارة مرتبا يكفيه ، بل تكتفى بالتغاضى عن الأساليب الحقيرة التى يسلكها لكسب عيشه ، وتوسيع ثروته ، من عرق جبين الجياع العراة من المسلمين .

المجلس الجزائرى

هو المجلس الذى جاء به دستور الجزائر الجديد ، الذى « منحته » فرنسا سنة ١٩٤٧ ، وهو مجلس له النظار الواسع فى ميزانية الجزائر ، تحت رقابة المجلس الوطنى الفرنسى ، ولا ينفذ قانون فرنسى فى أرض الجزائر ، إلا بعد مصادقته ، بينما لا ينفذ قرار من مقرراته ، إلا بعد مصادقة مجلس فرنسا عليه .

وقد سنت فرنسا ، فى غمرة من الأريحة والحرية ، مبدأ التساوى المطلق .... بين المسلمين والفرنسيين فى هذا المجلس ، فالتسعة ملايين من المسلمين يمثلهم ٦٠ نائباً ، والمليون الواحد من الأوربيين ، يمثلهم ٦٠ نائباً كذلك .

هذا هو التساوى الذى تتفتق عنه عبقرية الفرنسيين ، عند ما يريدون أن يسلكوا فى الجزائر سياسة حرة ! .

لكن خوفهم من كل ما هو جزائرى ، وكل ما هو مسلم ، جعلهم يخشون سوء مغبة هذه التسوية فى العدد ، فاكتشفوا طريقة تقيهم هذا الخطر ، وجربوها ، وأمعنوا فى تجربتها المرات العديدة ، إلا وهى طريقة :

تدليس الانتخابات ! فالإدارة تعين مرشحها من قبل ، من بين الصم البكم العمى الذين لا يفقهون ، ولربما تسامحت أحياناً ، فرضيت عن ترشيح بعض أصدقائه من النخبة « المعتدلة » . ثم تصدر الأوامر لكل الادارات ، والبلديات ، وجميع رجال السلطة ، بأن المرشح الذى « يجب » أن يفوز هو فلان ، وتتنافس سلط البلديات التامة ، والممتزجة ، فى استعمال وسائل التزوير ، والتدليس ، والسرقة ، لفوز المرشح الحكومى ، إلى أن أصبح الانتخاب فى قطر الجزائر علة العلل ، وطالما أعلن المسلمون مقاطعتهم لهذه «الانتخابات المدلسة» ، لكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً ، فالمرشح الحكومى فائز أبداً ... ولو لم يباشر العملية إلا النزر اليسير من المسلمين .

وقد اعترف — بعد فوات الوقت — أعضاء المجلس الوطنى الفرنسى بهذه المآسى الانتخابية ، وهذه التدليسات الحقيرة . وتباروا — بعد اعلان الثورة الجزائرية الكبرى — فى وصف آفاتها ، وطريقة وقوعها . وأعلنت الحكومة التوبة جهاراً . وقالت : ليكن الانتخاب فى قطر الجزائر حراً ، فى مستقبل الأيام ، حتى نتمكن من التفاوض مع ممثلى الرأى العام الحقيقيين ، ثم حلت المجلس الجزائرى المزيف .

كفرعون موسى ، حين أعلن ايمانه ، بعد أن أدركه الغرق .

أما الميزانية الجزائرية التى يتصرف فيها الاستعمار والمستعمرون ، بواسطة نوابهم ، وبواسطة أذيال نوابهم ممن رضيت الإدارة عنهم من المسلمين ، فقد بلغت مبلغاً ضخماً يزيد عن مليةوعشرين مليارا من الفرنكات .

أغلبها يدفعه أبناء البلاد ، لأنه مفروض على الاستهلاك . لكنها تنفق على الاستعمار ، تاركة المسلمين للفقر والجهل والاهمال .

المجالس العمالية

لكل عمالة مجلس منتخب، كان إلى إعلان الثورة الجزائرية الكبرى ، يتألف من ثلاثة أخماس للنواب الأوربين ، وخمسين فقط للنواب المسلمين (ثم سوى بعد ذلك ، على نفس قاعدة المجلس الجزائرى .) . لكن مآسى التدليس الانتخابي فيه ، كانت توازى أو تكاد تفوق مآسى انتخاب المجلس الجزائرى ، ولا تكاد ترى فيه إلّا مَنْ يرضى عنه الاستعمار، أو من رشحه الاستعمار ، وقليلا جدا ممن بعثت بهم المدن ضد أرادة الاستعمار .

وهذا المجلس ينظر ميزانية العمالة ، وينفق معظمها فى صالح الاستعمار والمستعمرين الفرنسيين . وأن تكلم نائب حر عن مصلحة المسلمين ، فلا يسمع له قول ، وأحيانا لا يسجل كلامه فى محضر الجلسة ، فالجزائرى غائب عن الحكم وعن المجالس دائما .

المجالس البلدية

كل مدينة ، وكل بلدة تنتخب مجلسا بلديا لأدارة شئونها . وبما أن أعمال السرقة والتدليس تصعب داخل جدران المدن الكبيرة — وأن كانت تقع على نطاق واسع — فلم يجازف القانون بسن التسوية البشعة الآنفة

الذكر ، على قاعدة ٩ = ١ ، بل حرص على إن يبقى للأوربيين مهما قل عددهم ثلاثة أخماس المقاعد ، وأن يكون للجزائريين ، مهما سما عددهم ، الثلثان الباقيان . وبهذا يضمن الاستعمار لنفسه أمرين :

أولهما : أن شيخ المدينة « الميرِ » لا يكون إلا فرنسيا .

وثانيهما . أن كل ما يقترحه الجزائريون ، على قلتهم ، يرفض . وكل ماأراده المستعمرون ، ينفذ ، ولو عارضه الجزائريون باجماع .

مجالس الجماعات

فى القرى والمداشر ، والقبائل الجبلية ، والبدوية ، ينتخب الجزائريون مجالس تدعى « مجالس الجماعات » وتنتخب فى مجال محلى ضيق ، وليس لرجالها أى سلطة أو نفوذ .

المجالس الفرنسية

كان الجزائريون ينتخبون للمجالس النيابية الفرنسية (المجلس الوطنى — مجلس الجمهورية — مجلس الاتحاد الفرنسى) من يمثلهم — نظريا — إلى جانب ممثلى المستعمرين الفرنسيين فى عدد متساو بين هؤلاء وهؤلاء .

وإذ أسفرت التجربة الأولى عن فوز الأحرار الوطنيين الجزائريين ، فأقضوا مضاجع النواب الفرنسيين ، وأن لم يؤثروا بأقوالهم البليغة وحججهم الدامغة شيئاً ؛ فان الإدارة الاستعمارية قد عمدت فى هذا

الميدان أيضا ، بل أكثر من الميادين الأخرى ، للتدليس والسرقة ، والتزوير . فكانت تزود المجالس النيابية الفرنسية بنوع من البضاعة البشرية ، لا يكاد يمثل الجزائريين فى قليل ولا فى كثير .

وهكذا كان الجزائريون غائبين عن الحكم وعن الإدارة ، وعن المجالس ، يهانون ويمتهنون ويحتقرون ، ولا يزيدهم أى عمل ، أو أى قول أو أى مسعى ، إلا أيمانا بأن هذا المنكر العظيم يجب أن يزول ، وأنه لا يزول إلا بواسطة القوة وحدها ، لأن قرنا وربع قرن من التجربة قد أرتهم أن الفرنسيين الاستعماريين لا يخضعون لمنطق ، ولا يسمعون كلمة الحق ، وأن الاندفاع فى ميادين الموت والتضحية ، هو سبيل الحياة الكريمة الشريفة ، فاندفعوا فى ثورتهم الكبرى ، وفقهم الله وسدد خطاهم .

— ٢ —

الأرض والاستعمار

هذه صفحة خزى وعار ، سجلها الاستعمار على نفسه ، وكان جشعه فيها ، هو سبب المصرع الوخيم الذى ينتظره ، والذى يتذوق الساعة منه مرارة الاحتضار .

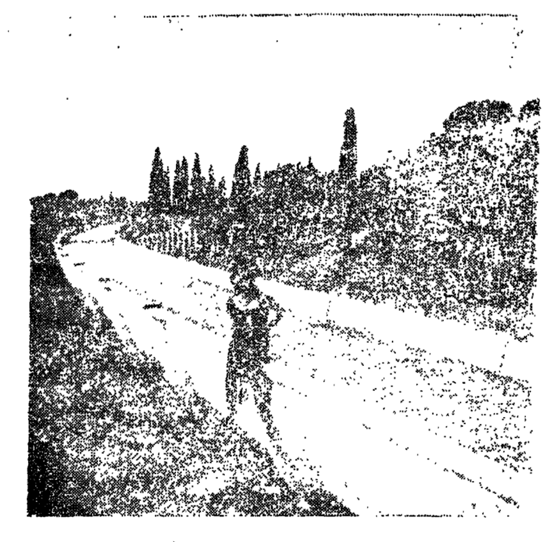
فالنظام الاستعمارى القذر ، العفن ، قد استولى عنوة واقتدارا ، بواسطة اللصوصية والقتل ، والإعدام الجماعى ، والتدليس ، على معظم الأرض الفلاحية الغنية فى القطر الجزائرى ، تلك الأرض التى كانت عنصر

عيش الجزائريين ، وكانت تكفى لحياتهم حياة هنيئة ، وتسمح بتصدير الفائض منها إلى الخارج ، فى تجارة واسعة .

أن الأرض الفلاحية فى القطر الجزائرى تشمل عشرين مليون هكتار يعترف الاحصاء الرسمى الفرنسى أنها توزع هكذا :

- ٥,٠٠٠,٠٠٠ هكتار تملكها الدولة الفرنسية ، ومنها أرض الأوقاف الإسلامية المغتصبة ، ومقدارها مليونان هكتار .
- ٤,٠٠٠,٠٠٠ هكتار تملكها البلديات ، أى النظام الاستعمارى الفرنسى وكل هذه الأرض يستغلها الاستعمار لفائدته .
- ٢,٥٠٠,٠٠٠ هكتار ، ملك خاص لطائفة المستعمرين «الكولون» وهى أجود الأرض ، وأكثرها خصبا ، وأحسنها موقعا ، فى الجهات التى تكثر فيها الأمطار ، وتوجد بها أعمال الرى يملكها ٢٦,٠٠٠ مستعمر
- ٨,٥٠٠٠٠٠ هكتار ، من الأرض القاحلة الجرداء ، التى ليس بها رى ، ولا تنال من المطر إلا قليلا ، بقيت بأيدى الجزائريين ، فى مناطق الجبال والنجود والصحراء ، توزع على تسعة ملايين نسمة .

وهكذا ، لم يكتف الاستعمار الظالم بأبعاد الجزائريين عن الحكم ، والإدارة ، والمجالس ، بل أبعدهم قبل ذلك ، ومع كل ذلك عن أرض آبائهم وأجدادهم ، وتركهم للبطالة ، والتشرد ، والفقر والاهمال .



(شكل ١٩) ابنة المستعمر فى جنة أبيها

وقد ألفت فى فظائع الاستعمار ، وتشريده للجزائريين من أرض وطنهم الكتب العديدة ، ونستطيع أن نلخص مأساة تشريد الجزائريين وأبعادهم عن الآرض فى المراحل الآتية :

أولا : كان المارشال دى برمون ، الفاتح الفرنسى ، المتهم باللصوصية والسرقة ، قد تعهد بالشرف ، على أحترام الدين ، وشعائره ومؤسساته كما

تمهد بحفظ ممتلكات الأتراك — الذين أصبحوا بعد أقامة ثلاثة قرون من أهل البلاد الأصليين .

لكنه لم يكد يستقر له قدم فى الجزائر ، حتى أعلن مصادرة كل أوقاف المسلمين ، من أرض وعقار ، ومصادرة كل ممتلكات أبناء البلاد من الأتراك . وأخذ فى الاستيلاء فعلا ، على الأرض الفلاحية الغنية فى جهة الجزائر ، ووزعها على الحثالة التى صحبت جيش الاحتلال .

ثانيا : بما أن أغلبية المسلمين كانت تملك الجهات الشاسعة من الأرض ملكا جماعيا، قوامه العائلة أو القبيلة ، لا الفرد ، فقد صدر قرار سنة ١٨٣٢ ، يقتضى ملكية الدولة الفرنسية ، لكل أرض لا يستطيع صاحبها أن يستظهر بعقد امتلاك لها . وهكذا أصبح الاستعمار يستولى على أكبر مساحة من الأرض ، عنوة وظلما واقتدارا .

ثالثا : بعد ان انتهت الدولة الفرنسية من جرد أرض الأوقاف ، واستولت على القسم الأكبر من أرض الجزائر أصدرت قانون أكتوبر سنة ١٨٤٤ الذى يبيح لها بيع أرض الأوقاف للمستعمرين أو توزيعها عليهم ، وأن عقد « الوقف » الإسلامى لا يمنع صفقة البيع الفردى أو الهبة ، وهكذا استولى المستعمرون على كامل أرض الأوقاف وتوزعوها فيما بينهم .

رابعا : أصدر الاستعمار قانون ٣١ يوليو سنة ١٨٤٦ يتملك به كامل الأرض التى تقيم فيها القبائل الرحالة ، فأصبحت الغالبية العظمى من سكان البلاد ، تعمل فى أرض « الدولة » وأخذ الاستعمار يشردها شيئا فشيئا ، لصالح المستعمرين ، إلى أن لم يبق بين أيدى البدو إلا الأرض البور .

خامسا — ما كادت الجندية الفرنسية تتغلب على ثورة الزعيم المقرانى فى البلاد القبائلية ، حتى أعلنت مصادرة كامل الأرض الفلاحية فى تلك المنطقة ، ومساحتها نصف مليون هكتار ، ووزعتها على لاجىء الألزاس ، تاركة رجال زواوة الأشراف الميامين للجوع والفناء العاجل ، ولولا رحمة من الله ومعجزة الإيمان ، لما بقيت فى تلك الجبال حياة لأهلها .

وهكذا شرد المستعمرون الجزائريين من الأرض ، واستأثروا بها دونهم ، ووزعوها فيما بينهم توزيعا غير عادل ، إذ من المستعمرين من يملك قطعة أرض تكفيه لحياته وحياة عائلته ، ومنهم عدد محظوظ ، نال ممالك شاسعة درت عليه ثروات لا يكاد يستطيع ضبطها . ثم هو لا يدفع عنها إلا ضرائب زهيدة جدا .

كانت نتيجة هذا التشريد الفظيع ، وهذه اللصوصية التى لا مثيل لها فى التاريخ ، أن وقعت فى البلاد الجزائرية مجاعة فادحة ، سنة ١٨٦٧ ، أدت إلى هلاك نصف مليون من المسلمين ، وأفقرت الجهات الكثيرة من البلاد الجزائرية ، بصفة لا تزال تعانى ويلاتها إلى الآن .

وهكذا كانت الحالة ، إلى قيام الثورة الجزائرية الكبرى ، يوم غرة نفامبر سنة ١٩٥٤ : أمة ذات تسعة ملايين من الناس ، تعيش شريدة مهملة فى أرض كانت لآبائها وأجدادها فاستأثر بها الاستعمار دونها ، ولم يترك لها إلا القاحل والبور منها ، فهبت تستعيد حقها بالقوة ، بعد أن أعيتها الحيلة .

— ٣ —

الفلاحة

الأعناب :

إذا كان الاستعمار قد اغتصب أكثر الأرض الجزائرية خصبا وأحسنها ريا وأطيبها مناخا فإنه يستثمرها لصالحه الخاص ، دون مراعاة صالح البلاد ، وينتج فيها ما يعود عليه هو بالفائدة ، ثم ما عليه أن ماتت بقية البلاد جوعا

فالسهول الخصبة فى جهات عنابة ، والجزائر ، ووهران ، قد غرست كلها كروما لإنتاج الأنواع المتعددة من الخمور . فهذه الكروم تحجب اليوم مساحة ٤٠٠,٠٠٠ هكتار من أجود الأرض ، وتنتج سنويا نحو عشرين مليون هكتوليتر خمرا .



(شكل ٢٠) كروم استعمارية لا نهاية لها

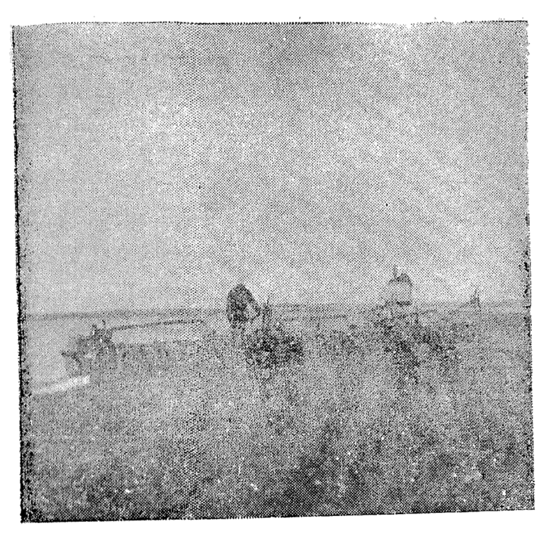
فهذا الخمر لايستهلك محليا ، إنما يعتبر وسيلة مقايضة تجارية ، فتضطر بلاد فرنسا لشرائه ، وذلك يسبب لها كسادا عظيما في سوق خمورها الوطنية إنما هي تفعله مضطرة لمساعدة مستعمريها أولا ، ولبيعهم مقابل ذلك بضائع وآلات وأدوات من صنعها ، ثانياً .

أما أهل البلاد فقصارى أمرهم من هذه الحركة الواسعة العريضة ، أنهم يعملون في حقول الاستعمار بأجور منخفضة جداً ، لا تكاد تسد الرمق ، ثم يقال أنهم لا يقومون بالعمل على الوجه الأكمل ، فيأتى المستعمرون بطائفة من العمال من أسبانيا ، ومن غيرها ، حتى يحرم الجزائرى من نفس ذلك الأجر الزهيد .

القمح :

زراعة القمح هى الزراعة الأساسية بالقطر الجزائرى ، وعليها معول السكان لحياتهم . فالسهول الداخلية ، وبعض الجبال والنجود ، تزرع قمحا ، وتأتى بمحصول واحد فى السنة ، وتتأثر هـذه الزراعة بالمؤثرات الطبيعية وأهمها الجفاف إذا كانت أمطار السنة قليلة . فتهدد المجاعة السكان المسلمين .

ومجموع الأرض التى تزرع قمحا ١١,٢٠٠,٠٠٠ هكتارا ، تنتج فى السنة نحو ٨,٥٠٠,٠٠٠ قنطاراً وهو مقدار لا يفى بحاجة السكان ، بينما كانت الجزائر المستقلة تصدر كل سنة كميات عظيمة من قموحها . وليس الجزائريون هم الذين ينتجون وحدهم هـذه القموح . بل أن الكثير من المستعمرين



(شكل ٢١) مستعمر يحرث أرضه بآخر طراز من المحاريث

الذين انتصبوا فى الجهات الفلاحية الصعبة ، يشاركون فى هذا الإنتاج بنحو الثلث ، ويستعملون لزراعته ورعايته وحصده أحسن الآلات الحديثة ، نظراً لما بين أيديهم من وسائل العمل ، ووفرة القروض الحكومية والشركات الاحتياطية وغيرها ، أما أغلب المسلمين فلا يكادون يستعملون إلا أبسط



(شكل ٢٢) عربى يحرث أرضه بمحراث عتيق

الآلات ، وقد أوصدت دونهم أبواب البنوك وأبواب القروض ، فإذا ما أصابتهم جائحة ذهبت بالأخضر واليابس ، ونكبتهم شر نكبة .

أما السدود ، وأعمال الرى ، وخزن المياه ، فلا تفكر الإدارة الاستعمارية أصلا فى إيجاد شىء منها ، بالجهات التى يباشر بها الجزائريون فلاحتهم



(شكل ٢٣) مستعمر يحصد القمح بآلة حديثة

الضعيفة ، فالإهمال فى كل شىء ، ذلك هو نصيب الجزائرى تحت حكم الإدارة الاستعمارية .

الشعير :

وهى الحبوب الثانوية بعد القمح ، تستعمل لعلف الحيوان ، ولغذاء الإنسان ، وللتصدير للخارج لصناعة البيرا .



(شكل ٢٤) عربية تحصد القمح بمنجلها

فهذه الحبوب التى تكاد تكون غلة الجنوب الوحيدة تزرع على مساحة ١,٣٠٠,٠٠٠ هكتار ، وتنتج ٧,٥٠٠,٠٠٠ قنطار سنويا ، وإليها يرجع أكبر الفضل فى حياة الجزائريين بجهات الوسط والجنوب ، لكن الاستعمار شارك فى نفس هذه الزراعة البسيطة أيضاً ، وهو ينتج منها نحو السبع .

الدخان : أو الطباك :

من أهم المغروسات الصناعية فى قطر الجزائر ، وهوالشىء الوحيد الذى يكاد الجزائريون ، وخاصة أهل الجبال منهم ، ينفردون بغراسته . (تحت مراقبة إدارية صارمة) . وهويحجب نحو ٣٠ ألف هكتار . تنتج ٣٠٠ ألف قنطار فى السنة ، وبفضله يعيش أهل الجبال التى تحيط بمدينة الجزائر .

الحلفه:

نبت طبيعى كما أسلفناه فى الفذلكة الجغرافية ، يحجب كامل بلاد النجود الجزائرية وينتشر على نحو أربعة ملايين من الهكتارات التى قضى عليها الإهمال الإدارى الاستعمارى بأن تبقى بوراً ضائعة ، وتشتغل القبائل العربية الكثيرة العدد بقطع هذه الحلفه ، والاتيان بها لمراكز التصدير ، فالمحصول السنوى الذى يبلغ ١٥٠ ألف طن ، يسلم كله لشركة استعمارية واحدة ، تكاد تستثمرها عائلة مستعمرة واحدة ، ويأخذ العرب مقابل عملهم الشاق المضنى ثمنا زهيداً جداً لا يكاد يذكر ، بينما تبيع الشركة هذا المحصول للبلاد الأجنبية ، وخاصة للمعامل الانكليزية ، بأثمان باهظة ، فتصنع منها الأقمشة ، والجيد من الورق .

حتى حلفة النجود المحرقة القاحلة ، يستأثر بها الاستعمار ، ولا تعود بالخير إلا عليه !

الزيتون :

الزيتونة المباركة شجرة أفريقية أصيلة ، قد وجدت من أقدم العصور عناية عظيمة من كل إدارة تولت أمور البلاد ، لأن هذه الشجرة صبورة ، طويلة الحياة ، تكتفى بعناية قليلة ، وتنبت فى الجهات التى ربما لا تستطيع شجرة أخرى الحياة فيها .

فغابات الزيتون تحجب فى القطر الجزائرى نحو ٨٥ ألف هكتار . وفيها ٩ ملايين شجرة مثمرة ، و ٥ ملايين شجرة مهملة ، ولو كانت إدارة الجزائر بيد أبنائها ، لكانت اعتنت بالمثمر من شجر الزيتون ، كعناية البلاد التونسية به ، ولكانت باشرت العمليات الفنية التى تجعل ملايين الشجيرات العقيمة مثمرة .

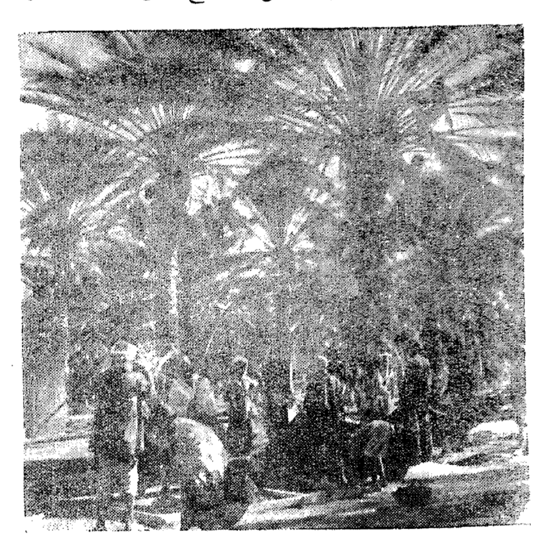
لكن . ويل ثم ويل لبلاد حكمها الأجنبى ، رغم إرادة بنيها ، وسار فيها ضد مصلحة ذويها .

فهذه الزياتين الكثيرة التى كانت تستطيع جعل قطار الجزائر من أكبر منتجى زيت الزيتون الرفيع فى العالم ، لا تنتج سنويا إلا ٣٥٠٠٠٠ هكتوليتر ، تستولى عليها أيدى الاحتكار الأوربى ، فلا تعود على صاحب البلاد إلا بالنزر اليسير من الخير .

على أن الاستعمار قد زاحم هذه الغراسة أيضاً مزاحمة عنيفة ، واستولى على أحسن جهاتها ، فهو يملك منها الثلث (ثلاثة ملايين شجرة) من أحسنها موقعا وأكثرها إنتاجا ، ثم يقول : هل من مزيد ؟.

النخيل : ثروة واحات الجنوب الجزائرية ، وجنته الوارفة الظلال .

فالنخيل يحجب فى جهات الجنوب ٦٥٠٠٠ هكتار من الأرض ، تنتج أنواعا عدة من أجود الثمرات يبلغ مجموعها فى السنة ١,٨٠٠,٠٠٠ قنطار ، تستعمل بعض أنواعها للاستهلاك المحلى ، وتوزع بعض أنواعها الأخرى



(شكل ٢٥) جنى التمر فى واحات الجنوب

على الأسواق العالمية ، بواسطة شركات الاحتكار . وقد زاحم الاستعمار الجزائريين فى هذه الواحات أيضاً ، وهو يملك جزءاً من النخيل .

أما أهم المواد الزراعية الأخرى فى قطر الجزائر — وأغلبها بأيدى المستعمرين — فهى :

البرتقــال : يغرس على ١٠,٠٠٠ هكتار ، وينتج سنويا ٧٥٠,٠٠٠ قنطار
الليمون : » » » » » » ٧٥٠,٠٠٠ »
الماندارين[1]: » » » » » » ٧٠٠,٠٠٠ »
اللوزوالبرقوق » » ٦٠٠٠ » » »
المشمش : » » ٣٠٠٠ »

وغنى عن الذكر ، أن أهم البساتين فى أيدى الأوربيين ، وأن العناية الكبرى لا تبذل إلا فى الجهات الأوربية ، وأن أهم المحصول لا يفيد إلا المستعمرين .

التين :

له غابات كثيفة بالبلاد الجبلية ، تحجب نحو ٧٠ ألف هكتار . وعليه اعتمادأهل الجبال القبائلية «جرجرة» فى معيشتهم . وقد تدخل فيه الاحتكار والاستعمار ، وأسست شركات عديدة لاستثماره مجففا ، على الطريقة التركية ، والاتجار به فى شتى أسواق العالم .

(١) اليوسف أفندى .

الماشية :

هى إلى جانب النخيل ، الثروة الوحيـــدة التى يعتمد عليها العرب فى وسط البلاد وجنوبها للقيام بأود حياتهم . وقد زج الاستعمار بأنفه فى هذه الناحية أيضاً ، وأصبح يملك عددا عظيما من الغنم ، ويستأثر بالفسيح من المراعى .

ويبلغ عدد الغنم فى قطر الجزائر ، فى الأعوام الاعتيادية نحو السبعة ملايين رأسا . لـكن سنوات الجدب ، وفقد المرعى ، وقلة المياه ، تصيب تلك الماشية الـكريمة بكارثات فادحة ، فينحط عددها فجأة إلى ما دون النصف . ولو كانت فى البلاد إدارة صالحة وطنية ، لأولت عنايتها هـذه الثروة الطائلة ، ولوقتها غائلة النـكبات ، لـكن النظام الاستعمارى فى قطر الجزائر لايهتم إلا بأمرين إثنين : أولهما راحة مليون من الأوربيين وثروتهم ، وثانيهما : العناية بالأرض الاستعمارية ، وتوسيعها .

أما التسعة ملايين من أهل البلاد ، فللبيت رب يحميه !

البقر = ٨٥٠٠٠ رأس

الماعز = ٣,٢٠٠٠٠٠ «

الخيل = ٢٥٠ ألف رأس

البغال = ٢٠٠ « «

الحمير = ٣٠٠ « «

الإبل = (وهى الشىء الوحيد الذى لا يملكه إلا العرب ، الوحيد حقا) ٢٥٠ ألف رأس .

أما الصيد البحرى على سواحل قطر الجزائر فحركته ناشطة ، ويكاد يستأثر به وبصناعاته وبأسواقه جماعة من الطليانيين والأسبان .



(شكل ٢٦) قلع الفلين بغابات الجرجرة

فأنت ترى من هذا العرض الفلاحي البسيط ، أن الثروة في قطر الجزائر ، وأهم المحصولات ، وأغلب الموارد ، وأجود الأرض ، إنما هي للمستعمرين، ولا تعود بالنفع إلا على الليون من الأجانب المستوطنين وأن تسعة ملايين من المسلمين ، لا يعيشون ، في أرض آبائهم وأجدادهم ، إلا على فتات الموائد .

— ٤ —

الثروة المعدنية

وهذه آفة الآفات ، لأن الاستعمار ، إن كان قد استولى عنوة واقتدارا على أكثر مافوق الأرض ، فهو قد استولى فعلا ، وبصفة تامة مطلقة ، على كل ماتحت الأرض .

فالبلاد الجزائرية غنية مفرطة الغنى من حيث المعادن والمناجم . وكل تلك الثروة المعدنية بيد الاستعمار خاصة ، لاحظ فيها لابن البلاد ، إلا إذا ماهو سعد بالعمل فيها أجيرا بسيطا،وعدد هؤلاء العمال لايزيد عن ١٥٬٠٠٠

على أن الاستعمار قد ترك الكثير من هذه المعادن والمناجم دون استثمار لعجزه فنيا وماليا عن ذلك ، اليوم ، ولكي يتركها ثروة « لأجياله المقبلة . . . . »

وإليك أهم معادن القطر الجزائري ومناجمه مما يستأثر به الاستعمار وشركاته الضخمة ذات الأرباح الذريعة .

١ — السماد (الفوسفات) :

وهو ذو شهرة عالمية ، يستخرج أكثره من مناجم الكويف ، قرب تبسه ، ويباع منه سنوياً نحو ٨٠٠،٠٠٠ طن .

٢ — الحديد :

يستخرج أكثره من الونزة ، وبنى صاف ، وجبال ذكار ، وينتج سنويا ثلاثة ملايين طن .

٣ — الرصاص — ٢٠ ألف طن فى السنة .

٤ - الزنك — ٥٠ « « « « .

٥ — النحاس — ١٥٠٠ طن فى السنة .

٦ الزئبق — ١٢٠٠ طن فى السنة .

٧ — الفحم الحجرى — ٣٠٠ ألف طن فى السنة . وتحول سياسة خاصة دون استثماره .

٨ — النفط (البترول) له حقول كثيرة . أثبتت التجارب أنها تنتج أحسن الأنواع ، منها مايخرج مصفى لايحتاج لعمليات التكرير . ومنها ماهو موجود على عمق ١٣ متراً أو ٢٥ متراً ، لكن هذا البترول لا يستثمر إلا قليلا . نظرا لوجود عراقيل سياسية عالمية .

فهذا العرض البسيط لحالة القطر الجزائرى من حيث الثروة المعدنية يريك رأى العين كيف أبعد الجزائرى المسلم عن خيرات بلاده ، وعن كنوزها ، وكيف هى تدر الربح الفاحش على الأجنبى المتسلط الغاصب ، بينما يموت ابن البلاد جوعا واهمالا .

— ٥ —

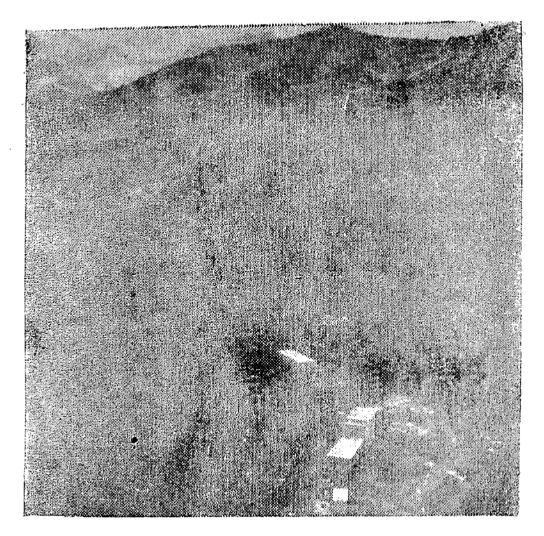
الصناعة والتجارة

أن الاستعمار قد تعمد محق وإعدام كل حركة صناعية فى البلاد ، فهو يستثمر الأرض وما تحتها لفائدته ، وذلك يكفيه لحياة الترف والنعيم التى يحياها ، فلا فائدة يرجوها من تصنيع البلاد ، ثم أن أحداث صناعة فى القطر الجزائرى ، يزاحم معامل فرنسا ، وهذا مالا يرضاه دولة الاحتلال بحال . كما أن تصنيع القطر الجزائرى يغير وضعيـــة سوق اليد العاملة الجزائرية ، فيغرى العمال الجزائريين بالعمل الصناعى ، المرتفع الأجور ويزهدهم فى العمل الفلاحى عند المستعمرين مقابل الأجور المنخفضة ، وهذا ليس فى مصلحة المستعمرين .

لذلك ترك القطر الجزائرى دون صناعة تذكر ، اللهم إلا بعض معامل الزيت ، والصـابون ، وصناعة السجاير والتبغ ، وما بقى بأيدى المسلمين من الصناعات المحلية مثل نسج الزرابى « السجاد » وحياكة الأصواف للاستهلاك المحلى .

فالاستعمار هشم الأمة الجزائرية من ناحية الصناعة ، وحطمها تحطيما ، وأوصد فى وجهها أبواب الأمل والرجاء ، مع أن خيراتها موفورة ، وامكانياتها عظيمة .

فهل يحق لأمة أن تترك غاصباً محتلا ، يحكم عليها بالاختناق الاقتصادى



(شكل ٢٧) إنتاج الكهرباء بقرية سوق الجمعة الجبلية

والموت جوعا وعلة ، ثم هى لا تطرق الأبواب الفعالة التى تغير هذا الحال ، لأحسن حال ؟ .

أما التجارة . فهى عبارة عن معول هدام ، مخرب ، يحطم كل يوم شيئاً من بقايا الكيان الجزائرى ، ويحكم على الأمة الجزائرية كل يوم حكما جديداً بالافلاس والاملاق .

ذلك أن فرنسا تحتكر التجارة الجزائرية — إلا النزر اليسير — فهي تبتاع نتائج القطر الجزائري ، وتبيعه مقابلها ما يحتاجه وما لا يحتاجه مما تنتجه معاملها ومصانعها . والميزان التجاري الجزائري في عجز مستمر فادح ، من جراء هذه الصفقات الخاسرة (الواردات عام ١٩٥٤ = ٢١٨ ملياراً ، والصادرات ١٤٠ ملياراً فقط) .

ثم أن القانون الفرنسي يجبر الجزائر على أن لا تباشر أي عمليـة نقل بحري ، للناس أو للبضاعة إلا على السفن الفرنسية خاصة . . .

إن أهل البلاد — تسعة ملايين من الجزائريين — لا وجود لهم في هذه الحركة التجارية الضخمة ، وقصارى أمرهم انهم يبيعون شركات الاحتكار والتجارة ما يزيد عن حاجتهم المحلية (أصواف — تمر — تبغ — حبوب — زيت —) . ثم هم يشترون من المستوردين الأجانب كل ما يلزمهم لحياتهم اليومية ولأعمالهم . فهم من جهة يستهلكون أكثر مما ينتجون ، ثم هم من جهة أخرى لا يشاركون إلا بصفة تافهة في حركات التصدير والتوريد . وهذا ما يقضي على الشعب بالفقر المستمر والخراب العاجل . فإذا زدنا على ذلك أنه لا يملك الأرض ، ولا ما تحت الأرض ، وهو بعيد عن الحكم ، غائب عن ميادين الإدارة والمجالس ، وأنه قد بقي على ذلك الحال ما يزيد عن القرن وربع القرن ، رأينا أنه لم يبق أمامه من باب يطرقه ، دفاعاً عن حق الحياة ، إلا باب الثورة الجامحة ، وقد طرقه .

أما أهم ما تصدره الجزائر سنوياً فهو :

الخمور	١٠ ملايين	هكتوليتر .	أوراق الدخان	١٣٠,٠٠٠	قنطار
الغنم	٦٥٠,٠٠٠	رأس .	التمر	٧٠٠,٠٠٠	«
الصوف	١٢٥,٠٠٠	قنطار .	الزنك	٦٤,٠٠٠	طن
البهش (الفلين)	٥٠,٠٠٠	طن .	الرصاص	٣٣,٠٠٠	«
الحلفة	٢٠٠,٠٠٠	« .	الحديد	٢,٣٠٠,٠٠٠	«
السماد	٨٨٠,٠٠٠	« .	الزيت	٦٠,٠٠٠	قنطار .

أما الواردات ؛ فأهمها الآلات الحديدية ، والسيارات ، والمنسوجات ، والسكر ، والقهوة والأخشاب ، والأواني ، والوقود ، والكماليات (عطور ومواد التجميل وغيرها) .

وفي هذه الحركة الكبيرة بين صادر ووارد ، وليس لأبناء البلاد فيها كما أسلفنا إلا النزر اليسير ، تنشط أهم المراسي الجزائرية نشاطاً كبيراً في حركات مستمرة ، لاتعود بفائدة على أبناء البلاد إلا من اشتغل منهم حمالا ينقل البضاعة على ظهره المنحني ، بين الأرض والسفن .

فالمراسي الجزائرية ذات حركة سنوية هذا معدلها :

مرسى مدينة الجزائر	٣,٨٠٠,٠٠٠	طن	سنويا
« وهران	٢,٥٠٠,٠٠٠	«	«
« عنابة (بونة)	٢,١٠٠,٠٠٠	«	«
مرسى بني مصاف	٧٠٠,٠٠٠	«	«
« بجاية	٣٥٠,٠٠٠	«	«
« سكيكدة	٣٢٠,٠٠٠	«	«

المواصلات :

فى قطر الجزائر اليوم ٤٤٠٠ كيلو متراً من السكك الحديدية .

هدفها الأول استعمارى بحت ، وعسكرى إصالة . فالخط الأساسى هو الذى يمتد من تونس إلى أقصى بلاد مراكش ، وتمتد منه فروع إلى عدد من الجهات الاستعمارية .

أما الجهات التى ليست فيها منافع استعمارية ، ولا مراكز عسكرية فهى لا تعرف السكة الحديد .

وما يقال عن السكة الحديد ، يقال أيضاً عن الطرق الكبرى ، فهى تربط بين أمهات المدن والقرى ، وتصل المراكز الاستعمارية بالحواضر والقرى أما الجهات التى لا استعمار فيها ، ولا أوربى فيها ، فطرقاتها العتيقة الملتوية تكفيها . . .

فى القطر الجزائرى خمسة آلاف كيلومتر من الطرقات الكبرى ، وعشرون ألف كيلو متر من الطرق الثانوية .

— ٦ —

نتائج المأساة الاقتصادية

الأجور :

القاعدة الأساسية فى قطر الجزائر بالنسبة للأجور ، هى إعطاء أقل ما يكون للعامل المسلم — وخاصة فى المنطقة الفلاحية — وذلك ليزداد

المستعمرون ثروة وغنى وتمكنا فى الأرض ، وليزداد الجزائريون فقراً وفاقة فلا تقوم لهم فى قطر الجزائر قائمة فأساس السياسة الفرنسية فى قطر الجزائر هو « التفقير » وسيأتيك حديث التجهيل .

فبعد تسويات عديدة أصبحت الأجور فى القطر الجزائرى كما يلى :
المنطقة الأولى (العمل من ١٢ إلى ١٤ ساعة يوميا) ٤٢٧ فرنك ٤٢ قرش فى اليوم .

المنطقة الثانية (العمل من ١٢ إلى ١٤ ساعة يوميا) ٣٩٠ فرنك أى ٣١ قرش . بينما الأجور فى فرنسا تتراوح بين ١١٠٧ و ٨٩٠ فرنكا لليوم (١١٠ قروش و ٩٠ قرش) واللاحظ أن أسعار المواد الغذائية وأسعار الألبسة والأقمشة مرتفع جدا فى الجزائر على ماهو عليه بالبلاد الشرقية العربية .

فانخفاض الأجور على هذه النسبة ، يجعل مقدرة الشراء عند العمال الفلاحين الجزائريين شبه المنعدمة ، ولا تمكنهم تلك الأجور المنخفضة إلا من حياة الشظف والحرمان وخاصة أن كل عامل يعول فى الأغلب عائلة كبيرة العدد ، وليس له فى عمله أى ضمان اجتماعى .

البطالة :

أن إبعاد الجزائريين عن الأرض ، وعن الوظائف الحكومية والإدارية ، وعدم وجود صناعة فى البلاد ، وتكاثر عددهم مع عدم توافر

أسباب الحياة ، أوجد بين أهل البلاد الجزائرية طبقة كثيفة من العمال العاطلين الذين يقضون حياتهم عبثا ، بل أن حياتهم تعتبر معجزة من معجزات العالم الحديث . كيف يعيشون ؟ لا يدرى أحد ! .

يوجد فى البلاد الجزائرية ، رسميا ، مليون رجل عاطل . أنهم لا يجدون أى عمل فى الأرض ، ولا فى الصناعة ولا فى التجارة ، وما كان من المتوقع أن تحدث السياسة الاستعمارية بالقطر الجزائرى غير هذه النتيجة .

فالعمال الذين يجدون مايعملونه فى الأرض ، يتناولون أجورا لاتكفى لسد الرمق . والعمال الذين لايجدون عملا ، يغدون ويروحون فى جوع وإملاق ، يرتدون اسمالاً بالية ، ويعيشون — إن صح التعبير — عالة على مجتمع معدم .

المسكن :

إذ كان الأوربيون كافة يسكنون الدور والقصور ، والمقاصف الجميلة فى المدن والقرى ، فأن الجزائريين المسلمين يتيهون فى البادية الجزائرية القاحلة على نسبة مريعة :

٢,٠٠٠,٠٠٠ من الجزائريين يسكنون المدن والقري .

٧,٠٠٠,٠٠٠ » » البادية .

وسكنى البادية : خيام من الصوف والوبر لأهل الوسط والجنوب . وقرابي (جمع قربى) لأهل الشمال . وهو بيت صغير من قش وطين

فيه حياة السقم والسكآبة . ثم مدائن القصدير الرهيبة ، على مقربة من المدن. يسكنها أهل البادية الذين أضناهم الجوع وحطمهم الاهمال ، فيؤمون ساحات المدن جريا وراء لقمة العيش ، ولو على طريق التسول والتقاط فضلات المزابل ، (وهو منظر مألوف جدا فى مدننا الجميلة الآهلة !)

ومدينة القصدير هذه تجمع مئات الالآف من الناس ، يسكن كل عائلة منها (بمعدل ٥ نفوس فى العائلة) بيتا شيدت جدرانه وسقفه من بقايا صفائح القصدير تجمع إلى بعضها بأخشاب بالية ومسامير ، ولايتجاوز مساحة البيت منها ستة أمتار (أى نحو ٢ × ٣ = ٦) فهنالك فى ذلك القبر الجماعى ، حيث يحسد الأحياء الأموات على قبورهم الانفرادية ، تتكدس أفراد العائلة رجالا ونساء . هنالك يحيون حياة الهم ، وهنالك يموتون موت الغم .

أما فى المدن نفسها ، حيث تتكدس جموع العمال طلبا للرزق ، فقد ضاقت المنازل بسكانها ، وأصبحت الغرفة الواحدة تقسم على عائلتين أو أكثر ، ويدفع المساكين مقابلها أجورا مرتفعة جدا .

المرض :

ليس المعجب ، تجاه هذه الحالة ، أن تكون أغلب الأمة الجزائرية فى حالة مرض مزمن ، بل العجب كل العجب أنها لم تهلك تماما ، ضحية الجوع والمهانة ، وسكنى القبور القذرة ، وقضاء الحياة بين أحضان اليأس والشقاء

الأمة الجزائرية مريضة ، والموت يحصد بين صفوفها حصاداً ذريعاً .
فبينما نجد فى الاحصاء الرسمى أن معدل حياة الأوربى فى قطر الجزائر هو ٧٢ عاما ، ونصف عام ، نجد معدل حياة الجزائرى لا تتجاوز ٥٠ سنة .

لقد اثبت الاحصاء أن معدل الكالوريات (وحدة الحرارة الغذائية) التى يتناولها الأوربى هى ٣٠٠٠ كالورية فى اليوم الواحد . أما بالنسبة للمسلمين فمعدلها لا يتجاوز ١٥٠٠ كالورية يومياً . (٢٠٠٠ فى المدن و ١٠٠٠ فى البادية) .

فرض السل ضارب أطنابه فى البادية والقرى ومساكن العمال فى المدن بصفة مريعة ، وقد قال أحد الأطباء الاخصائيين الاداريين عن ذلك « أن قطر الجزائر بملايينه العشرة من السكان ، يحتوى على نفس العدد من المسلولين الموجودين بفرنسا ذات الأربعين مليوناً » وعدد المسلولين بقطر الجزائر يناهز ٤٠٠٫٠٠٠ نسمة .

لكن بينما يوجد فى فرنسا ٩٠٠ مستوصف صحى لأمراض السل ، لا يوجد بأرض الجزائر إلا ٢٨ فقط . أو ليس المرضى من الجزائريين خاصة؟

أما أمراض العيون الفتاكة ، فهى تذهب كل سنة بأبصار نحو الثمانين ألفاً من السكان المسلمين . ولا توجد فى قطر الجزائر إلا مصحة واحدة أنشئت حديثاً لمعالجة العيون ، وست سيارات كبيرة متجولة .

فى قطر الجزائر كله ، توجد مستشفيات بها ٢٥٫٦٠٠ سرير ، لا تكاد تكفى للسكان الأوربيين خاصة ، ولا يوجد منها ، بكامل جهات الجنوب إلا ٦٠٠ سرير فقط .

وليس فى قطر الجزائر إلا ١٨٥٠ من الأطباء ، يستقرون بالمدن والقرى الكبيرة[1] . أما القرى الجزائرية حيث لا استعمار ، والبادية ، فليس بها من طبيب ولا قابلة ، ولا صيدلى ولا أية وسيلة من وسائل الصحة .

وما قيل عن الأطباء يقال عن ٦٦٠ قابلة مولدة ، و٦١١ صيدلى ، و٤٦٢ طبيب أسنان .

الهجرة .

أن البطالة من جهة ، وانخفاض الأجور من جهة أخرى ، جعلا الأيدى العاملة الجزائرية تبحث عن ميادين للعمل ، كيلا تموت البلاد جوعا .

وإذ كانت فرنسا تجند الجزائريين اجباريا ، للعمل فى صفوف الجيش الفرنسى ، والقتال فى سبيل الصالح الفرنسى منذ عشرات السنين (حروب ، ١٨٧٠ — التونكان والأنام — ١٩١٤ إلى ١٩١٨ — الحرب العالمية الأخيرة) فإن غالبية الرجال الجزائريين قد عرفوا البلاد الفرنسية ، واختلطوا بأهلها ، ودرسوا حالتها ، وعلموا أنهم يستطيعون أن يعملوا فيها ، فى ميادين الصناعة واستثمار المناجم وغيرها ، نظراً لقلة اليد العاملة الفرنسية ، والفراغ العظيم الذى أحدثته الحروب فى صفوف الشبان . وهكذا اضطر الجزائريون للهجرة ، كما اضطرت فرنسا لقبول سيل من العمال الجزائريين فى معاملها ومناجمها ، وإن كان المستعمرون

(١) منهم ١١٥٤ بمدن الجزائر — ووهران — وقسطنطينة .

الفرنسيون وانصارهم قد احتجوا وما زالوا يحتجون على ذلك حتى قيام الثورة ، لأن هجرة الجزائرى إلى فرنســا تعود بالضرر العظيم على الاستعمار ، وذلك :

أولا : لأن اليد العاملة الرخيصة الجزائرية تقل فى البلاد .

ثانياً : تعود العمال الجزائريون تقاضى الأجور المرتفعة فى معامل فرنسا ، فلا يرضون عند عودتهم للجزائر بالأجور الضعيفة .

ثالثاً : أن وجودهم بفرنسا يجعلهم يرسلون أموالا طائلة لأهلهم وأولادهم ، وهذا ما يقلل من تهافت اليد العاملة الجزائرية على العمل عند المستعمرين ، دون تقاضى الحد الأدنى للأجور ، كما يقع غالباً .

رابعاً : أن وجود العمال الجزائريين المسلمين بفرنسا ، يحرم اليد العاملة اللاتنية (الإيطالية — والاسبانية) من القــدوم لفرنسا ، للعمل ، ثم للاستقرار وتعمير البلادِ الفرنسية بجموع مسيحية أوربية جديدة ، حيث عجز الفرنسيين عن تعميرها .

فبعد محاولات عديدة ، وبعد صدور قوانين متعاكسة فى الموضوع ، تمــكن الجزائريون من ارسال نحو الأربعمائة ألف رجل من رجالهم الأشداء للعمل فى المعامل الفرنسية ، وأكثرهم يسافر عن غير استعداد ، وليس له أدنى تخصص ، إنما هو يعلم أن تلك الهجرة تنجيه من خطر الموت جوعا فى بلاده التى ليس له فى أرضها ولا فى اقتصادها أى حظ .

فنحو النصف من هؤلاء العمال ، يشتغلون شغلا عاديا بأجور معقولة ، تسمح لهم بانفاق جزء منها على عائلاتهم الباقية بقطر الجزائر ، أما النصف الآخر فأغلبه يقبل العمل بأى أجرة كانت ، وأقله يلقى هنـــالك البطالة وآفاتها .

ولقد اضطر بعضهم لتزوج فرنسيات ، وأنجبوا أبناء فرنسيين . وقد سببت هذه الهجرة إلى جانب منفعتها الاقتصادية ، كارثات أخلاقية عديدة ، أهمها انغماس الكثير من المهاجرين فى مهاوى السقوط الاجتماعى الفرنسى ، مثل تعاطى المسكرات ، والاقدام على موبقات الفجور ، وتفشى الأمراض الزهرية وداء السل فيهم ، وانقطاع الصلة أحيانا بينهم وبين ذويهم ، وبعبارة أخرى انحطاطهم صحياً وأخلاقيا ودينياً ، فلولا المساعى الجبارة التى قامت بها الأحزاب الوطنية الجزائرية فى الميدان السياسى ، وجمعية العلماء الجزائريين ، فى الميدان الدينى والثقافى ، لكانت الأمة الجزائرية قد نكبت — مقابل لقمة خبز — فى القوة الحية من أبنائها العاملين بفرنسا .

لكن الغالبية العظمى من هؤلاء الذين أجبرهم الاستعمار على الخروج من ديارهم فراراً من الموت ، لا تزال والحمد لله جزائرية ديناً وعقيدة وإيماناً وستكون بحول الله النواة الأولى لبناء النهضة الاقتصادية الجزائرية الحرة .

وقد حاولت الجموع الكبيرة من هؤلاء المهاجرين الرجوع للبلاد الجزائرية أيام الثورة فحالت الإدارة الفرنسية بينهم وبين ذلك ، خشية انضمامهم إلى جانب أخوانهم الثائرين الأحرار .

— ٧ —

القضـــاء

هل يعلم عربى فى دنيا العروبة ، أن القضاء فى قطر الجزائر ، العربى المسلم ، قضاء فرنسى كله ؟ وأن أهل البلاد ليست لهم أدنى مشاركة فيه ؟ .

فهنالك فى أعلى سلم القضاء بقطر الجزائر ، محكمة استئناف عليا . وليس للجزائرى فيها من نصيب

وهناك ١٧ محـكمة جنائية . لا مسلم جزائرى بها .

« ١٧ « ابتدائية ، يشارك أثنان فقط من الجزائريين فيها .

وهنالك ١١٣ قضوية صلح ، لا يشارك فيها المسلمون .

إنما يتقاضى المسلمون أمامها جميعاً ، فهم من الناحية القضائية ، كما هم فى النواحى الأخرى يعيشون غرباء فى بلادهم .

أما القضاء الشرعى الإسلامى ، فقد حطمه الاستعمار تحطيما ، ولم يبق منه إلا سورة مشوهة بشعة ، يخجل منها الإسلام . ولا أرانى فى حاجة إلى الاطناب فى ذكر هذه الفضيحة القومية التى أرادها لنا الاستعمار ، إنما أرجو القارىء العربى أن لا يتصور أصلا أن القاضى فى القطر الجزائرى المنكوب بالاستعمار ، هو « القاضى » الموجود فى البلاد الإسلامية الأخرى .

فالقاضى المسلم الجزائرى المتخرج من المدرسة الحكومية الجزائرية هو موظف فرنسي، يحكم بين المسلمين فى أمور الزواج والطلاق والحضانة والواريث ، أى ما يتعلق بالحالة الشخصية الاسلامية ، إنما أحكامه تعتبر كلها ابتدائية ، والمتقاضين استئنافها للمحاكم الفرنسية التى يكون لها القول الفصل فى الموضوع .

أما فى البلاد القبائلية التى طالما حاولت فرنسا بصفة إجرامية فصلها عن الإسلام ، فالقضاء « الإسلامى » يعتمد هنا لك ، منذ سنة ١٨٧٤ ، على العرف والتقاليد القبلية ، أكثر مما يعتمد على الفقه الإسلامى ، وذلك جرياً وراء تلك السياسة الخرافية التى ترمى إلى الفصل بين العربى والبربرى وقد خلقهما الله أخوانا ، ووحد بين قلوبهم الاسلام ، وربطت بينهم أوشاج العروبة ، وأندمجا فى الوطنية أندماجا لا تنفصم عراه .

فالقضاء فى القطر الجزائرى مصيبة من أعظم المصائب الاستعمارية التى نكبت بها البلاد .

— ٨ —

سياسة التجهيل

لم تكن الأمية سائدة فى الأوساط الجزائرية ، قبل مصيبة الاحتلال سنة ١٨٣٠ فكانت الكتاتيب (٣٠٠٠) وكانت المساجد والزوايا تقوم بمهمتها فى تعليم الأمة وتنشئتها النشئة العربية الدينية الصالحة .

فالاستعمار قد حطم فى أول ماحطم كل الكتاتيب القرآنية ، وألغى وحجر التعليم فى المساجد التى دمر وهدم أكثرها [١] ، ثم هو لم يعوض ذلك بشيىء آخر ، لأنه يعلم أن الأمة أن علمت قاومت الاستعمار ، ولم ترضخ لقيوده ، وسعت السعى الحثيث للتخلص منه .

فسياسة « التجهيل » كانت إلى جانب سياسة « التفقير » شعار الاستعمار الفرنسى فى قطر الجزائر ، والقانون الذى سار عليه ، منذ يومه الأول إلى يوم قيام الثورة الكبرى التى ستتبدل بها الأرض غير الأرض ، بمشيئة الله وإرادة الشعب .

فالحكومة الاستعمارية قد تجاهلت فى أول أمرها قضية التعليم ، ولم تكن مشتغلة إلا بافناء العنصر الجزائرى ، وتحطيم قواه وإخماد حركاته ، فما كاد ينتهى ذلك الدور الأحمر الفظيع ، حتى كانت البلاد قد فرغت من العلم بصفة تكاد تكون مطلقة ، وأصبح الناس يتعلمون سراً فى ديارهم كأنهم يرتكبون جريمة .

ثم أخذت الحكومة الاستعمارية تفتح أبواب المدارس شيئا فشيئا أمام أبناء الجزائريين ، منذ سنة ١٨٨٣ ، لكن التعليم كان — ولا يزال —

(١) كان بمدينة الجزائر وحدها قبل الاحتلال ١١٢ مسجداً . لم يبق منها إلا ٥ فقط . أما الباقى فقد هدم تهديماً ، وحول أثنان من أكبرها إلى كنائس مسيحية ، منها مسجد كتشاوة الذى أصبح كاتدرائية ، ومسجد على بتشنى الذى أصبح « قديسة الانتصار » .

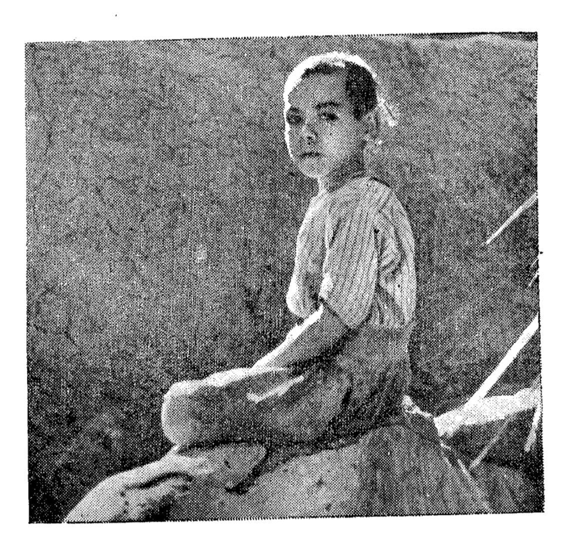
فرنسيا بحتا ، لا عربيا ولا جزائريا ، فاللغة الفرنسية فيه هى لغة الوطن » وبلاد فرنسا فيه هى الوطن ، وتاريخ فرنسا فيه هو تاريخ الوطن وهكذا ...

إنما كان من نتيجة الوعى القومى الجزائرى الذى أخذ يكبس على الحكومة كبسا عنيفا منذ أوائل القرن العشرين ، أن نشطت حركة بناء المدارس وفتح أبوابها أمام أبناء البلاد ، ببرنامجها الفرنسى البحت ، ولم يكن القصد منها يومئذ الاستجابة لصوت الأمة ، ولا مسايرة النهضة العالمية التى كادت تقضى على الأمية فى سائر جهات الأرض ، بل كان القصد منها ، حسب اعتراف كبار رجال السياسة والأساتذة ، تقريب الجزائريين من فرنسا بواسطة تعليمهم لغة الدولة المحتلة ، وآدابها وعلومها ، حتى يسهل ابتلاعهم ، ويسهل إدماجهم . لذلك كانت اللغة العربية — ولا تزال — محجرة فى كل المدارس الابتدائية الفرنسية . أما فى المدارس الثانوية والعليا ، فهى اختيارية كلغة « أجنبية » .

فمأساة التعليم فى بلادنا الجزائرية ، تساوى فى هولها وفى فظاعتها مأساة الأرض ، فهذه حرمت على أبنائنا حياتهم المادية ، وتلك حالت بينهم وبين النور ، والحياة الإنسانية الفاضلة .

فالمدارس الابتدائية الفرنسية فى قطر الجزائر تأوى سائر أبناء الأوربيين واليهود على الإطلاق ، أى نحو ١٥٠,٠٠٠ تلميذ ، سنة ١٩٥٥ ، ولا يجد مقعدا فيها إلا نحو ٢٠٠,٠٠٠ من الجزائريين : ليس إلا . فأبنــــاؤنا ، ويا للفظاعة ، ويا للدناءة ، محكوم عليهم من الاستعمار ، فى عصر العلم

وانفجار الذرة ، بالتسكع فى الطرقات ، والنشأة فى الظلمات ، ليكونوا طول حياتهم مطية ذلولا للاستعمار ، يعملون مع السائمة لجر محاريثه ، وخدمة الدنیء من مآربه .



(شكل ٢٨)

يريدون له حياة الجهل والشقاء وتريد الثورة له حياة العلم والعمل والحرية

فنحو المليونين إثنين من أبناء المسلمين الجزائريين ، لا يجدون إلى يومنا هذا مقعداً أى مقعد فى أى مدرسة ابتدائية !.

وتنحدر نسبة التعلم للمسلمين بارتفاع درجة التعليم .

فالتعليم الثانوى بقطر الجزائر ، وهو فرنسى كله ، يزاول فى ٤٩ مدرسة ثانوية من درجة « ليسى » أو « كوليج » وهو يشمل :

٣٤,٨٦٨ تلميذاً بين فتيان وفتيات ، منهم ٥,٣٠٠ فقط من فتيان الجزائريين ، و ٩٥٢ من فتياتهم .

وإذا ازددت صعودا فى سلم التعليم العالى ، رأيت الهوة السحيقة التى يرسب فيها أبناء الجزائريين :

فمن بين ٥١٤٦ طالباً فى كليات الجامعة الجزائرية ، لا يوجد يوم إعلان الثورة الكبرى إلا ٥٥٧ طالباً ليس إلا .. أما توزيعهم فهكذا :

الحقوق	١٥٢٨	أوربى	١٧٩	جزائرى
الطب	٧١٤	»	١١٠	»
الصيدلة	٣٦٩	»	٣٤	»
الآداب	١١٥٧	»	١٧٢	»
العلوم	٧٦٢	»	٦٢	»

وهكذا يوجد طالب واحد لكل ٢٢٧ نسمة من الأوربيين بينما لا يوجد إلا طالب واحد لكل ١٥,٥٠٠ من المسلمين ...

فالفقر المدقع من جهة ، وسياسة التميز العنصرى البشعة من جهة أخرى ، وسد أبواب الوظائف فى وجه المسلمين ، واشتراط الجنسية الفرنسية لغشيان بعض المعاهد العليا فى فرنسا ، كل ذلك كان حائلا بين المسلمين وبين مقاعد الجامعات .

أما العربية ، ويحتاجها النظام الاستعمارى حاجة قليلة ، لايجاد طبقة القضاة وأعوانهم والتراجمة ، فقد أنشأت لها الحكومة مدرستين ثانويتين — بتلمسان وقسنطينة — ومدرسة عليا بمدينة الجزائر ، تدعى « الليسات — الفرنسية الإسلامية » يتلقى فيها نحو ١٥٠٠ طالب من المسلمين ، تعليما عاليا فى اللغتين الفرنسية ، ثم العربية .

هذا مايمكن أن نقدمه بغاية الإيجاز عن التعليم الرسمى الحكومى بقطر الجزائر ، وهو يرمى ، كما رأيت ، لتعليم كل الأوربيين وتجهيل أكثر مايمكن تجهيله من الجزائريين .

التعليم الحر

لكن الأمة الجزائرية لم تقف موقف الخائر القوى أمام هذه الضربة الاستعمارية الكبرى ، بل أقدمت بجهودها الخاصة الضئيلة ، على إنشاء المدارس العربية الإسلامية الحرة ، وشادت منها مايزيد عن ١٧٠ مدرسة ، يتراوح عدد فصول المدرسة منها بين ٢ و ٧ • وقد تباهت الأمة — على فقرها المدقع — فى بناء تلك المدارس ، تحت أشراف ورقابة جمعية العلماء

المسلمين الجزائريين ، فكان منها مابلغت تكاليف بنائه ١٥ أو ٢٠ مليوناً من الفرنكات . (١٥ أو ٢٠ ألف جنيه مصرى) .

فهذه المدارس الابتدائية التى تعنى بها جمعية العلماء بصفة خاصة ، وتسطر برامجها وتعين لها قرابة السبعمائة من الشيوخ والمعلمين ، قد تمكنت خلال العشرين سنة الأخيرة من تكوين نخبة عربية اسلامية بالقطر الجزائرى ، وقد تخرج منها منذ تكوينها ما يزيد عن المائة والخمسين ألفا من الفتيان الفتيات. وعدد تلاميذها من بنين وبنات كان يشمل يوم اعلان الثورة الكبرى نحو الخمسين الفا . وكل هذه المدارس محارب من الإدارة الاستعمارية محاربة سافرة ، فهى أن تغافلت عنها فى جهة ، فإنها تضربها فى جهات أخرى ضربات قاسية . وطالما أوصدت أبواب المدارس دون شفقة ، وطالما صدرت على الشيوخ والمعلمين الأحكام القاسية بالسجن والتغريم الفادح ، وطالما نالها من الاضطهاد ما لا يكاد يتصوره العقل ، إلى أن كانت الثورة ، فبطشت الحكومة البطشة الكبرى بهذه المدارس .

ثم أسست جمعية العلماء — بأموال الأمة الفقيرة المعدمة — معهد « عبد الحميد ابن باديس » التكميلى ، ليكون همزة الوصل بين مدارسنا الابتدائية العربية الحرة ، والمعاهد العليا بتونس وبالشرق . وجهزت له « دار التلميذ » التى بلغت تكاليفها ما يزيد عن ٥٠ مليوناً من الفرنكات (٥٠ ألف جنيه) وهى مؤسسة داخلية على أحدث طراز عصرى . يجد بها نحو الألف طالب المأوى والطعام وكل وسائل الراحة ، فيقدمون على التعليم بحمية وإيمان .

أما الذين يتخرجون من هذا المعهد التكميلى ، فيسيرون لاستكمال معلوماتهم العليا بالجامعة الزيتونية فى تونس ، أو يرسلون بعثات للجامعات الشرقية الكبرى ، فى مصر ، والعراق ، وسوريا ، والكويت ، والعربية السعودية ، وعددهم فى جميعها اليوم نحو الثلاثمائة طالب : ورغم عناية الحكومات العربية بهم عناية مختلفة النسبة ، فأكثرهم يقاسى آلام الفقر، ومنهم من يبيت الليالى على الطوى ، لأن المقدار الزهيد الذى يتناولونه من بعض الجهات الرسمية لا يكفيهم أصلاً للمأكل والملبس والمسكن . وقد انقطعت الصلة بينهم وبين ذويهم فى قطر الجزائر منذ قيام الثورة الكبرى، ثم إن جمعية العلماء لا تستطيع أن تمدهم — فى حالتها الحاضرة — إلا بالتافه الزهيد ، فحالتهم اليوم ضنكى مؤلمة ، تدعو للأسى .

وأرجو ، وقد كشفت الستار عن حالتهم البائسة فى هذه الرسالة الموجهة للعالم العربى كافة ، أن تلتفت كل حكومة عربية —وخاصة حكومة مصر — ان عندها من أبناء الجـــزائر المغتربين جهاداً فى سبيل إحياء العربية والإسلام بقطر دمره الاستعمار تدميراً ، فتقوم نحوهم بالواجب الحقيقى الذى يفرضه الإسلام وتأمر به أوشاج العروبة .

التعليم الفنى

هناك فى قطر الجزائر مدرسة للتعليم الفنى الزراعى ببلدة الحراش ، على مقربة من عاصمة الجزائر يغشاها ٣٨١ تلميذاً ، من بينهم ٧٥ فقط من المسلمين

أما التعليم الصناعى والتعليم التجارى ، فلهما كذلك بعض مدارس قليلة ، والعنصر الجزائرى يكاد يكون مفقوداً فيها .

هذه صورة الكارثة العلمية فى قطر الجزائر ، وهى كارثة لا مثيل لها على ما نعتقد ، فى أى قطر آخر . وبهذه السياسة « التجهيلية » الفاضحة ، حكم الاستعمار الفرنسى على نفسه حكما صارماً ، يسجل عليه الخزى والعار ، إلى الأبد . .

— ٩ —

الدين الإسلامى

هل يعرف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، أن الدين الإسلامى فى قطر الجزائر ، غريب فى داره ، ممتهن بين أهله وذويه ، منكوب فى أوقافه ومساجده ومؤسساته ، وأنه يعتبر «ملكا» خاصاً من «ممتلكات» الدولة الإستعمارية ، تتصرف فيه كما تشاء ؟

هذا مالا يعلمه الكثير من الناس ، وهذا ما يوشك أن لا يصدقه الكثير من الناس ، لكن هذا هو الحق الصراح ، دون مبالغة أو تهويل

إن أول ضربة ضربها الاستعمار فى قطر الجزائر ، بعد تقويض أسس الدولة الجزائرية ، هى تلك الضربة التى ألحق بها الأوقاف الإسلامية بممتلكات الدولة سنة ١٨٣٠ . فكل المساجد الإسلامية والمؤسسات الإسلامية ، قد أصبحت من ممتلكات الدولة الفرنسية الخاصة ، تفعل بها

ما تشاء ، فهدمت منها على هذه القاعدة ما هدمت ، ثم هى « تسمح » للمسلمين ، بإقامة شعائر دينهم فى البقية الباقية منها ، إنما لا يقع ذلك — وافقهوا جيداً لهذا — إلا بواسطة موظفيها ، ورجالها ، ومن ينتدبهم الإستعمار للقيام بها .

فرجال الإفتاء ، وأئمة المساجد ، وسدنتها ، وقراء القرآن فيها ، ومؤذنوها ، كل أولئك من الوظفين الذين يتقاضون أجورهم من الخزينة الفرنسية ،ولا يتسلمون وظائفهم إلا متى قدموا للاستعمار ما يوجب رضاه ، ولا يبقون بها إلا ماداموا عاملين على مرضاته .

قال أحد أكابر موظفى الولاية العامة الجزائرية ، وهو مسيو برك فى مقال نشر بعد موته ما نصه :

« لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الإسلامى ، إلى درجة أننا أصبحنا لانسمح بتسمية المفتى أو الامام ، إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس ، ولا يمكن لوظف دينى أن ينال أى رقى ، إلا إذا ما أظهر للأدارة الفرنسية أخلاصا منقطع النظير . »

وأرى أن كل كلمة تضاف على هذه الجملة التصويرية البليغة ، إنما تنقص من قيمتها . ولقد طالب المسلمون جميعا ، وعلى رأسهم جمعية العلماءالمسلمين الجزائريين تنفيذ نفس القوانين الفرنسية ، مثل قانون ١٩٠٥ الذى يقتضى فصل الدين عن الدولة ، وقيام كل طائفة دينية بأمور دينها باستقلال . لكن، بينما يستقل النصارى واليهود بأمر دينهم منذ ذلك العهد ، رأينا الاستعمار

الفرنسي يرفض رفضا باتا ، إلى يوم إعلان الثورة ، ورغم كل القوانين والوعود ، ارجاع الدين الإسلامى ، بمساجده وأوقافه وموظفيه إلى جماعة المسلمين ، حتى اضطر المسلمون لمقاطعة المساجد الحكومية الفرنسية ، وأخذوا يؤسسون لانفسهم مساجد « حرة » قامت الامة بنفقات بنائها الضخمة ، وهى تتعهدها وترعاها ، بما يجب لمساجد الإسلام من رعاية واحترام ، ومنها مساجد فخمة ، تعد من تحف الفن المعمارى الإسلامى ، وبلغت تكاليف بعضها نحو ٥٠ مليون فرنكا (٥٠ ألف جنيه) .

وهكذا قاومت الامة الاستعمار فى المضمار العلمى ، وفى الميدان الدينى ، كما قاومته فى حلبة السياسة . إلى أن وقعت الثوره الكبرى ، التى سيحق الله بها الحق ، ويبطل بها الباطل ، أن الباطل كان زهوقا .

المعجزة النفسية :

لو أن مجموعة هذه المصائب السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية ، والدينية ، كانت قد أصابت أمة أخرى من أمم العالم ، لأحدثت فيها دون ريب ما يسمى فى علم الاجتماع بعقدة النقص ، ولرمت بها بين احضان اليأس والموت .

لكن كل هذه المصائب مجتمعة لم تستطع أن تقتلع من هذه الأمة الجزائرية الأبية ، ماعندها من « مركب الكمال » فالجزائرى الجائع ، المريض ، البطال ، المعترى ، الأمى ، الذى لا يرى أمام وجهه بابا من ابواب الأمل ،

والذى لا يجابه فى حياته إلا الأعداء الذين يريدون موته ومحقه وافناءه ، ذلك الجزائرى لم ييأس يوما ، ولم يضعف يوما ، ولم يضع أنفه فى الرغام يوما ، بل تعتقد العامة منه كما تعتقد الخاصة ، أنه إنما يقاسى محنة عارضة ، وأن هذا الظلم العارم المنصب عليه ماهو إلا سحابة صيف ، وأن له مستقبلا زاهرا ، يعيد فيه مجد اسلافه ، ويحيا من جديد فى ارضه حرا عزيزا سعيداً . فالجزائرى فقد كل شىء ، إلا الأمل ، وانتزع منه كل شىء ، إلا الايمان ، وحطمت كل قواه ، إلا قوة النفس .

وهذا مثل تضربه الجزائر ، فى العزيمة والصبر والجلد وطول الاناة ، وقد برهنت بثورتها الأخيرة الجامحة على أنها تمهل الظالم ، حتى إذا أخذته لم تفلته .

المقاومة

المقاومة الحربية

يقول قائل : وكيف كان موقف الأمة الجزائرية ، الأبية ، تجاه هذا مدوان الصارخ ، وأمام هذه المنكرات الاستعمارية التى لم يسجل لها تاريخ مثيلا ؟ وهل سلمت الأمة طوعا أعناقها لجلاديها ، وهل استكانت ذلت ، فلم تبد مقاومة لما كانوا يعملون ؟ .

كلا ! إن المقاومة الجزائرية الصلبة العنيفة قد استقرت فى كل ميدان ، نذ سقوط السيف من يدها وهى مثخنة بالجراح ، فكانت مقاومتها ستمرة تكتسى مرة صبغة الثورة المسلحة العنيفة ، وتكسى مرة أخرى بغة الكفاح السياسى المرير .

الزعاطشة :

فما لأحد أن ينسى مثلا تلك المقاومة الصارمة التى وقعت ببلاد الجنوب لجزائرى ، وخاصة بواحة « الزعاطشة » الشهيرة ، التى هبت للدفاع عن كرامة والحياة الحرة ، تحت قيادة الزعيم الشهيد الأبر ، السيد أبو زيان ، سنة ١٨٥٢ .

فهاجمت القوى الفرنسية تلك الجهة الزاخرة بالحياة ، واستمرت الحرب بين الجانبين أمداً طويلا ، إلى أن تغلبت الكثرة والأسلحة الحديثة ، على القلة والوسائل الضعيفة ، فأعمل الفرنسيون السيف في رقاب أهل الواحة وما حولها وذبحوا كل ذى كبد حراء فيها ، إنساناً كان أو حيواناً ، ولم يرحموا طفلا ولم يشفقوا على امرأة أو شيخ ، فلما انقضى أمر السكان جميعاً ، حول الفرنسيون نقمتهم إلى المساكن والديار ، والأشجار ، فأعدموها تماماً ؛ ولم يبقوا بالواحة حجراً على حجر ، ثم هم لم يسمحوا من بعد أن تقا في هاتيك الجهة واحة أخرى على أنقاض الواحة القديمة .

ولذكرى هذا النصر العظيم ، نصر الخسة والدناءة والنذالة ، اطلقو اسم هذه الواحة الشهيرة على طريق من طرقات الجزائر العاصمة . أم الزعيم أبو زيان فقد أعدموه رمياً بالرصاص .

وفى نفس تلك السنة ، أعلنت مدينة الأغواط فى الجنوب الجزائر المقاومة لما يراد بها ، فسارت إليها الفرق الفرنسية بمدافعها ، وأصلتم نيراناً حامية ، ثم هاجمتها وفعلت بها الأفاعيل ، فمات أكثر سكانها تحت حد السيف وبين ألسنة اللهيب ، وخرب أكثر عمرانها ، لكنها تمكنت فيما بعد من تضميد جراحها شيئاً فشيئاً .

أولاد سيدى الشيخ :

وما رضخ العربى يوماً لضيم ، وما استسلم المسلم يوما لذلة وهوان

ورغم أن حوادث الزعاطشة ، والأغواط ، قد سارت بذكرها الركبان ، وأدمت قلوب القاصي والدان ، فإن الجزائريين الباسلين قد صمموا على الانتقاض والثورة ، ماوجدوا للانتقاض والثورة سبيلا. ففي سنة ١٨٦٤، نادى بالجهاد بطل من أبطال الجنوب الغربي ، الباش أغا سليمان بن حمزه بن بوبكر ، والتفت حوله قبائل « أولاد سيدى الشيخ » وأصلوا الفرنسيين نيراناً حامية ، فارتدوا على أعقابهم ، ثم أعادوا الكرة تحت قيادة الكولونيل بوبيرتى ، وكان من بينهم جماعة من « القوم » أى الجند العربى المتطوع مع فرنسا ، وما كادت المعركة تلتهب وتشتد ، ويستبسل العرب الأمجاد في ميدان العزة والشرف ، حتى أخذت الحمية ، حمية الإسلام لا حمية الجاهلية ، جماعة « القوم » فانتقضوا على الفرنسيين ، وانضموا للمجاهدين ، وكانت نتيجة المعركة موت سائر رجال الفرقة الفرنسية المعتدية ، بما فيها من الكولونيل قائدها . وقد تمكن البطل سليمان بن حمزة من قتله بيده أثناء المعركة ، ثم استشهد بعد ذلك خلالها رحمه الله .

واستمرت الحرب بعد ذلك النصر العظيم ، وانتشرت في الجبال الجنوبية كلها ، ودامت خمسة أعوام كاملة . إلى أن جردت عليها فرنسا جندا عرمرما زودته بسلاح فتاك ، وتوالت الوقائع ، وتتابعت أعمال الفرنسيين التنكيلية الفظيعة ، إلى أن تمكنوا من التغلب على تلك الثورة في آخر معقل من معاقلها الذي كان جبال عمور ، سنة ١٨٦٩ .

ثورة الجرجرة :

ما كادت فرنسا تنهار ، فى مذلة وصغار ، أمام الجند الألمانى سنة ١٨٧١ حتى هبت جبال الجرجرة الأبية ، معقل الهمة والشرف ، ترفع لواء الثورة القومية الكبرى ، سعيا وراء التخلص من الاحتلال ، وارجاع عهد الاستقلال .

ولقد تولى كبر الثورة الباش آغا السيد الحاج محمد المقرانى ، وشد أزره وأعانه على جمع المسلمين تحت راية الجهاد ، الشيخ محمد بن الحداد ، وسارت جموع الثائرين تحطم مراكز الاستعمار الفرنسى ، فى الجهات الشاسعة الممتدة من بجاية على ساحل البحر شمالا ، إلى برج بوعريرج جنوبا ، ثم إلى ضواحى مدينة الجزائر غرباً .وأخذت الثورة تنتظم ، وأمرها يشتد، ودعوتها تنتشر ، إلى أن تمكنت فرنسا من استرجاع جندها الذى كان أسيرا فى المانيا ، فوجهته ضد الفرق الوطنية الثائرة . عندئذ وقعت معركة البويرة التى اندحر فيها الوطنيون بعد ثبات عجيب ، واستشهد فيها زعيم الثورة الوطنية الحاج محمد المقرانى رحمه الله .

إنما المجاهدون لم يلقوا السلاح بعد هذا الانكسار ، فانسحبوا إلى جبالهم المنيعة ، وتحصنوا فيها . لكن الجند الفرنسى أظهر أمامهم من شدة المراس مالم يبذل بعضه أمام الألمانيين ، وأخذ فى ارتكاب أعمال الخسة والحقارة ، من ذبح الجماعات البريئة ، وهتك الأعراض بصفة فاضحة دنيئة ، وتحطيم القرى واتلاف المزارع ، وأعدام الأقوات والمدخرات ، فمن لم يمت



(شكل ٢٩) المجاهد محمد المقرانى

بحد السيف ، مات جوعا ، أو تحت وقع الفضيحة ، في بلاد تتخذ من الشرف الإنساني مثلها الأعلى في الحياة . .

وهكذا استمرت المعارك ستة أشهر أخرى ، إلى أن احتل الاستعماريون الطغاة تلك المعاقل الطبيعية جبلا جبلا ، واستولوا على مداشرها قرية قرية، فأسفرت تلك المعارك العنيفة عن استشهاد مايزيد عن الستين ألفا من الاحرار الابرار ، وموت مايزيد عن العشرين ألفا من جنود الاستعمار .

ولقد قضى الاستعمار على ذلك الجبل الأشم ، جبل زواوة ، بالموت السريع ، إذ غرم أهله ، ٣٦ مليون فرنك ذهبا ، وحجز كامل الأرض الفلاحية (٥٠٠ الف هكتار) ووزعها على المستعمرين . ثم أصدر أحكام الأعدام ، على كل من شارك فى الثورة أو كانت له يد فيها. أما زعيم الثورة الذى خلف الشهيد المقرانى، وهو السيد أبومزراق ، والشيخ محمد بن الحداد، وولداه الشيخان محمد وعزيز ، وخمسمائة من وجوه القوم وكبراء البلاد ، فقد حكم عليهم بالأشغال المؤبدة وسارت بهم السفن إلى كاليدونيا الجديدة فى المحيط الهادى ، حيث ماتوا رحمهم الله موت الأباء والشرف .

البدوي :

فى نفس مدينة الجزائر ، وفى الجهات الممتدة غربها إلى بلدة شرشال ، قامت الثورة كذلك ، فى تلك الآونة ، إلا أنها لم تكن عنيفة قاسية ، وأعلن أحـــد رجال العاصمة المعدودين السيد محمد البدوى ، فى ساحة

الحكومة استقلال البلاد . وأخذ ومن معه يحاولون تنظيم الإدارة المستقلة الجديدة ، لكن الحركة أخفقت ، وأرسل الفرنسيون السيد البدوى إلى السجن المضيق يقضى به سبعة أعوام .

أوراس :

لم يستطع الأوراسيون الأحرار صبرا على احتلال الاستعمار الفرنسى لجبالهم الآهلة المنيعة ، وقراهم الجميلة ، فأعلنوا الثورة والانتقاض المرار العديدة ، وأهمها ثورة سنة ١٨٥٣ الكبرى ، وأرسلوا زهرة شبابهم وخير رجالهم ، يحاربون الفرنسيين ويحاولون إبعادهم عن الديار . فكانت الحرب سجالا ، وكانت الوقائع متوالية ، فما انتصر الفرنسيون مرة إلا أعاد الأوراسيون الأحرار الثورة مرة أخرى . إلى أن كانت الثورة الكبرى سنة ١٩٥٤ . فنحن نستطيع القول بأن الأوراس هو الجبل الذى لم يخضع أبدا .

المقاومة السياسية فى دورها الأول

اتخذت المقاومة الجزائرية السياسية أشكالا مختلفة ، منذ توطد قدم الاحتلال بالبلاد الساحلية إلى قيام الثورة الكبرى .

الهجرة :

كانت المظاهرات الأولى التى وقعت بعد إخفاق الثورات الكبرى ،

هى الهجرة الجزائرية للبلاد الإسلامية الحرة . فما كادت جموع الجزائريين تعتقد أنه قد حكم عليها بالحياة الشقية الذليلة تحت نير الاستعمار الفرنسى الفظيع ، حتى أخذت تغادر البلاد جماعات وآحادا فسار بعضها إلى تونس الخضراء ، وسار بعضها الآخر إلى الإسكندرية ، وبلاد الشام ، حيث قبلوا أحسن قبول على الرحب والسعة ، ووجدوا أن أخوة الأسلام ليست مجرد كلمة تقال .

ولا يزال أبناء هؤلاء المهاجرين يعمرون تلك الجهات كمواطنين صالحين . ثم أن فرنسا أعلنت سنة ١٩١٢ قانون التجنيد الإجبارى للمسلمين ، فازدادت هجرة الجزائريين إلى البلاد الإسلامية الأخرى ، كيلا يعملوا تحت الراية التى قاوموها عشرات السنين .

أول مقاومة قلمية :

ولا يسعنا إلا أن نسجل بمداد الشرف ، على صفحات التاريخ الجزائرى ، إسم الأستاذ الشهم الكريم ، السيد حمدان عثمان خوجة ، فلقد كان أول جزائرى رفع عقيرته بالاحتجاج الصارخ ، منذ فجر الاحتلال البغيض . فقد بعث به أهل مدينة الجزائر سنة ١٨٣٢ على رأس وفد يطالب حكومة فرنسا بالإقلاع عن مظالمها وآثامها ، وإرجاع ممتلكات المسلمين إليهم ، والاعتراف لهم بحق الحياة .

وقد ترك لنا هذا الشهم الكريم وثيقة من أغرب وأثرى وثائق

التاريخ الجزائرى الحديث ، إذ ألف كتابا ضخما أسماه « مرآة الأحوال » نقله إلى الفرنسية أحد مهرة اللبنانيين ، وطبع فى مجلد ضخم سنة ١٨٨٣ بمدينه باريس . ومما امتاز به هذا السفر الجليل :

أولا : اثباته إن عدد سكان القطر الجزائرى كان عند الاحتلال عشرة ملايين من النفوس (والسيد حمدان كان المدير الثانى لمصلحة الضرائب فى الحكومة الوطنية الجزائرية) .

ثانياً : أنه سجل أعمال اللصوصية والنهب التى قام بها الجند الفرنسى ، وصور أبشع صورة تلك المنكرات التى فعلها الأدنياء دون حياء أو رادع ، وأثبت بوثيقة فرنسية على يد محضر فرنسى ، أن الفرنسيين كانوا يسرقون عظام موتى المسلمين من المقابر الإسلامية، ويرسلون بها ضمن عظام الحيوانات لمعامل تكرير السكر بمرسيليا .

ثالثاً : بيانه عن الأملاك والأرزاق المصادرة ، والمظالم التى ارتكبها الطغاة أثناء الاحتلال . وحكاية ماراه المؤلف منها رأى العين .

وقد رجع السيد حمدان للجزائر خائباً ، بعد المجهود الضخم الذى بذله ، ولم يرجع الاستعمار عن غيه ، بل زاد فى طغيانه ، وبقى كتاب « المرآة » فى الخزائن العامة ، يشهد على الاستعمار ، بالخزى والعار .

الصحف الأولى :

كانت فرنسا قد أوجدت فى البلاد مجلس النيابات المالية عام ١٩٠١ ،

فاعترفت للجزائر (الفرنسية) بمبدأ الاستقلال المالى ، وكان ذلك المجلس يشمل الثلثين من الفرنسيين ، مقابل الثلث من الجزائريين ، الذين تتدخل الحكومة فى انتخابهم تدخلا فاضحاً .

لكن النهضة التركية ، والانقلاب العثمانى ، قد أحدثا تغييراً فى حالة البلاد المعنوية . وكان العدوان الطليانى على ولايتى طرابلس وبرقة ضغثاً على إبالة ، فأخذ المسلمون يتململون ويتذمرون ، ونشأت فى البلاد صحافة ضعيفة أخذت تعبر عن استياء الرأى العام الإسلامى من حالته الوضيعة .

وكانت البلاد تقاسى الأمرين من قانون الانديجينا « التدجين » الذى تنصب نقمته على المسلمين خاصة ، فمن لم يدفع منهم الضريبة يسجن ، ومن سكن فى جهة نائية يسجن ويحطم بيته ، ومن اجتمع مع إخوانه فكانوا فوق الخمسة عوقب بتهمة عقد اجتماع دون ترخيص ، ولا يسوغ الجزائرى أن ينتقل من بلدة إلى بلدة أخرى ، ولو كانت مجاورة له ، إلا بإذن خاص . أما القبائل الجزائرية كلها ، فى السهول وفى الجبال ، فقد كانت خاضعة لأحكام . « الضمان الجماعى » بحيث أن احترق غاب ، أو وقعت جناية ، فسائر أهل القبيلة مشتركون فى المسئولية ، وهكذا .

فالاساتذة المرحومون ، أحمد بن اسماعيل بوضربة ، والحاج عمار . والصادق دندان ، قد قاموا منذ سنة ١٩١٠ بتأسيس صحف وطنية ، تكتب باللسان الفرنسى ، وتدافع عن حقوق ورغائب المسلمين ، مثل صحيفة الهلال وصحيفة الرشيدى وغيرهما ، وأحدثت هذه الصحف رجة

عنيفة فى الافكار ، وأخذت المقاومة السياسية تشتد وتتصلب ، وأخذ الشبان المثقفون ثقافة فرنسية يشاركون فيها ، ويتقدمون إلى الامام .

الحرب الكبرى

جندت فرنسا من مسلمى الجزائر لمحاربة ألمانيا مايزيد عن الاربعمائة ألف رجل ، مات منهم فى ميدان الحرب مايزيد عن الثمانين ألفا .

وزيادة على ذلك العدد ، فقد جهزت فرنسا ثمانين ألفا من الجزائريين يعملون فى المعامل الحربية الفرنسية ، وفى المعامل المدنية .

وإذ كان الجزائريون يقومون بذلك المجهود الحربى العظيم — إجباريا — ، كانت النخبة منهم تطالب برفع المظالم ، وبالتسوية فى الحقوق ، وتندد بمساوىء النظام الاستعمارى ، واشتهر من تلك الطبقة أمثال المرحومين : عمر بوضربة ، وعباس حمانه ، الذى اغتاله الاستعمار غدرا ، ومحمد ابن رحال ، وإضرابهم ، ثم أصبحت القضية منتشرة فى فرنسا ، وقد تولى فيها النضال عن حقوق المسلمين رجال من أمثال المأسوف عليهما ، جون جوريس الزعيم الاشتراكى الكبير ، والبان روزى ، وغيرهما .

نالت الأمة الجزائرية مقابل كل جهودها ، ونضالها وعدا .. ينفذ بعد الحرب . على أن جبال أوراس لم تقنع بهذه المطالب وهذه الوعود ، فامتنعت عن تسليم أبنائها للجندية الفرنسية ، ونطق البارود من جديد بين الجانبين ،

بينما التجأ ما يزيد عن المائة ألف من شبان المسلمين إلى الغابات والجبال فرارا من العمل تحت راية فرنسا الاستعمارية .

المقاومة السياسية فى دورها الثانى

قوانين ٤ فيفرى سنة ١٩١٩ :

انتهت الحرب الكبرى ، ورأت فرنسا أن لا بد من عمل شىء للجزائريين ، من قبيل ذر الرماد فى العيون على الأقل ، فأصدرت قوانين ٤ فيفرى ، تلغى بها أكثر قوانين الأنديجينا السالفة الذكر ، وتسوى فيها بين سائر السكان من حيث الضرائب ، حيث كان الجزائريون يدفعون أكثر من الأوربيين ، وكانت عليهم إلى جانب ذلك ضرائب خاصة بهم . أما من ناحية الحقوق السياسية فقد اكتفت قوانين ٤ فيفرى بزيادة عدد الناخبين الجزائريين ، بعد ما كانوا فى دائرة خاصة ضيقة ، لا يشارك فيها إلا التجار وأصحاب الأملاك ، وخيبت هذه « الإصلاحات » آمال الجميع .

الأمير خالد الهاشمى :

ولأول مرة فى تاريخ الجزائر الحديث ، رأت الأمة زعيما سياسيا مقداما جريئا ، هو الأمير خالد بن محى الدين بن الأمير عبد القادر الجزائرى رحمه الله ، فقد كان هذا الأمير عمل برتبة ضابط كبير فى الجندية الفرنسية ، وشارك الفرنسيين حروبهم وآلامهم ، فما انتهت الحرب حتى شكل وفدا

لم ساحة فرساى ، حيث كان الرئيس الأميركى ولسون يحاول عبثا فرض بنوده التى نادى بها زمن الحرب، ومنها حرية سائر الأمم فى تقرير مصيرها. لكن سرعان ما علم الجزائريون — كما علم التونسيون — أن تلك المبادىء ما كانت فى نظر الأوربيين إلا خديعة حرب لا غير ، وأن المنتصر الحقيق فى الحرب العظمى الأولى انما هو الاستعمار والطغيان الأوربى ، فرجع الوفد الجزائرى ، خائبا ، وجمع الامير خالد هيئة سياسية أسماها « وحدة النواب المسلمين » وأسس لها صحيفة حرة اللهجة دعاها « الإقدام » فكان ينادى بوجوب « اصلاح » الحالة فى قطر الجزائر على قاعدة تسوية الجزائريين بالفرنسيين فى كل شىء ، ودخول الجزائريين لمجلس النواب الفرنسى ، وإلغاء سائر الأحكام الاستثنائية . والتف المسلمون حول الأمير خالد ورأوا فيه خير خلف لخير سلف. ثم أخذت الأيام تبدى من شدة شكيمة الجزائريين ومن صلابتهم فى الحق ، ما طال عليه عهد المستعمرين ، فتألبوا وتكالبوا، وقاموا فى البلاد الجزائرية وفى البلاد الفرنسية بحملات شعواء على المسلمين، ووقفوا صفا متينا ضد الحقوق التى يطلبونها ، واشتد ضغط المستعمرين لدرجة أن رأت فرنسا نفسها مضطرة لإرجاع قوانين الانديجيا من جديد ، وأخرجت الأمير خالد من أرض الجزائر . لكن ألسنة اللهيب كانت قد ارتفعت عالية ، فلم تخمد بعدها أبدا .

واستمر الجزائريون يطالبون بواسطة النواب وبواسطة الوفود ، بتحقيق برنامج الأمير خالد الذى أصبح هاتيك الاثناء ، وإلى ساعة قيام الحركات الوطنية الكبرى ، ميثاقا قوميا جزائريا ، لا تقوم حركة إلا على أساسه .

نجم شمال افريقيا :

رأت سنة ١٩٢٦ حادثين عظيمين ، كان لهما التأثير الأكبر على مستقبل القطر الجزائرى : أولهما تأسيس جمعية نجم شمال افريقيا فى باريس ، وثانيهما ، تأسيس « نادى الترقى » بعاصمة الجزائر .

أما جمعية نجم شمال افريقيا ، فقد ساهم فى تأسيسها ثم ترأسها السيد الأستاذ أحمد الحاج مصالى ، وآزرته جماعة من الشبان الأحرار الجزائريين والمراكشيين والتونسيين ونادت هذه الجمعية بمبدأ التحرير التام من الاستعمار الفرنسى ، وأعلنت حق شعوب المغرب العربى فى الاستقلال والحرية . ومنذ ذلك التاريخ ، لم تزدد دعوة الاستقلال إلا انتشارا وذيوعا ، حتى أصبحت العقيدة الملية للشعب ، وحتى أدت إلى الثورة الكبرى الحالية .

ورغم الاضطهاد العظيم الذى لقيته « جمعية نجم شمال افريقيا » فقد تمكنت من الحياة والاستمرار على كفاحها طوال ١٢ سنة ، فما حلتها الحكومة إلا سنة ١٩٣٧ يوم ٢٩ مارس .

وكانت جمعية نجم شمال افريقيا التى التف حولها أكثر العمال المسلمين الجزائريين بفرنسا ، تنادى بوجوب انتخاب برلمان قومى جزائرى ، وجعل الوظيفة العامة فى القطر الجزائرى مفتوحة أمام الجزائريين ، والاستقلال الكامل للبلاد الجزائرية ، وارجاع الأرض المغتصبة إلى الجزائريين ، ثم انسحاب جيش الاحتلال من القطر الجزائرى .

تلك هى الصرخة التى دوت فلم تخمد ، وذلك هو المشعل الذى ارتفع فلم يهمد .

نادى الترقى :

لم يكن الجزائريون يعرفون الاجتماعات منذ الاحتلال الفرنسى ، وكانت قوانين الانديجينا تحرم الاجتماعات كما أسلفنا ، فكانت كل الحركات الجزائرية تتسم بقلة النظام — داخل القطر الجزائرى — إلى أن وفقنا الله لوضع معقل بعاصمة القطر الجزائرى، كان له تأثيره العظيم على الحياتين السياسية والاجتماعية ، وذلك هو « نادى الترقى » الذى تمكنا من تأسيسه بعد جهود عظيمة ، فى أحسن موقع من عاصمة الجزائر . فكانت قاعاته الفسيحة تجمع النخبة المفكرة كلها ، سواء بالعاصمة أو بداخل البلاد ، وكانت المحاضرات والمسامرات والحفلات الكبرى تتوالى فيه ، ويقبل الناس عليها إقبالا عظيما . وكنا نسير بنادى الترقى — رغم القوانين الصارمة — فى طريق الدعوة الملية الوطنية من جهة ، وفى طريق الدعوة الإسلامية والعروبة الشاملة من جهة أخرى . وقاوم النادى نزعات الاندماج كما قاوم طلب الجنسية الفرنسية قصد الاحراز على الحقوق السياسة . وفى هذا النادى المبارك ، تمكنا من تحقيق الحلم الذى كان يراود دعاة النهضة العربية الإسلامية ، إلا وهو تأسيس هيئة إسلامية عربية ، تنهض بالبلاد نهضة جبارة ، داخل عروبتها وقوميتها وإسلامها ، فكانت « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » .

الاحتفال المئوى :

ولقد أعاننا على عملنا ، ومهد لنا السبيل ، تلك الأعياد الهوجاء التى أقامها الاستعمار سنة ١٩٣٠ ، احتفالا بمرور مائة عام على احتلال القطر الجزائرى . فلم يبق هنالك من جزائرى ، إلا وأحس بفتح ذلك الجرح الدامى من جديد ، وتذكر تلك المآسى والموبقات التى ارتكبت منذ فجر الاحتلال إلى يوم الاحتفال ، ورأى رأى العين كيف يحتفل المستعمرون بذكرى إنكسار الجزائريين ، وكيف كانوا ينادون بأن الجزائر فرنسية ، وستبقى فرنسية إلى الأبد ! ، وكيف كانوا يتفننون فى ابتكار أساليب الثلب والشتم لتاريخنا ، ولرجالنا ، ولماضينا ، ولديننا ، وللغتنا .

إن احتفال الفرنسيين بمرور قرن على احتلالهم أرض الجزائر ، قد قدم القضية الجزائرية عشرين سنة على الأقل .

جمعية العلماء :

كنت أنادى فى نادى الترقى ، وفى غيره ، أثناء كل خطاب : الإسلام ديننا ، الجزائر وطننا ، العربية لغتنا ! واتخذنا من هذه القاعدة أساساً لمقاومة الاتجاه الفرنسى ، داخل البلاد ، كما كانت جمعية نجم شمال افريقيا ، تقاوم ذلك الاتجاه فى الخارج .

ولم نكن إلا أربعة رجال عندما أخذنا فى ركن من أركان النادى ، نضع الأسس لتكوين «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» . وشاءت إرادة

الله أن تنجح الدعوة نجاحاً منقطع النظير ، فأقدم علماء المسلمين من كل جهات البلاد رغم التهديد والوعيد يؤسسون في يوم مشهود هذه الجمعية التي تمكنت من بعث العروبة والإسلام في قطر أراد له الاستعمار ، التفرنس والمسخ ، وانتخبت رئيساً لها علامة القطر الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وكان صاحب دروس في قسطنطينة ، وكان قائماً بدعوة إصلاحية دينية عظيمة ، وكان يصدر مجلة الشهاب ، بعد أن أصدر جريدة « المنتقد » .

واقتحمت جمعية العلماء ميدان حرب محفوف بالمزالق والأخطار . فحاربت أول ما حاربت أنصار الاستعمار ، ثم قاومت وحطمت البدع والضلالات الدينية التي استغلها الاستعمار تحت ستار الطرقية ، حتى تمكنت من تطهير الدين وأرجعته لتعاليمه الطاهرة الأولى .

ثم أخذت في الحملة التعليمية العربية الإسلامية الكبرى ، فوفقها الله إلى تكوين ذلك الجيل الصالح الذي أخرجته مدارسها ، والذي هو اليوم قوة العروبة والإسلام في البلاد (انظر الفصل السابع) وامتدت فروعها في كل جهات القطر ، ورسخت جذورها رسوخا متينا .

على أن الجمعية قد شاركت إلى جانب أعمالها الإسلامية العربية ، في أكثر الأعمال السياسية ، سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، لتحفظ لكل تلك الأعمال السياسية طابعها العربي الإسلامي ، ولتوجه السياسة توجيهاً عربياً إسلاميا ويرأس الجمعية اليوم العلامة المجاهد الشيخ محمد البشير الأبراهيمي .

وحدة النواب :

وأعاد النواب المسلمون الجزائريون تشكيل وحدة النواب التي كان قد ابتكرها الأمير خالد رحمه الله ، فعادت إلى الظهور تحت رئاسة الدكتور ابن جلول ، وأخذت تشن الغارة الشعواء على المظالم الاجتماعية ، والاجحاف السياسي ، وسيرت الوفود العديدة إلى باريس المطالبة بالحقوق وإحراج الحكومة ،وشدت الأمة أزر الوحدة بصفة فعالة .

فكان من نتائج الأعمال الذي سبق ذكرها ، والنهضة الجديدة التي ظهرت في الأمة ، والتكتل الشعبي حول المطالبة بالحق ، أن عمدت فرنسا من جديد لسياسة الإرهاق ، وخنق الحريات ،فأصدرت قراراً(قرار رونى وزير الداخلية) يلحق صارم العقوبات بكل من يتهم بمحاولة النيل من النفوذ الفرنسي ، وهكذا ما ازدادت الأمة نهضة ، إلا ازدادت الحكومة عتوا .

وكان الأستاذ عباس فرحات ، من أنشط عناصر وحدة النواب .

حزب الشعب الجزائري :

في اليوم الحادي عشر من شهر مارس سنة ١٩٣٧ ، أعلن السيد مصالي الحاج أحمد ، تأسيس « حزب الشعب الجزائري » بدلا عن جمعية نجم شمال افريقيا التي حلها الاستعمار . فكان هذا الحادث من أعظم حوادث التاريخ الجزائري الحديث ، وطبع حزب الشعب الجزائري بطابعه

الاستقلالى الثوروى كامل السياسة الجزائرية ، منذ تأسيسه إلى مابعد حله ، واستجاب الشعب لنداء هذا الحزب ، استجابة منقطعة النظير . وكان جواب الحكومة الفرنسية على إعلان هذا الحزب ، أن ألقت القبض على الزعيم أحمد مصالى وبعض رجال الحزب ، وقضت بسجنهم سنتين ، بدعوى أنهم أعادوا تنظيم مؤسسة حلها القانون (١٧ أوت ١٩٣٧) لكن حزب الشعب انطلق فى السماء كالشهاب الثاقب ، ولم ترده مظالم الاستعمار ولامكائد الحكومة ، واستمر منتشراً متغلغاً فى سائر أوساط الأمة .

برنامج فيوليت :

ما كادت تنتصر الجبهة الشعبية بفرنسا فى انتخابات سنة ١٩٣٦ ، حتى برزت فى العالم الجزائرى فكرتان :

فكرة أبداها الوالى العام الأسبق ، موريس فيوليت ، وصادقه عليها زعيم الحكومة الاشتراكية ، ليون بلوم ، وهى تقضى باعطاء الحقوق الفرنسية لعدد كبير من المثقفين المسلمين ، كى يشاركوا مع نفس الفرنسيين فى انتخابات القسم الفرنسى بالمجالس النيابية . أما بقية المسلمين فتستقل بقسمها الثانى . على أن يكون المسلمون ممثلين بالمجالس النيابية الفرنسية . وقد كان الوالى العام فيوليت ، قد قاوم الاستعماريين الفرنسيين وقاوموه بصفة عنيفة ، إن أن تمكنوا من عزله عن الولاية العامة ، فما كاد يستقر به المقام فى باريس حتى اخترع برنامجه هذا وألف كتابه الشهير « هل

تعيش الجزائر ؟» فسدد به للاستعمار ونظمه ومظالمه ضربات فتاكة، وأظهر حقائق لم يكن يعرفها الناس، وكانت آراؤه وأفكاره — سواء فى كتابه أو فى مشروعه — تتلخص فى الكلمة الآتية: إذا لم تنصف الجزائريين، ونسرع بادخالهم ضمن العائلة الفرنسية، متساوين فى الحقوق والواجبات، فانهم سيندفعون فى الميدان الاستقلالى التحررى، وعندئذ تخسر فرنسا أرض الجزائر نهائيا.

المؤتمر الإسلامى :

أما الفكرة الثانية، فكانت تنادى بجمع مؤتمر اسلامى جزائرى عام يضم قادة الرأى فى القطر الجزائرى، لتقرير خطة موحدة جزائرية، تجمع فيها الأمة على رأى.

وتولى كبر الدعوة الدكتور ابن جلول، على أن يشمل المؤتمر: النواب، ورجال الفكر، وجماعة من العلماء، باسمهم الخاص ولا باسم جمعية العلماء.

واجتمع المؤتمر يوم ٧ يونية سنة ١٩٣٧، ولاحظ الناس أن رجال حزب الشعب الجزائرى الجديد، أو رجال نجم شمال أفريقيا التقدمى، لم يحضروا ذلك المؤتمر، لأن دعوتهم الاستقلالية الانفصالية، كانت تتنافى مع المبادىء التى نادى بها فيوليت وبلوم، والتى ظهر أن المؤتمر قد انعقد على مقتضاها. أما العلماء الذين شاركوا، فقد أعلنوا أن مشاركتهم كانت للدفاع عن الكيان العربى الإسلامى، وادماج المطالب الدينية (فصل الدين عن

الحكومة الفرنسية) والعربية (تعليم اللغة العربية اجباريا فى المدارس الحكومية ، وحرية التعليم العربى بالمدارس الخاصة) ضمن برامج المؤتمر .

وأسفر المؤتمر عن مقررات لاتكاد تخرج من ناحيتها السياسية عن برامج فيوليت : الانتخاب العام فى صندوق واحد مشترك بين الجزائريين والفرنسيين ، والغاء قوانين الانديجينا بصفة نهائية ، والاعتراف بالعربية لغة رسمية بقطر الجزائر ، ومحافظة المسلمين ممن يدخلون ضمن الطبقات الفرنسية الانتخابية ، على حالتهم الشخصية الاسلامية ، فلا يعتبرون متجنسين ، وتمثيل المسلمين ببرلمان فرنسا .

وقد كانت جمعية العلماء قد أفتت بأن المسلم الذى يعتنق الجنسية الفرنسية بطلب منه ، يعتبر مرتدا ، لأنه يقبل طوعا واختيارا الخروج عن أحكام الشريعة الاسلامية فيما يتعلق بحالته الشخصية (الزواج ، الطلاق ، الميراث) . فازداد فرار الناس من التجنس ، ولم يكونوا قد قبلوه يوما من الأيام .

وذهب وفد يمثل المؤتمر لدى حكومة باريس ، خلال ذلك الشهر . وتألب الفرنسيون الاستعماريون ضد هذه المطالب ، وحملوا عليها فى باريس وفى الجزائر حملة شعواء ، إلى إن اخفق مشروع بلوم فيوليت أمام المجلس الفرنسى ، وخاب رجال المؤتمر فى أعمالهم ومساعيهم ، وأيقن الكثير منهم يومئذ ، أن الطريق الوحيد الذى يجب على الأمة أن تسلكه ، إنما هو طريق الاستقلال الوطنى . فما عتمت فكرة المؤتمر أن تلاشت ، وأخذت

الفكرتان الأساسيتان الجزائريتان فى النمو والانتشار : فكرة الشعب الاستقلالية ، وفكرة جمعية العلماء العربية الاسلامية .
الفكرتين واحد ، إلا وهو إنشاء المجتمع الجزائرى الذى يسير نحو والاستقلال تحت راية العروبة والاسلام . .

اضطهاد حزب الشعب :

أخذ الحزب ينظم صفوفه ، ويجمع حوله الرجال الأشداء الذين الاستقلال الوطنى عقيدة لهم ، ومنهاجا لأعمالهم ، وأخذت الدعوة فى البلاد ، والفروع تؤسس فى كل جهة ، وكانت الحالة الأوربية مظلمة تحت تهديد هلتر ، ووعيده ، وريح الحرب تهب عاصفة ، يجيد الجميع يعلمون أنها واقعة لاريب فيها . لكن الفرنسيين بدل أن سياستهم أمام ذلك التهديد المخيف ، ما أزدادوا إلا شدة وعنفا و ضد المسلمين : فما كاد رجال حزب الشعب يخرجون من السجن عام٩ حتى أعيدوا إليه ، بتهمة تهيئة الثورة والتحريض على العصيان ، بالسيدمصالى ورفقائه فى السجن يوم ٤ أكتوبر سنة١٩٣٩ ، وحكم بالسجن ١٦ عاما مع الاشغال الشاقة ، والابعاد ٢٠ سنة بعد انتهاء السجن ، وتغريمهم مقدار ثلاثين مليونا من الفرنكات ...

الحرب العظمى الثانية :

هكذا كانت الحالة السياسية ، عندما اشتعلت نيران الحرب العظمى ال

ولا ينكر أحد أن كثيراً من المسلمين الجزائريين كانوا — رغم عاطفتهم الديموقراطية — يتمنون من صميم فؤادهم انتصار ألمانيا ، لا حبا فيها ، ولا طمعا في خير ينجر من وراء انتصارها ، بل كانوا يريدون الانتقام من فرنسا المستعمرة ، والانتقام ليس إلا .

دخلت فرنسا الواهية ، المنحلة ، تلك المعممة عن غير استعداد ، يقودها جماعة من المترفين ، بعضهم جاهل ، وبعضهم مغرور ، إلى أن ضرب هتلر ضربته الحاسمة ، فنكبهم شر نكبة ، وفرقهم أيدى سبأ ، فلم تستطع تلك الدولة الفرنسية المتكالبة على الاستعمار ، الظالمة الجبارة ، أن تثبت بسلاحها ورجالها نصف شهر أمام الجحافل الجرمانية ، فخرت صريعة ، وفقدت كل شيء حتى الشرف ، وما وسعها إلا أن استسلمت في مذلة وصغار . وذاقت كأس الاحتلال المرير الذى طالما جرعته الشعوب ، وخاصة الشعب الجزائرى .

ولقد كان الجزائريون يستعدون يومئذ لتصفية الحساب نهائيا مع فرنسا ، واستعمارها ، ومظالمها ، واحتلالها ، لولا تدخل الألمانيين من جهة وقد كانوا يقولون : انتظروا معاهدة السلام فستنصف كل أحد ، ولولا تدخل الدعاة الأمريكيين الذين كانوا يقولون : لا تفعلوا شيئا وانتظروا الأمريكيين فسيربحون الجولة الأخيرة ، وسينصفون كل أحد . وصدق بعض الجزائريين هؤلاء ، كما صدق بعض الجزائريين أولئك ، وياليتهم لم يصدقوا أحداً من الجانبين . وبقى الجزائريون ينتظرون ماتأتى به الأيام ، ولم يكن ذلك الانتظار من الصالح فى شيء .

جماعة « أحباب البيان والحرية » :

وقع ما كان منتظراً . فنى ٨ نفامبر سنة ١٩٤٢ تمكن الأميريكيون من احتلال الشمال الأفريقى ، وأبعدوه عن نفوذ حكومة فيشى الصورية ، ونفوذ لجان الهدنة الألمانية الطليانية الفعلية . لكن وقع أيضاً ما لم يكن منتظراً . فإن الأمريكيين اعتمدوا فى حكم البلاد على الفرنسيين خاصة ، ولم يفكروا — رغم وعودهم القديمة — فى إنصاف المسلمين أى إنصاف . وكانوا يقولون جهاراً : نحن جئنا لمحاربة المحور ، أما قضاياكم الخاصة فبينكم وبين الفرنسيين .

قلنا : — وماذا يكون موقفكم لو أننا أخذنا فى تصفية حسابنا مع الفرنسيين الآن ؟ . فقال المتحدث الرسمى باسمهم : ان الفرنسيين فى الشمال الأفريقى حلفاؤنا ، وأننا نسعى لاستمالة الفرنسيين فى فرنسا ، فكل عمل يقع ضد الفرنسيين هنا إنما نعتبره موجها ضدنا ، ونقاومه إلى جانبهم بكل شدة .

وهكذا خاننا الألمانيون وخدعنا الأمريكيون ، ولم يبق أمامنا من باب نطرقه إلا باب الأعمال السلمية ، القليلة الجدوى ، فى تلك الأوقات الحرجة .

فى ٣ فيفرى سنة ١٩٤٣ ، اجتمع رجال من أحرار الجزائر ، فيهم من أنصار حزب الشعب ، ومن العلماء ، ومن النواب ، ومن المستقلين ، وتفاوضوا فى مستقبل الأمة الجزائرية ، وفى خروجها نهائياً من المنطقة الاستعمارية إلى المنطقة المستقلة الحرة ، فقرروا تحرير « بيان » ينشرونه على

الأمة الجزائرية ، ويقدمونه للأمة الفرنسية ولرجال الدول المتحالفة ، وقد اتفقوا على النقط الرئيسية منه ، وكلفوا الأستاذ عباس فرحات بتحريره في صيغته النهائية ، فكان « البيان » يعلن :

أولا : إفلاس الاستعمار في سياسته ، مع تفصيل مراحل الإفلاس .

ثانياً : ان الاستعمار قد حكم على الأمة الجزائرية بالفقر والجهل والتشرد ،وأبعدها عن كل ميادين الحياة ، وان الأمة لن تستطيع بعد اليوم صبراً على هذا النظام .

ثالثاً : أن المخرج الوحيد للأمة الجزائرية مما هي عليه من المهانة الاستعمارية ، إنما هو « إعلان الجمهورية الجزائرية المستقلة » مع ارتباطها بفرنسا ارتباطاً تعاقدياً ، ومع احترامها لحقوق سائر السكان دون تمييز بين جنس ودين .

على أن تكون للجمهورية الجزائرية جنسيتها الخاصة ، وعلمها الخاص.

وانضم أغلب الناس إلى هذا « البيان » وتوحد في هيئة أسمت نفسها « أحباب البيان والحرية » كل الرجال العاملين لخير الجزائر ، على قاعدة الاستقلال والتحرير ، وجاهروا بدعوتهم وتحمسوا لها واستعدوا للتضحية في سبيلها .

جواب الحكومة :

أما الحكومة الفرنسية التي كانت تدعو نفسها حكومة « فرنسا

الحرة » ، والتي يرأسها الجنرال دى قول ، فقد هالها الأمر ، وعزمت على الشر ، وجاء ديقول بنفسه إلى مدينة قسطنطينة يعلن برنامجاً هو أشبه شىء ببرنامج فيوليت السالف الذكر ، ويعد المسلمين بمدد من « الإصلاحات » بصفتهم فرنسيين ، تعتبر بلادهم جزءاً من فرنسا إلى الأبد حسب الأنشودة العتيقة .

ثم نكلت برجال حزب البيان ، وألقت القبض على الأستاذ عباس فرحات وزجت به مع أحد رجال البيان فى السجن ، وأرسلت بالأستاذ أحمد مصالى إلى المنفى فى الصحراء ، بعد أن كانت اطلقت سراحه مع رفقائه من السجن ، ثم بعثت به إلى بلاد الكونغو بقلب افريقيا ، يقاسى آلام النفى .

٨ ماى سنة ١٩٤٥ :

كانت الأمة الجزائرية تغلى غلياناً أثر هذه الحوادث ، ينذر بانفجار شديد ، وكان الأستاذ عباس قد خرج من سجنه ، وعاد رجال « أحباب البيان والحرية » إلى العمل والاجتماع ، ومعالجة الموقف بما يجب ، والاستعداد لخوض معارك السياسة عند ما تضع الحرب أوزارها قريباً ، وقد كانت أشرفت على نهايتها .

وانتهت الحرب بعد قليل ، بانهزام ألمانيا ، تحت ضربات السلاح الأمريكى الفتاك . وشاء ربك أن تلعب فرنسا دور المنتصر الجبار مع

المنتصرين ، بعد أن كانت تقف فى مؤخرة المندحرين ، وصارت تلقب : أكبر الدول الصغرى ، وصغيرة الدول الكبرى .

ففى يوم ٨ ماى سنة ١٩٤٥ احتفل العالم الغربى « الحر... » بعقد الهدنة مع ألمانيا . وأراد الجزائريون أن يشاركوا فى هذا الاحتفال ، وأن يتخذوا منه وسيلة لاظهار عواطفهم ، وبيان أهدافهم ، لكن الاستعمار كان قد هيأ برنامجه ، واختار مكان المعركة ، فما كادت مظاهرة سلمية تقع بمدينة سطيف صبيحة ذلك اليوم ، حتى تحرش بها الفرنسيون بدعوى أن المتظاهرين كانوا يرفعون علما جزائريا محجرا ، وقتل محافظ البوليس بيده ، غلاما مسلما كان يرفع العلم . فكان ذلك الحادث ايذانا بالاندفاع فى مذبحة من أفظع وأقذر المذابح الاستعمارية فى العالم . واجتمع على المسلمين فى الجهة الممتدة بين سطيف ، وخراطة ، وقالمة ، رجال الجند الفرنسى بين مشاة وطيارين وفرق مصفحة ، ورجال البحرية الفرنسية الذين كانوا مستعدين على السواحل ، ورجال الجالية الأوربية الذين كانوا قد تسلحوا واستعدوا لذلك اليوم الأحمر الرهيب .

وفتح الجميع موسم الصيد الآدمى ، وطورد المسلمون فى المدن والقرى والمداشر كما تطارد السباع فى الغابات ، وعمت المذابح فذهبت ضحيتها القرى العديدة ، لم ينج منها رجل ولا امرأة ولا صبى ، وكانت المصفحات الفرنسية تسير صفا فتدمر القرى على رأس من فيها من رجال ونساء وأطفال ، حتى تسوى بها وبما فيها الأرض ، فكانت الدماء تجرى غزيرة

وقد صبغت الأرض بلونها الأحمر ، وبصفة ظاهرة أمكنت المصورين من أخذ مناظر لها من الطائرات .

وهنا لك قرى أخرى ، دمرت بالطائرات تدميرا فلم يبق منها شيء .

أما بالمدن الكبيرة ، كسطيف ، وقالمة ، فكان رجال « الميليشيا » من المتطوعين الأوربيين يهاجمون الديار ، ويقبضون على النخبة المثقفة الجزائرية ، ويذهبون بها خارج المدينة ويأمرونها تحت تهديد الرشاشات بحفر القبور الجماعية ، ثم يقتلون الفوج أثر الفوج ، ويأمرون كل فوج بدفن الفوج السابق .

أما النساء فقد امتهن شر امتهان ، وانتهكت حرماتهن انتهاكا جديرا بأعمال وحوش الاحتلال الأولين ، وقطعت آذانهن من أجل الأقراط ، وايديهن من أجل الخواتم ، وأرجلهن من أجل الخلاخل، وكان الجند يتباهى بتلك الغنائم ، ويتفاخر بالاحراز على أكبر عدد منها . . .

دامت الذبحة أياما وليالى سوداء . واسفرت عن مقتل ٤٥ ألفا من المسلمين واضمحلال قرى كاملة وخراب جهات فسيحة ، وأعدام النخبة المفكرة فى كامل الجهة ...ولولا تدخل رجال من الأحرار اندفعوا ينصرون الحق ويندون بالمذبحة ، ولولا ضجة عالية قامت ضد هذه الجريمة المنعدمة النظير ، لكان قد حل بالمسلمين سنة ١٩٤٥ ، ماهو واقع ببلادهم اليوم ، من جراء الثورة الكبرى .

بادرت الحكومة مع ذلك بحل جماعة « أحباب البيان والحرية » وألقت القبض على رئيسها الأستاذ عباس فرحات وانصاره ، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء والبارزين من اعضاء الجمعية ، وعدد كبير من الرجال الاحرار ، فيهم كل رجال حزب الشعب الجزائري الذين لم يكونوا في السجون أو في المعتقلات . فكان عدد المقبوض عليهم ٤٥٦٠ رجلا هم نخبة الأمة ومفكروها : وصدرت الأحكام على ١٣٠٠ رجل ، منهم ٩٩ حكما بالاعدام ، و ٦٤ بالاشغال المؤبدة ، و ٣٢٩ بالاشغال لوقت معين . والبقية بعدد من الأعوام سجنا .

أما من الناحية الأوربية ، فالمسلمون تمكنوا من قتل ١٠٢ من الفرنسيين فقط ، ولم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، أو يثأروا لموتاهم وينتقموا لأعراضهم بأكثر من ذلك . . . . .

فحادثة يوم ٨ ماي الرهيبة ، كانت الاساس الأول الذي بنيت عليه قواعد الثورة الجزائرية الكبرى ، وغرست شجرة الحرية الباسقة ، في بركة من دماء الشهداء الابرار .

بقي قادة الأمة في السجن ، تحت خطر الموت الاجرامي ، إلى يوم ١٦ مارس سنة ١٩٤٦ ، حيث صدر الأمر باطلاق سراحهم . وكانت الحكومة قد حلت جماعة أحباب البيان ، كما حلت حزب الشعب الجزائري . فقام الاستاذ عباس فرحات بتأسيس حزب جديد أسماه : حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري . أما رجال حزب الشعب ، فقد اسسوا كذلك حزبا جديدا يدعوه : حزب انتصار الحريات الديمقراطية . . .

واستعد الجميع لمعمة جديدة ، من ورائها الموت أو من ورائها الحياة .

الدستور الجزائرى :

استمرت الحكومة الفرنسية تعالج الموقف معالجة الجاهل أو معالجة الأعمى . فبعد أن قدمت الامة جماعة من خير أبنائها لتمثيلها بالمجلس التأسيسى الفرنسى ، وبعد المناقشات الطويلة الصعبة التى اظهرت سوء نية الحكومة وسوء نية الأغلبيات الفرنسية حيال قضية الجزائر ، انتهى الأمر بأن « منحت » فرنسا بلاد الجزائر قانونا أساسيا ، مشوها ، ابتر ، كان أبعد ما يكون عن الحق وعن مبدأ الحرية ، وكان أبعد ما يكون عن رغبة الامة ، فخابت الآمال مرة أخرى ، وما رأى شعب الجزائر من فرنسا ومن استعمارها إلا خيبة الأمل ، خلال قرن وربع قرن .

فالدستور الجزائرى قد بنى على الأسس التالية :

١ — البلاد الجزائرية قطعة من الأرض الفرنسية : تتألف من ثلاث مقاطعات ، يتساوى سكانها فى الحقوق والواجبات . جنسيتهم فرنسية .

٢ — المسلمون يحافظون على حالتهم الشخصية الإسلامية ، ولا يحول ذلك بينهم وبين الحقوق السياسية .

٣ — تتمتع أرض الجزائر ، تحت سلطة الوالى العام ، بنظام خاص تقتضيه طبيعة أرضها وحالة سكانها ، وهذا النظام يقتضى إنشاء « مجلس جزائرى » ينتخب الفرنسيون والمسلمون الذين يتشاركون معهم فى

الانتخاب ، نصفه ، أى ، ٦٠ نائباً ، وينتخب المسلمون الذين لا يشاركون الفرنسيين — أى غير المثقفين أو الموظفين أو قدماء الجنود — نصفه الآخر ، أى ٦٠ نائباً ، وتكون الرئاسة مداولة بين القسمين كل سنة .

٤ — هذا المجلس الجزائرى مختص بدراسة ميزانية الجزائر ، وله حق ابتكار المشروعات التى تتعلق بحياة الجزائر الاقتصادية والاجتماعية ، لكن الميزانية الجزائرية لا توضع موضع التنفيذ إلا بعد مصادقة الحكومة الفرنسية عليها . وكذلك لا يمكن أن ينفذ أى قرار من قرارات المجلس الجزائرى إلا بعد مصادقة الحكومة الفرنسية .

٥ — القوانين الفرنسية كلها تنفذ على القطر الجزائرى ، إنما بعد أن يدرسها المجلس الجزائرى ويتخذ فى أمرها قراراً .

٦ — المسلمون الجزائريون يرسلون لسائر المجالس الفرنسية بباريس ، عدداً من النواب يتساوى مع عدد نواب الفرنسيين المستقرين بالجزائر .

٧ — تعتبر اللغة العربية لغة رسمية ثانية بأرض الجزائر ، وتدرس بسائر المدارس ، ويعتبر الدين الإسلامى مفصولاً عن الحكومة . وعلى المجلس الجزائرى أن يجد الطرق التى تنفذ هذين القاعدتين .

٨ — الوظائف العامة — مدنية وعسكرية — مفتوحة أمام سكان القطر الجزائرى على السواء .

٩ — إلغاء البلديات الممتزجة فى قطر الجزائر وإلغاء الحكم العسكرى ببلاد الجنوب .

١٠ — يتألف حول الوالى العام « مجلس الحكومة » وهو يتركب من ستة رجال : اثنين يعينهما الوالى العام ، واثنين ينتخبهما قسما المجلس ، ورئيس المجلس ، ونائب رئيسه . (٣ من المسلمين و ٣ من الأوربيين) . وينظر هذا المجلس فى تنفيذ مقررات المجلس الجزائرى وما يتعلق به .

وهكذا شاء هذا الدستور أن تبقى الجزائر قطعة من فرنسا ، وأن تكون جنسية الجزائرى فرنسية ، وأن لا تملك الجزائر شيئاً من حقوق التشريع ، وأن يمثل ٦٠ نائباً التسعة ملايين من المسلمين . بينما يمثل ٦٠ نائباً كذلك المليون من الأوربيين ، وأن تبقى الجزائر دون حكومة ودون كيان دولى ، فازداد ضغط الأزمة وأصبحت تنذر بانفجار العاصفة قريباً .

التدليس والتزوير

لكن الفرنسيين فى قطر الجزائر رأوا أن هذا الدستور « السخى » . يمكن أن ينتزع زمام السلطة من بين أيديهم ، ويمكن أن يستعمله الجزائريون لتوسيع نفوذهم أو الإفادة من نصوصه ، والوقوف الموقف الصارم على تنفيذها . فاخترعت الحكومة الفرنسية فى القطر الجزائرى ، بإعانة شيوخ المدن الإستعماريين ، وإعانة سائر رجال السلطة ، ما يدعى فى عالم السياسة الحديث : « الانتخابات الجزائرية » فشهدت البلاد من أصناف التدليس ، والسرقة ، واللصوصية الانتخابية ، ما نؤكد أنه لم يقع فى قطر آخر من أقطار العالم ، وفى أى زمن من الأزمان .

ذلك أن الحكومة ورجالها، وأقطاب الاستعمار، وأصحاب الامتيازات والإقطاعات، رأوا أن الخطر كل الخطر يهددهم إذا ما هم تركوا الجزائريين أحراراً فى انتخاب نوابهم، لأن أولئك النواب لا يكونون إلا من رجال الحزبين الاستقلالين: «حزب انتصار الحريات الديمقراطية» و «حزب الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى»، فاستقر رأيهم على الوقوف فى وجه الأمة، و «منحها» طائفة من النواب الصالحين، كما منحوها الدستور الصالح من قبل...

وتفصيل هذه السرقات وهذا التدليس الذى باشرته الإدارة الجزائرية بصفة فاضحة، تحت إشراف الوالى العام السيء الذكر م ناجلان. وبمباشرة المدير المسئول فى الولاية العامة م. سيوزى، هذا التفصيل المخجل الفاضح، لا يتفق وخطة الإيجاز التى التزمناها فى هذه الفذلكة. إنما هى باختصار كانت تقع على الطريقة التالية:

أولاً: حرية الترشيح مباحة للجميع

ثانياً: الدولة تعين المرشح الرسمى المسلم... الذى تختاره، وترمى به إلى ميدان الانتخاب، وتضمن له النجاح، وتزوده بما يلزمه من المال.

ثالثاً: يتمتع المرشح الرسمى بكل التسهيلات فى تجولاته وتنقلاته، بينما توضع كل أنواع المراقيل فى وجه المرشحين الحزبيين.

رابعاً: كارثة يوم الانتخاب تقع على النحو الآتى: —

(ا) فى عدد من الجهات لا توزع أوراق الانتخاب ، بل يباشر الموظفون الإداريون العملية ويعمرون الصناديق كما يريدون .

(ب) يترك الناخبون أحراراً فى جهات أخرى وتتم عملية الانتخاب على الوجه الأكمل . لكن فى آخر لحظة ، يقع « حادث » فيأمر شيخ البلدة أو المتصرف بإخراج سائر الناس ويستبدل بالصندوق صندوقاً آخر عُمِّر فى الظلمات باسم المرشح الحكومى .

(ج) قبل موعد الانتخاب . يباشر أعوان الإدارة ملء الصندوق بواسطة الرقاع الانتخابية الراجعة ، والتى مات أصحابها أو تغيبوا ، فتوضع بأسمائهم أوراق المرشح الحكومى ، وتستعمل طرق أخرى لتحقق الأغلبية الساحقة له .

(د) يقف الحاكم « الادمنسراتور » أو القائد فى قاعة الانتخابات ، ويمنع دخول ممثلى المرشحين الأحرار ، ويعلم الناخبين بأن الحكومة تريد « فلاناً » وأنه إن لم يقع انتخابه ، فليس للسكان أن يعتمدوا أبداً على أى إعانة من الحكومة ، وأن الدولة تعاملهم معاملة الأعداء . فتتم الجريمة . أما من ذهب غاضباً ، ولم ينتخب ، فإن أعوان الإدارة يستعملون صوته ، وينتخبون باسمه المرشح الحكومى .

وإننى لأكتفى بهذا المقدار ، وهو نقطة من يم ، لإعطاء قارىء هذه العجالة صورة عن المأساة الانتخابية ، التى كانت نتيجتها إبعاد الأمة وممثليها الحقيقيين عن المجلس الجزائرى . فأسفر هذا التدليس الشنيع عن تشكيل المجلس الجزائرى المدلس المشوه كما يلى :

الفائزون الحكوميون ، الذين يدعونهم بالمستقلين				٤٣
«	من حزب انتصار الحريات الديمقراطية			٩
«	«	«	الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري	٨
				٦٠

خشب مسندة :

كانت النتيجة أن الحكومة تمكنت بواسطة هذه الأعمال المخجلة من وضع خشب مسندة على مقاعد النيابة فى المجلس الجزائرى ، ساومت أغلبيتهم على ضمائرهم ، فلم يكونوا ينبسون ببنت شفة ، إلا متى قال لهم الاستعمار تكلموا ، أو متى حرر لهم نص الكلمات التى يقولونها .

وكانت نتيجة هذا الوضع الشاذ ، أن الاستعمار وإدارته وحكومته ، قد ضمنوا لأنفسهم عدم تنفيذ الدستور الجزائرى ، طوال المدة التى انقضت بين عامى ١٩٤٨ — ١٩٥٤ ، فلا الوظائف فتحت فى وجه المسلمين ، ولا التعليم العربى نال الصبغة الرسمية ، ولا الدين الإسلامى فصل من إدارة الاستعمار، ولا البلديات الممتزجة الكريهة الغيت ، ولا النظام العسكرى زال من البلاد الجنوبية. ورأى الناس كافة ، حتى أكثر المتفائلين منهم ، وأكبر المعتدلين فيهم ، أن الاستعمار قد تمكن بواسطة الدستور الجزائرى الابتر ، وبواسطة تدليس الانتخابات ، من حكم البلاد الجزائرية ، لفائدته الخاصة ، وضد مصالح الجزائريين ، أكثر من أى وقت آخر مضى .

. وهل تكون نتيجة هذا اليأس النهائى ، إلا التفكير فى استعمال الوسيلة الوحيدة الباقية : الثورة المسلحة ، والاقدام عليها ؟ .

وهكذا كان .

ولم يكتف الاستعمار بتدليس انتخابات المجلس الجزائرى ، بل أصبحت الانتخابات بعد ذلك ، لكل المجالس النيابية ، كلها تدليس وسرقة ، وتزوير حتى اصبحت كلمة « الانتخابات على الطريقة الجزائرية » تستعمل فى المضمار العالمى ، للتعبير عن كل انتخاب مزوز مدلس . فى هذه الأوقات والجزائر تنكتب فى آمالها ، وتمتهن فى ديارها ، ويحال بين نخبتها الوطنية وبين مجالس النيابة الهزلية ، كان الجزائريون يعلمون أن موجة التحرر قد شملت العالم أجمع ، وأن أمم آسيا قد تحررت : أندونيسيا – الهند — الصين — باكستان — برما — سيلان — العراق — سوريا — لبنان — وأن أمم أفريقيا قد مزقت قيود الاستعمار : مصر — الحبشة — ليبيا — أريتريا — الصومال . فقالوا : وهل كتب الله أن لا يبقى فى العالم إلا الاستعمار الفرنسى ، وأن لا يبقى هذا الاستعمار إلا فى بلادنا ؟ . ؟ .

فظائع وأهوال :

أخذت الأمة تتجه منذ تلك الساعة ، اتجاها يسير نحو الثورة على خط مستقيم . ولو كانت الإدارة الجزائرية موضوعة تحت قيادة جماعة من الصم البكم العمى الذين لا يعقلون ، لما تصرفت غير تصرفها فى هاتيك الأيام التى كانت من أسوأ أيام التاريخ الجزائرى ، وأشدها سواداً .

كانت الفضائح تتلوا الفضائح ، وكانت الأعمال التنكيلية الزاجرة تتلو الأعمال التنكيلية الفظيعة .

ففى بلاد القبائل الكبرى وقعت خلال شهر يوليو سنة ٤٨ حوادث هوسونفيلر وجهتها ، حيث أحرق الجندرمة والجند ورجال البوليس القرى والدياز ، وأتلفوا المؤن والأرزاق ، وانتهكوا حرمة النساء والبنات وقد كان وقع مثل ذلك من قبل فى جهات برج أم نائل ودلس وغيرها .

وفى سبتمبر وأكتوبر من نفس تلك السنة . هاجم الجند والجندرمة ورجال الدرك قرية « سيدى على بوناب » الباسلة ، بدعوى التفتيش عن رجل هارب من الجندية ، فحطموا القرية تحطيما ، واعتدوا على عفاف النساء والبنات بصفة شنيعة ، وسرقوا ونهبوا ، وأهانوا ، ودام ذلك العدوان القذر ١٥ يوماً ....

وفى بلاد الأوراس ، هاجم الجند خلال سنتى ١٩٥٠ — ١٩٥١ ، القرى والديار ، وارتكبوا من الأعمال الشنيعة والمظالم المنكرة ، مايزال يتحدث به الناس فى جهات الجنوب ، وذلك بدعوى البحث عن أحد الرجال المجرمين ، فذاقت أمة الأوراس عذاب النكال من جراء ذلك ، وأقسمت جهد إيمانها لتنتقمن للشرف المداس والكرامة الممتهنة .

التنكيل بحزب انتصار الحريات الديمقراطية :

خلال شهر مارس سنة ١٩٥٠ ، أعلنت الحكومة الاستعمارية ، أنها اكتشفت مؤامرة حاك أطرافها حزب الشعب السابق ، الذى أصبح يدعى حزب

«انتصار الجزيات الديمقراطية» ، فأطبقت على الحزب في كل جهة ، وفتشت كل مراكزه بالمدن والقرى ، بقصد البحث عن « المنظمة السرية » التي شكلها الحزب ، وهيأها للقيام بالثورة ، وعن أسلحتها وعتادها ، وقد اقترنت هذه التفتيشات بمظالم لا توصف ، واستعمل البوليس لاستنطاق المتهمين ، المقبوض عليهم ، وكانوا يزيدون عن الألف ، وسائل لو وصفناها لقراء هذه الرسالة ، لاقشعرت منها جلودهم ، ولما وجدوا لها نظيراً ، إلا في ديوان التفتيش الأسباني السيئ الذكر .

ثم قدم الرجال إلى المحاكم ، فحكمت على نحو النصف منهم بمدة تتراوح بين العامين سجنا ، وبين الأشغال الشاقة المؤبدة . ولا يزال أكثرهم يقاسي عذاب الهون في سجون البلاد الجزائرية .

ثم قررت الحكومة بعد كل هذه الحوادث إبعاد السيد أحمد الحاج مصالي رئيس الحزب عن أرض الجزائر ، فوضعته تحت الإقامة الجبرية في البلاد الفرنسية .

جبهة الدفاع عن الحرية :

كانت الأمة تضغط على الأحزاب ضغطاً عنيفاً ، قصد الاتحاد وجمع الكلمة ، ومجابهة الاستعمار وإدارته صفاً واحداً . فبعد محاولات عديدة أسفرت الجهود عن تأسيس « جبهة الدفاع عن الحرية » ولم تكن ذات منهاج متسع ، إنما كانت محاولة أولى لاتحاد شعبي عام وجد مستقره النهائي وطريقه المثمر ، في جبهة التحرير الوطني الجزائري ، التي أسفرت عنها الثورة الكبرى .

كانت الجبهة تطالب ، بحل المجالس المدلسة ، وبانتخابات حرة ، وبتنفيذ فصل الدين عن الدولة ، وترسيم اللغة العربية ، وإطلاق سراح المعتقلين ، والإفراج عن الزعيم السيد أحمد مصالى . إنما المقصد الحقيق منها كان جمع سائر أحزاب الأمة ومنظماتها فى هيئة واحـدة ، لعمل مشترك واحد ، فقد اشترك فى الجبهة حزب انتصار الحريات الديمقراطية ، وحزب الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى ، وجماعة العلماء ، وجماعة الأحرار المستقلين والشيوعيون الجزائريون على قلتهم .

وكان يوم خامس أوت ١٩٥١ ، يوماً مشهوداً فى تاريخ الأمة الجزائرية يوم عقدت الجبهة اجتماعها العام فى الملعب البلدى ، للاعلان عن غايتها وأهدافها .

مقاطعة الانتخابات :

عزمت الأمة عزماً نهائياً ، على مقاطعة الانتخابات العامة ، وعدم تقديم الأحزاب لمن يمثلها فيها ، وكان ذلك أثر أعمال التدليس والتزوير التى صحبت انتخابات ١٧ جوان سنة ١٩٥١ ، والتى ابتكرت الحكومة فيها أساليب أخرى لم تـكن معروفة من قبل فى ميدان اللصوصية الانتخابية . وهكذا تركت الأمة المجال فسيحـاً للإدارة ، تستقل بأعمال الانتخابات ، وتفعل فيها ما تشاء ، إذ لم يكن فى استطاعة الأمة أن تغير من ذلك المنـكر شيئاً .

ذلك أن الأمة قد عزمت على الاتجاه فى طريق آخر ، هو الطريق

الوحيد الذى بقى مفتوحاً أمامها ، إلا وهو طريق الثورة التحريرية التى تحطم الاستعمار وتقوض أركانه .

والثورة هى آخر وسيلة تلجأ إليها الشعوب ، وبها تحق الأمة الحق ، وتبطل الباطل ، وتثل عروش الظالمين .

انقسام حزب انتصار الحريات الديمقراطية :

كان حزب الشعب العظيم ، قد تضخم وكثر عدد اعضائه ، وتطور مع الزمن تطورا ادخل فى هيئته الاداريه عددا من الرجال المثقفين ، الذين يدينون للمبادىء وللنظم العصرية ، أكثر مما يدينون « للزعامة » .

فى شهر أبريل سنة ١٩٥٣ ، اجتمع مؤتمر الحزب ، وانتخب مجلسا اداريا جديدا ، أخذ يسير الحزب فى طريق النظام ، والخضوع لحكم الأغلبية ، وكان السيد احمد الحاج مصالى فى اقامته الاجبارية بفرنسا (حيث سير به يوم ١٤ ماى سنة ١٩٥٢) فأخذت المصادمات تقع بين الأساليب القديمة والأساليب الحديثة . وبينما كان رأى الرئيس فيما سبق هو المرجح ، وارادته هى العليا ، أصبحت آراؤه تناقش ، وارادته تعارض احيانا من قبل الأغلبية ، فأعلن أن هذه الطريقة تؤدى إلى فساد الحزب وإلى اضمحلاله وانحلاله . وطالب باعطائه « التفويض المطلق » فى سياسة الحزب ، فرفضت الأغلبية عليه ذلك ، وأصبح الانقسام ضربة لازب ، إذ تصلب السيد مصالى مع رأيه ، وهاجم أغلبية اللجنة المركزية هجوما عنيفا ، وأذاع أمر ذلك الخلاف على الناس .

ففى أيام ١٣ و ١٤ و ١٥ يوليو سنة ١٩٥٤ ، انعقد فى بلجيكا مؤتمر الحزب ولم تحضر جماعة اللجنه المركزية ، وقرر السيد مصالى وانصاره « فصل » أعضاء اللجنة المركزية عن الحزب ، وتفويض الرئيس لإدارة سياسة الحزب وتوجيهها ، حسبما يراه صالحا .

لكن لم يمض على ذلك شهر واحد ، حتى عقد رجال اللجنة المركزية مؤتمرا فى مدينة الجزائر أيام ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ أوت من سنة ١٩٥٤ ، اعلنوا فيه أن الزعامة الفردية قد انقضى اجلها ، واعلنوا فصل السادة : أحمد الحاج مصالى ورفاقه عن الحزب ، وأن رجال اللجنة المركزية هم الذين يمثلون الحزب ويسيرون سياسته ، ويتولون توجيهه .

ووقعت من جراء هذا الانقسام بعض الحوادث المؤلمة ، بين الأخوان الذين كان إلى الامس القريب يدا واحدة ، يوجهون الامة نحو حركة تحرير فى معركة نهائية . لكن الامة حسمت بدمائها وبأرواح شهدائها هذا النزاع . .

لجنة الثورة للعمل والاتحاد

فى هذه الاثناء كانت الثورة التونسية على أشدها ، مما اضطر فرنسا لأعلان الاستقلال الداخلى فى زيارة منديس فرانس لتونس (جويلية ١٩٥٤) . وكان المغرب الأقصى يلتهب نارا بعد اقصاء ملكه وزعيمه سيدى محمد الخامس . وكانت حرب الهند الصينية الاستعمارية الخاسرة قد اضعفت فرنسا وحطمت معنوياتها .

أما حالة الامة الجزائرية فكانت لا تطاق من حيث الضغط الحكومى والعبث الادارى ، والاستهتار الاستعمارى . وفى الكثير من الجهات ، عزمت الأمة على اعلان الثورة ولو بصفة غير منظمة ، لأنها لم تستطع الصبر أكثر من ذلك على ما حاق بها من مكر الاستعمار وشروره وآثام إدارته .

فحزم بعض رجال اللجنة المركزية والمناضلين امرهم ، وعقدوا اجتماعا فى «مكان ما» بأوروبا الغربية ، وقرروا أنه قد جاءت الساعة التى يجب فيها اعلان الثورة المسلحة المنظمة ، قصد تحرير الامة من اغلال الاستعمار ، وسعياً وراء الحرية والاستقلال . وكانوا قد اتصلوا قبل ذلك بالتشكيلات الموجودة بكل الجهات « المنظمات السرية O. S » ، فاستجابت كلها فى جذل وفى اندفاع منقطع النظير ، وجمعت الأسلحة القليلة والمتفجرات الموجودة بين ايدى رجال المنظمات ، ووقع الاتفاق على أن يكون يوم الثورة الكبرى ، هو يوم غرة نفامبر سنة ١٩٥٤ ، على الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

وهكذا أندلع لهيب الثورة الكبرى ، التى كانت الامة تنتظرها بفارغ صبر وكانت مستعدة لها منذ اجيال ، وقد ادركت ، كما ادرك قارىء هذه الرسالة منذ صفحاتها الأولى ، انه لم يبق فى الجزائر من امكان للحياة مع الاستعمار الظالم الخبيث ، فاما حياة حرة شريفة ، دون استعمار ولا تحكم اجنبى ، واما موت شريف ، يحفظ الكرامة ويخلد المجد على صفحات التاريخ ، ولا توسط بين الحالتين .

كل مكان ، وللاستعداد فى كل مكان ، وهكذا تمكنت الثورة من فتح واجهتها الأولى .

أخذت السلطة الفرنسية تلقى القبض على الناس جزافاً ، فى كل جهة ، سعياً إلى إحداث الفراغ حول الثورة ، لكن الرجال الذين دبروا الأمر ، ونفذوه ، فأحكموا تدبيره وأحكموا تنفيذه ، كانوا فى مراكزهم على رأس رجالهم ، أو كانوا قد احتلوا المراكز التى عينت لهم فى الخارج ، لإمداد الثورة ولتغذيتها ، فلم تؤثر اعتقالات الحكومة للناس أى تأثير على سير الثورة ، فاندفعت كالمارد ينطلق من عقاله ، باسم الله مجراها ومرساها ، تحطم الاستعمار على بناته وأنصاره ، وترفع ألوية الحرية خفاقة فوق ربوع أرض كانت منذ الأزل مهد الحرية ومنبت الاستقلال .

فبعد ثمانية أيام من ذلك الحادث العظيم ، أصدرت الحكومة أمرها بحل حزب انتصار الحريات الديمقراطيـــة ، وألقت القبض على الجماعات الكثيرة من رجاله ، سواء أكانوا من أنصار اللجنة المركزية ، أو من أنصار السيد الحاج مصالى ، (ثم أطلقت سراحهم ، حين تأكد قاضى التحقيق أنهم لا ضلع لهم فى إيقاد نيران الثورة) وقال وزير الداخلية يومئذ قولته الشهيرة ، التى كانت إعلان حرب حقيقية على الأمة الجزائرية ، : « إن الجزائر فرنسية ، وستبقى فرنسية ، وأن لا جواب لنا على هذه الثورة ، إلا الحرب إلى النهاية » .

الأحرار الأبرار ، حسب الخطة التي رسمها قادة « لجنة الثورة للاتحاد والعمل « C R. U. A. » وسارت كل جماعة نحو الهدف المعين لها ، وقد ودعت الحياة ، حياة الذل والمهانة والعبودية ، واستقبلت الموت ، موت الشرف والإباء والكرامة . ولم يكن عددهم يومئذ عظيما ، فالذين أوقدوا النار المقدسة في يومها الأول لم يكونوا يتجاوزون الألف رجل ، ولم يكونوا مسلحين تسلحاً قوياً ولا مزودين بما يلزم لمثل هذه الأعمال بل كان سلاحهم بنادق وبعض رشاشات قديمة ، أما القذائف والمتفجرات التي ألقيت على مراكز السلطة ، والمنشآت العامة ، وثكنات الجندرمة والجند ، فقد كان الكثير منها من الصنع المحلي ، فأحدثت رعباً كبيراً ، ولم تحدث ضرراً عظيما .

رغم ذلك فعملية اليوم الموفقة الناجحة ، فقد أتت بالنتائج المطلوبة منها :

أولاً — إشعار الأمة الجزائرية ، وإشعار فرنسا ، وإشعار العالم أجمع ، بأن الجزائر قد ثارت لأمجادها ، وكرامتها ، ولاسترداد حريتها واسترجاع ما اغتصب من حقها .

ثانياً — تمكن المجاهدين في الكثير من الجهات ، من الاستيلاء على أسلحة وعتاد الجند الفرنسي الذي لم يكن ينتظر أصلاً أن تقع مثل تلك الحوادث ، فنام آمنا مطمئناً ، أو أخذ يتمتع بأجازته لقضاء يوم عيد الأموات بين أهله وذويه أو في الحانات والمراقص الخليعة .

ثالثاً — التعمية على رجال العسكرية الفرنسية ، فلم يعرفوا في الأيام الأولى ما هي الجهة التي ستتركز فيها الثورة ، فاضطروا لتوزيع قواهم في

إذن فلتكن الحرب إلى النهاية ، إلى نهاية الاستعمار ، إلى نهاية الحكم الأجنبي !

* * *

وأنني أثناء هذا العرض الموجز ، لا أستطيع أن أسطر كل حوادث الثورة ، ولا أن أشيد بسائر ما وقع خلالها من أعمال البطولة النادرة التي لا يعرف التاريخ لها مثيلا ، إلا في هذا القطر الزاخر بالأمجاد ، المنبت للصناديد ، لكنني سأحاول — وسأوفق في محاولتي إن شاء الله — عرض أعمال الثورة في مختلف ميادين الثورة ، منذ يومها الأول إلى هذه الساعة ، (موفى يوليو سنة ١٩٥٦) ثم ما يحيط بكل ذلك من أعمال الأمة ، ومنكرات الحكومة ، وملابسات السياسة ، بحيث يكون الإلمام تاماً ، بحالة القطر الجزائري ، من كل جهاته ، والحالة البشعة التي أوقع الاستعمار فيها الأمة ، حتى فقدت كل شيء ، إلا الأمل والإيمان ، وحتى لم يبق أمامها من باب تطرقه إلا باب الثورة ، فطرقته بصفة مدوية ، لا يزال صداها يرن في الآذان إلى الآن ، وإلى ما بعد الآن .

العيد القومي :

وأبادر قبل كل شيء بوصف الحالة النفسية التي قابلت الأمة بها هذه الثورة .

لقد رأيت في حياتي يومين من أيام الجذل الشعبي والحبور الإجماعي

فى قطر الجزائر ، جذلا وحبورا جعلا الناس يندفعون فى غمرة فرح وسروح ، يهنئ بعضهم بعضا ، ودموع الفرح تتقاطر من المآقى : كان اليوم الأول ، هو يوم انهيار فرنسا واستعدادها لإمضاء الهدنة المخجلة المهينة التى أملاها عليها الألمانيون ، فى شهر يونيو سنة ١٩٤٠ ، أما اليوم الثانى ، فقد كان دون منازع يوم غرة نفامبر ١٩٥٤ . حين أذيعت على الناس ، الأنباء الأولى للثورة ، وحين علموا أن الأمر جد وليس هو بالهزل . كان الناس يهنئ بعضهم بعضاً ، كانوا يتبادلون القبل ، كانوا يتسارعون بنقل الأخبار ويسيرون بها ، يبشر دانيهم قاصيهم ، كانوا يقولون جهاراً وعلانية ، أن عهد الاستعباد قد ولى وأدبر ، كانوا فى المدن والقرى والبوادى يعلنون استعدادهم للموت ، فى سبيل الحياة ، كانوا يتساءلون فى لهفة : أين نجد السلاح ؟ من أين نأتى بالسلاح ؟ ما هو أقرب طريق وأضمنه للانضمام إلى المجاهدين ؟ . أما النسوة — وقد قمت ببحث شخصى فى الموضوع — فقد كن يعيرن القاعدين بالمجاهدين ، و كن يتساءلن فى لهفة عن الدور الذى يجب أن يقمن به فى هذه الوثبة الوطنية النهائية ، التى فيها الانعتاق وفيها التحرر بإرادة الله ، وبقوة سواعد الأمة الأبية .

جبهة التحرير الوطنى الجزائرى:

أن المنشورات التى وزعت منذ اليوم الأول على الأمة ، تعلم بإعلان الثورة الكبرى ، وتحدد أهدافها التى هى استقلال البلاد والتخلص من الحكم الاستعمارى ، كانت تحمل إمضاء « لجنة الثورة للاتحاد والعمل » .

لـكن سرعان ما تطورت الحالة تطوراً كان منتظراً . فأمام الاندفاع الشعبي العظيم نحو الثورة ، وأمام الرغبة الجماعية ، التي ظهرت من كل طبقات الأمة — وخاصة رجال السياسة ورجال العلم فيها — في المشاركة مشاركة فعالة في المسئوليات وفي إدارة العمليــات ، تخلى المسئولون الأولون عن اسم اللجنــة الأولى ، وأعلنوا تشكيل « جبهة التحرير الوطني الجزائري » التي فتحت أبوابها لقبول كل جزائري مخلص ، مهما كانت هويته القديمة ، ومهما كان حزبه السابق ، فالثورة تجب ما قبلها . فأصبحت فرق « جيش التحرير الوطني » تشمل الجميع دون ذكر حزب سابق ، وصارت منظمة « جبهة التحرير الوطني » وهي التي تعمل لتحقيق أهداف الجيش ، السياسية والعسكرية ، مفتوحة كذلك للجميع ، قد ذابت فيها كل الشخصيات ، وكل الحزبيات ، وكل النزعات الخاصة . وتمت المعجزة الثانية ، بعد معجزة الثورة : إلا وهي الاتحاد الوطني المقدس في سبيل الله والحرية والاستقلال ، فاندمج في هذا الاتحاد ، فوق ميدان الثورة ، وبين مسيل الدماء وتصاعد اللهب رجال اللجنة المركزية لحزب الانتصار ورجال الاتحاد الديمقراطي للبيان ، ورجال جمعية العلماء ، وأغلب الرجال الذين كانوا وطنيين مستقلين عن الأحزاب[1] .

(١) لهذه الجبهة وفد كبير بالخارج ، مركزه مدينة القاهرة ، يعمل تحت رياسة الأستاذ محمد خيضر ، من قدماء زعماء حزب الانتصار ، والنائب السابق بالمجلس الوطني ، والأستاذ أحمد بن بله ، من كبار زعماء الحزب ومنظماته السرية ، وقد كانا معاً بالقاهرة عند اندلاع الثورة ، يعملان لها ويهيئان أسبابها . ثم أرسلت الجبهة بقية أعضاء الوفد الذين يعملون في كل ميدان . من أقصى آسيا إلى أقصى أميركا . وهم :=

المنشور الأول

من جبهة التحرير الوطني الجزائري

« إلى الشعب الجزائري

إلى أنصار القضية الوطنية

إليكم أنتم المدعوين إلى الحكم علينا ، — الشعب بصفة عامة والأنصار بصفة خاصة — نتجه بهذا البيان . وغايتنا هي أن نوضح الأسباب العميقة ، التي دفعتنا لأن نشرح لكم برامجنا ، ومغزى حركتنا ، التي بقي هدفها دائماً هو تحقيق الاستقلال الوطني في نطاق الشمال الإفريقي . ولنا غاية أخرى في ذلك ، وهي أن نجنبك الوقوع في الغموض الذي يريد الاستعمار أن يحفك به ، هو وعملاؤه من رجال الإدارة والسياسيين المنحرفين .

إننا نعتبر قبل كل شيء ، أن الحركة الوطنية قد دخلت مرحلتها النهائية ، بعد مراحل طويلة مرت بها . ذلك أن هدف الحركة الثورية ، قد توفرت الآن جميع شروطه المرضية ، التي تيسر لهذه الحركة أن تشن الحملة التحريرية . ونحن نرى أن الشعب تحت ضوء ظروفه الداخلية ، قد أصبح متحداً وراء فكرة الاستقلال والعمل ، وأنه تحت ظروفه الخارجية قد

= محمد اليزيد — الحسين آيت أحمد — بوضياف — الحسين الأحول — دكتور محمد امين الدباغين — أحمد بودا — احمد توفيق المدني العباس بن الشيخ الحسين — عباس فرحات — عبد الرحمان كيوان — دكتور أحمد فرنسيس — عبد الحميد مهري — محمد بن يحي — محمد ابرهيمي .

بلغ مرحلة مرضية ، لحل المشاكل الصغرى ، التي من بينها مشكلة بلادنا ، وذلك بفضل المساعدة السياسية التي يبذلها لنا أخواننا العرب والمسلمون ، وحوادث تونس ومراكش ، لها مغزاها في هذا الصدد ، وهي تسجل جانباً عظيما من جوانب قضية تحرير شمال أفريقيا ، ولنسجل في هذا الصدد ، أننا كنا منذ زمن طويل ، حريصين على وحدة العمل ، الذي لم يتحقق مع الأسف بين أقطارنا الثلاثة .

ساعة الخطر

« أما اليوم فإن كلا من تونس ومراكش قد دخلتا في هذه الطريق ، وبقينا نحن وراءهما نتحمل عواقب من فاتهم الركب ، وهكذا فإن حركتنا الوطنية ، التي مرت عليها سنوات من الجمود ، والتوجيه المنحرف ، وفقدان المساندة الشعبية الضرورية ، قد أخذت تدخل شيئا فشيئا ، في الحالة التي يغتبط بها الاستعمار أعمق الاغتباط ، حتى أصبح يعتبر أنه تحصل على أكبر انتصار ، على قيادة الحركة الوطنية الجزائرية .

ان الساعة ساعة خطر ، وأمام هذه الوضعية التي توشك أن تصبح ميؤوساً منها ، رأى جمع من الشبان المسؤولين الواعين لهذا الخطر ، والذين جمعوا حولهم عناصر سالمة ، ذات تصميم واضح ، رأت أن الوقت قد حان ، للخروج بالحركة الوطنية من المأزق الذي تردت فيه ، بسبب تناحر الأشخاص ، وتزاحم النفوذ ، وعزموا على أن ينطلقوا إلى جانب إخوانهم التونسيين والمراكشيين ، في المعركة التحريرية الحقيقية .

ونحن نحب أن نؤكد فى هذا الصدد ، أننا مستقلون عن الطرفين ، اللذين يتنازعان النفوذ فى الحركة الوطنية . وحركتنا التى وضعت المصلحة الوطنية فوق جميع الاعتبارات الحقيرة ، حول الأشخاص ومكاناتهم ، والتى تتمشى مع المبادىء الثورية ، لا عدو لها تقاومه إلا الاستعمار الأعمى ، الذى لم يتح لنا فى أى وقت من الأوقات ، أن ننظم نضالا سلميا .

جبهة التحرير

هذه هى الأسباب التى جعلتنا نتقدم بحركتنا تحت اسم ، « جبهة التحرير الوطنى » . وبذلك تتيح هذه الحركة لجميع الوطنيين الجزائريين ، مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية ، ومهما كانت احزابهم وحركاتهم الجزائرية الخاصة ، أن يندمجوا فى معركة التحرير دون أى اعتبار آخر .

ولكى نزيد الأمر تفصيلا وتوضيحا ، فها هى الخطوط العامة لبرنامجنا السياسى :

الهدف — هو الاستقلال الوطنى ، بواسطة إيجاد دولة جزائرية ، ذات سيادة و ظام ديموقراطى اشتراكى ، فى دائرة المبادىء الاسلامية ، مع احترام جميع الحريات الأساسية ، دون أى ميز فى الدين أو المعتقد .

وغايتنا فى الميدان الداخلى ، هى التطهير السياسى ، وذلك باعادة الحركة الوطنية فى طريقها الثورى الصحيح ، والقضاء قضاء مبرما على جميع ألوان

الاحتيال ، والدخول فى سياسة الاصطلاحات ، التى هى سبب تقهقرنا الحالى . وغايتنا هى أيضاً لم شتات جميع الطبقات السليمة للشعب الجزائرى، لتصفية حساب النظام الاستعمارى .

وغايتنا فى الميدان الخارجى ، هى تدويل القضية الجزائرية ، وتحقيق وحدة شمال أفريقيا فى نطاقها الطبيعى ، الذى هو النطاق العربى الإسلامى .

وموقفنا فى دائرة ميثاق هيئة الامم المتحدة ، هو تأكيد صداقتنا الفعالة لجميع الدول التى تساند قضيتنا التحريرية .

أما وسائل الكفاح فهى — تبعا للمبادىء الثورية ، ونظراً للوضعية الداخلية والخارجية — هى مواصلة الجهاد بجميع الوسائل إلى أن يتحقق هدفنا إن شاء الله .

مهمتان مرهقتان

« وجبهة التحرير الوطنى ، لكى تحقق هذا الغرض ، يجب عليها أن تقوم بمهمتين اساسيتين متماشيتين فى وقت واحد . أولاهما : عمل داخلى فى الميدان السياسى ، وفى ميدان العمل والكفاح ، وثانيتهما : فى الميدان الخارجى ، حتى تصبح المشكلة الجزائرية حقيقة فى نظر العالم كله ، بمساعدة جميع حلفائنا الطبيعيين .

وهذه المهمة المزدوجة مهمة ثقيلة الوطأة مرهقة ، تتطلب تجنيد جميع الطاقات ، وجميع الموارد الوطنية . وصحيح أن المعركة ستكون طويلة الأمد ، ولكن انتصارنا فيها لا شك فيه إن شاء الله .

وأخيراً — لكى يقع تجنب جميع التأويلات الخاطئة أو المغرضة ولكى يقع تجنب إزهاق الأرواح وإراقة الدماء — فإننا نقدم أسساً شريفة ، لمفاهمات مع السلطات الفرنسية ، إذا كانت لهذه السلطات استعدادات طيبة ، للاعتراف أخيراً للشعوب التى تتحكم فيها بحقها فى تقرير مصيرها .
وهذه الأسس هى :

أسس المفاوضات

« ١ — فتح مفاهمات مع الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائرى ، على أساس الاعتراف بالسيادة الجزائرية ، الوحدة التى لا تتجزأ .

٢ — إيجاد جو من الثقة ، وذلك باطلاق سراح جميع المساجين السياسيين ، ورفع جميع التدابير الاستثنائية ، والتوقف عن تتبع قوات المقاومة .

٣ — الاعتراف بالشخصية الجزائرية فى تصريح رسمى ، ينسخ جميع القوانين التى صيرت الجزائر أرضاً فرنسية بالرغم من التاريخ ، والجغرافيا ، واللغة ، والدين ، والعوائد التى يتصف بها الشعب الجزائرى .

وفى مقابل ذلك نتعهد بما يلى :

١ — إن المصالح الفرنسية الثقافية والاقتصادية ، التى تحصلوا عليها بطريقة شريفة تكون مضمونة ، وكذلك الأشخاص والعائلات .

٢ — جميع الفرنسيين الراغبين فى البقاء بالجزائر يكون لهم الخيار بين جنسيتهم الأصلية — وفى هذه الحالة يعتبرون أجانب بالنسبة للقوانين المعمول بها ؛ وبين الجنسية الجزائرية — وفى هذه الحالة يكونون معتبرين جزائريين لهم ما للجزائريين من حقوق وعليهم ما على الجزائريين من واجبات — .

٣ — العلاقات بين فرنسا والجزائر ، يقع تحديدها ، وتكون موضوع مفاوضات بين الدولتين ، على قدم المساواة والاحترام المتبادل .

وبعد ؛ فيا أيها المواطن الجزائرى الحر . . إننا ندعوك إلى التأمل فى هذا الميثاق . وإن واجبك المقدس يدعوك إلى الانضمام إليه ، لإنقاذ بلادنا وإعادة حريتها إليها .

إن جبهة التحرير الوطنى جبهتك ، وانتصارها هو انتصارك .

أما نحن الذين عزمنا على مواصلة الكفاح ، والذين لا نشك فى عواطفك المعادية للاستعمار ، والذين نعتبر أنفسنا أقوياء بمساندتك وتأييدك ، فإننا سنهب أعز ما نملك لوطننا .

« جبهة التحرير الوطنى الجزائرى .»

الحركة الوطنية :

إنما لم يرد السيد أحمد الحاج مصالى ، ومن بقى معه ، الانضمام لهذه الحركة الوطنية الجماعية التلقائية الفريدة ، فأعلنوا تأسيس « الحركة الوطنية الجزائرية » . لكن كامل فرق جيش التحرير العاملة فى كل جهات البلاد قد أعلنت استنكارها لهذا الموقف ، ووصفته بأشنع الأوصاف ، وأعلنت فى صراحة وفى صرامة ، أن الجيش واحد ، هو جيش التحرير الوطنى ، وأن القيادة السياسية واحدة هى « جبهة التحرير الوطنى » . وهكذا نجت الأمة باجماعها وبوحدتها ، ولم يقع فى صفوفها الداخلية أى اضطراب . وسيقول التاريخ كلمته فى ما عدا ذلك .

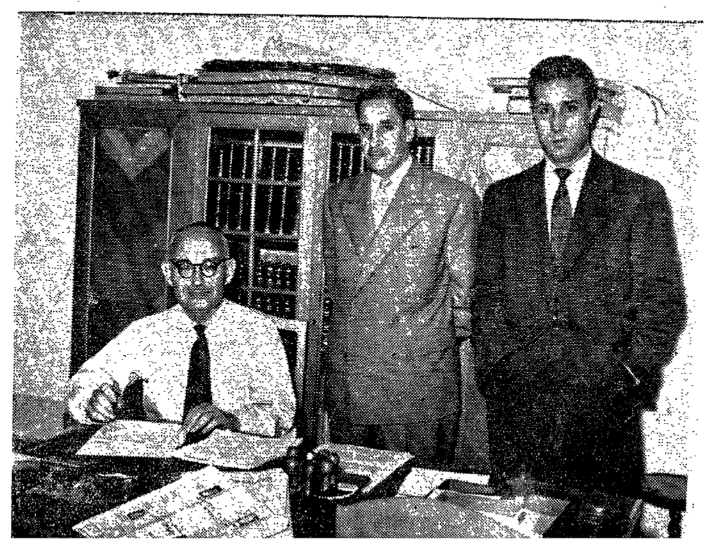
ولنسر الآن مع الحوادث العسكرية ، فى إيضاح موجز ، كى نلم بحوادث الثورة من جميع أطرافها .

جبال أوراس

ما كادت تنقضى أيام الدهشة الأولى ، حتى فهم العسكريون الفرنسيون أن الثورة قد استقرت بصفة متينة ، راسخة ، فى جبال أوراس الكثيفة ، ذات القمم الشاهقة والمغاور والكهوف . فأخذت القوى الفرنسية تتوجه مسرعة نحو ذلك الهدف الصعب . وكان الثائرون فى جبال أوراس قد استعدوا فعلا لحرب طويلة المدى ، وجمعوا لها سلاحا وعتادا وذخيرة ،



جماعة من أعضا وفد جبهة التحرير الوطني بالقاهرة . من اليمين إلى اليسار ، الساده محمد خيضر الدكتور أمين الدباغين — الدكتور أحمد فرنسيس — أحمد توفيق المدني — عباس فرحات أحمد بودة — عبد الرحمان كيوان .



من أعضاء وفد
جبهة التحرير
الوطني بالقاهرة
من اليمين إلى
اليسار ، السادة
أحمد بن بللة
عباس فرحات
أحمد توفيق
المدني

ثم أخذوا يوالون نصب الكمين للجند الفرنسى ، فى الطرق الملتوية التى تخترق شعاب الجبال نحو الصحراء ، فكانوا يرجعون من كل كمين بالشىء الكثير من السلاح والذخيرة ، وبعدد من الأسرى ، بعد قتل الجماعة الكبيرة من رجال الفرقة الفرنسية أو افنائها بصفة تامة .

وكان بطش الفرنسيين شديدا . فالقوى التى بعثوا بها على جبال أوراس أخذت تدمر بواسطة الطائرات القرى والمداشر ، والمدفعية الجبلية تفتك بالسكان فتكا ذريعا .

ثم ابتكر الجند الفرنسى وسيلة لأبعاد السكان عن الجبل ، فعينوا لهم منطقة وأمروهم بالارتحال اليها . لكن لم يطع أمرهم إلا النزر اليسير ممن تحت سلطانهم المباشر ، وبقى الناس رجالا ونساء فى الجبل الأشم ، إلى جانب جيش التحرير يحيون معه محياه ، ويموتون معه مماته ، ويبنون معه بدمائهم ، وفوق أشلائهم ، معقل الحياة الحرة الجديدة .

وتطورت الحالة تطوراً سريعاً . وأخذت النجدات الفرنسية تتوالى ، وأعمال العسف والتنكيل ، وسنصفها فيما بعد ، تعظم وتشتد .

لكن المجاهدين كذلك كانوا يعززون قواهم ، وكان الأباة الأحرار يفدون عليهم من كل حدب وصوب ، فبينما هم ظلوا يقاومون الفرنسيين على حدود الجبل ، وفى طرقاته وشعابه ، كانوا من جهة أخرى يحطمون المراكز الفرنسية المتغلغلة فى جهات الجبال الآهلة (سكان الأوراس

يزيدون عن المائتى ألف نسمة) ، وهكذا تمكنوا من تحرير أكثر جهات الجبال الداخلية التى لم يبق فيها ممثل للسلطة الفرنسية . ومنعوا عن الفرنسيين نهائياً اجتياز الطرق الجبلية نحو الجنوب .

كانت خسائر الثائرين المجاهدين مؤلمة . وقد استشهد فى الأيام الأولى أحد كبار قادتهم : الشهيد بلقاسم قرين ، لكن خسائر الفرنسيين كانت — باعترافهم — أعظم وأكبر سواء فى الأنفس أو فى السلاح والعتاد الذى غنمه المجاهدون . واستمر ضغط الفرنسيين على الأوراس عظيما قاسيا إلى أن رأت القيادة التحريرية تخفيف ذلك الضغط ، بفتح واجهات أخرى منظمة استمدت لها ، فاضطر الفرنسيون حينئذ لمقابلة الأخطار الجديدة ، وخففوا من عملياتهم ضد الأوراسيين الذين ثبتوا فى صياصيهم ثباتا ستذكره الأجيال بعد الأجيال . ويكتفى الفرنسيون اليوم باحتلال المدن التى تحيط بالجبل تاركين إدارته لبنيه ، والمجاهدين فيه ، تحت قيادة الزعيم مصطفى بن بولعيد .

فسائر المنطقة التى تقع بين مدن : خنشلة شرقاً ، وباطنه غرباً ، وبسكرة جنوباً ، يمكن اعتبارها منطقة محررة ، هى معقل الحرية ، وهى التى تتكسر فوق صخورها الموجات العسكرية الفرنسية . وقد جرب الفرنسيون استعمال نار « النابالم » من الطائرات ، كما جربوا عدة وسائل تكتيكية أخرى فلم ينالوا — ولن ينالوا — من الأوراسيين منالا ، وقد ذاع ذكر معارك فم الطوب ، ومدينة ، ومنمة ، ومشونش ، وخنقة سيدى ناجى ، وفى كل أحرز المجاهدون انتصارات باهرة .

جبال النمامشة

فيما بين جبال الاوراس الآنفة الذكر وهى جبهة القتال الأولى ، وبين حدود المملكة التونسية ، تقع جبال النمامشة ، فى الجنوب الشرقى ؛ تسكنها فرقة من الجبليين الجزائريين ؛ من أصلب الناس عوداً وأشدهم مراساً. وتعتبر جبالهم أصعب من جبال أوراس ، لقلة سكانها ، وقلة طرقاتها .

فلما اشتد ضغط الفرنسيين على بلاد أوراس الأبية ، وحاولوا الاحداق بها من كل جهة ، وجدت الثورة متنفسها الطبيعى فى جبال ابطال النمامشة الأحرار فاتجهت إليها ، وكانت على استعداد ، واستجـــاب اهلها لداعى الجهـــاد استجابة الرجولة والهمة والشرف ، وحمل الناس اجمعون مالديهم من السلاح ، وأثخنوا فى الفرنسيين وكبدوهم خسائر عظيمة وغنموا مرارا كل ما كان مع الفرنسيين من سلاح ومن عتاد ، فكانت معارك « الجرف » المتكررة كما كانت معارك «قنطيس» من أووع صفحات التاريخ الحربى الجزائرى ، فى هذه الملحمة التحريرية الكبرى.

ورغم أن القوم منوا بخسائر كبيرة ، من جراء رمى الطائرات ، فإن كافة بلاد النمامشة تعتبر محررة ، مع جبال الأوراس ، فلا يجتازها الجند الفرنسى إلا نادراً . وبواسطة تضحيات جمة . ويتولى قيادة هذه الحـ ة القائد « سى صالح » .

بلاد القبائل الكبرى

جبال زواوة الشهيرة فى التاريخ الجزائرى ، كانت منذ أقدم العصور مهد الحرية وموطن الأحرار ، وكانت فى كل أطوارها القديمة والحديثة ، منبع ثورات عظيمة ، تمتاز بالشدة والعنف وقوة الشكيمة . ولا ننسى ماذا كبدت الاستعمار ، وماذا كبدها الاستعمار ، من خسائر عظيمة ، اثناء ارضاخها للاحتلال اولا ، واثناء ثوراتها المتوالية بعد ذلك .

فعندما كانت نيران الحرب تتقد فى جبال اوراس اتقادا ، وحين كان كبس الفرنسيين عظيما على تلك الجهة ، رأت قيادة جيش التحرير الوطنى وجوب المبادرة بعمليات حربية على نطاق واسع ، وفى جبهة بعيدة عن الجنوب الشرقى فتقدم لها الاحرار اباة الضيم ، من رجال زواوة وجرجرة ، وهى البلاد التى تدعى بلاد القبائل الكبرى .

وقد كانت المناوشات تقع فى تلك الجبال الشاهقة منذ اليوم الأول وكانت الطرق تقطع على الفرنسيين باستمرار ، لكن الجبال التهبت كلها دفعة واحدة بعد ذلك فى حمله ثورية صادقة ، شملت كل الجهات على السواء . ولقد اضطرت القيادة الفرنسية لتجريد كل قواها الموجودة ، ضد اهل هذه الجبال . لكن الجيش الفرنسى لم يكن مستعدا لمقابلة حرب العصابات او حرب الكمين ولم يكن مجهزا للقيام بمثل هذه الحركات فكان يكتفى بضرب المدن والقرى ، وتحطيم الديار والمنازل ، واحتلال المدن وبعض القرى الضخمة ، ومنع الزاد والميرة عن المجاهدين .

وكانت طريقة الجهاد فى هذه الجبال تسير وفق الطرق التقليدية العتيقة : تطهير الداخل من كل احتلال ، ونصب إدارة محلية فى الجهات المحررة ، والانقضاض على الجند الفرنسى فى معاقله ، وأثناء تجوله أو سيره ، وتحميله الخسارة الفادحة فى الأرواح والسلاح والعتاد .

كانت نكبة فرنسا مؤلمة لها جد الألم بهذا القطر الجبلى ، لأنها كانت تسعى السعى الحثيث لفصله عن بقية القطر الجزائرى ، والسير به فى طريق الفرنسة بله فى طريق المسيحية ، فإذا به يكون فى طليعة المقاومة الوطنية ، وتكون جبهة القتال فيه ، سواء فى وسطه أو على أطرافه ، اشد ما يكون عنفا ، وأعظم ما يكون مراسا .

وقد استعملت السلطة الفرنسية أكثر ما لديها من وسائل البطش والقمع ، وتجاوزت الحد فى الفظائع والموبقات ، وصبت على الجبل وابلا من القنابل الحارقة والمدمرة : لكن المجاهدين ثبتوا ثباتا مدهشا ، وما تركوا للفرنسيين شيئا مما كانوا قد احتلوه .

ثم حاول الفرنسيون تطويق الجبال ، والفصل بينها بمعاقل فرنسية .. لكن المحاولة باءت بفشل ذريع ، وبقيت الجبال الداخلية محررة تحررا تاما ، تحكمها إدارة محلية اسلامية ، بينما تستمر الحرب العوان على الخطوط المحاذية لسفح الجبال ، من سيدى عيش وازفون شرقا ، إلى يسر وبالسترو غربا .

ولا تزال الجندية الفرنسية تقاسى إلى اليوم عذاب الهون ، من جراء

هذه الحرب القاسية الجبلية ، فى جهة حساسة جدا ، لأنها تحتل واجهة على البحر طويلة ، من جهة ، ولأنها من جهة أخرى تتحكم فى طرق المواصلات الكبرى مع كامل الجهة الشرقية .

ويقود المجاهدين فى هذه المنطقة الجبلية الوعرة ، القائد كريم بلقاسم ، فالقائد بوعمران ، ولا تزال ، كالاوراس ، منطقة حرية ، ونضال شديد المراس .

الشمال الشرقى

هذه الناحية تشمل فى الحقيقة عدداً من الواجهات ، تمتد على ساحل البحر من القالة على حدود تونس شرقا ، إلى القل غرباً ، ثم تنحدر من « الميلية » إلى ميلية وتتجه صوب الشرق مع الخروب ، وعين عبيد ، إلى جبل الونزة على الحدود التونسية . فهذه الجبهة التى يهيمن عليها القائد « يوسف زيغود » هى أوسع الجبهات مساحة ، وأ كثرها عمراناً ، وأعظمها ثروة ، ثم هى لا تمثل وحدة متماسكة ، بل هى مجموعة من وحدات صغيرة ، يقع بعضها فى الشمال : كالقالة ، والقل وبعضها فى الشرق : كداوروش وسوق أهراس . ومجاز الصفا . وصدراته ، ومرسط ، وبعضها فى الوسط ، كالخروب ووادى الزناتى وعين عبيد ، وأم البواقى . وبعضها فى الغرب ، كالميلية ، وميلة ، وقرارم ، وفج مزالة . وغيرها .

هنا تقع جهات كثيرة جداً تحت سلطة الثائرين المجاهدين وإدارتهم المباشرة ، ولا يتجول الجند الفرنسى إلا بكل صعوبة بين ناحية وأخرى . فالمدن الكبيرة فى هذه الجهة ، وهى أ كثر جهات الجزائر خصباً وعمراناً

تقع تحت الاحتلال الفرنسى ، وتجرى بها أعمال المجاهدين بين حين وآخر . أما البادية والقرى ، والطرق ، فهى تحت إشراف جيش التحرير الوطنى ، يتصرف فيها كما يشاء .

وكما كانت أغلب جهات هذه الناحية الفسيحة ، مسرحاً لتلك الفظائع والمنكرات التى وقعت أثناء مذابح ٨ ماى ١٩٤٥ ، فإن العسكرية الفرنسية قد اتخذت منها ميدانا جديداً لأعمال القمع والزجر والتنكيل ، والقتل الجماعى ، كما سيرد ذكره فيما بعد ، فمنيت هذه الناحية بالخسائر الفادحة فى الأموال والأنفس والثمرات . لكن كل محاولات الفرنسيين قد أخفقت اخفاقاً تاماً فى إرضاخها وإذلالها . وهى اليوم (موفى يوليو ١٩٥٦) أقوى ما تكون إيماناً وحمية ، وتماسكاً وإمعاناً فى إلحاق الهزيمة بالجند الاستعمارى .

وقد كانت حوادث ٢٠ اوت ١٩٥٥ فى هذه الناحية ، صفحة جديدة من صفحات الثورة الجزائرية ، فقد التهبت الحوادث التهاباً غريباً بكامل هذه المنطقة ، مما غير شكل الثورة وا كسبها صورة أخرى

وادى الساحل

هـذه المنطقة تعتبر متممة لواجهة بلاد القبائل الكبرى ، فهى تقع جنوبها الشرقى ويدير العلميات فيها القائد الزعيم « عميروش » وتشمل هذه المنطقة التى أذاقت الاستعمار الأمرين جهات : قنزات ، وبنى ورتيلان ، بوقرقور وبجانة إلى سطيف .

ولقد نشطت الأعمال الحربية فيها نشاطاً عظيماً خلال سنة ١٩٥٦ ، إذ كان المجاهدون قد طهروا الأرض فيها ، من كل استعمار ، وحرورها بصفة تكاد تكون تامة ، فلم يبق للاستعمار إلا القليل من السلطة فى بعض المدن ، لكن الجيش الفرنسى قد أعاد الكرة بقوة وبعنف ، واحدق بكامل الجهة وأراد أن يسجل لنفسه نصراً (يكون هو الأول منذ اعلان الثورة) بمحق القوة المجاهدة بوادى الساحل وجبل قرقور . لكن المجاهدين الذين هيجتهم الحمية ، قد قابلوا الجند الفرنسى وجها لوجه ، وتكبدوا خسارة كبيرة ، وكبدوه كذلك اضعافها ، إنما هم لم يقعوا فى الشرك الاستعمارى ، ونجوا بفرقهم المجاهدة إلى مراكز أخرى ، فما كاد يمر الجند الفرنسى حتى رجعوا إلى مراكزهم وتحصنوا فيها من جديد . فاذا استثنينا بعض المدن والقرى الكبيرة التى يحتلها الفرنسيون ، فان معظم جهات البلاد سهولا وجبالا ، تقع تحت إشراف المجاهدين .

منطقة وهران

لم تكن هذه المنطقة قد تحركت كثيرا ، اوائل عهد الثورة ، فكانت تكتفى بعمليات خفيفة ، ومعارك قليلة ، لا تتعدى النطاق المحلى . إنما كانت تستعد اثناء ذلك . وكانت تحزم أمرها للقيام بالعمل الحاسم . فى خلال سنة ١٩٥٥ أخذت تقض مضاجع الفرنسيين ، وأجبرتهم على نقل القوى العديدة لمجابهة الخطر فيها ، ثم التهبت الثورة فيها بصفة مدهشة خلال سنة ١٩٥٦ وانتشرت ،

وانضم إليها الناس افواجا ، فكانت هـذه الجهة ميدانا لوقائع عظيمة ومعامع مدهشة ، كبدت الفرنسيين خسائر كبيرة فى الأرواح والعتاد ، واضطروا للارسال قوى البحر والبر والجو عليها ، فى عملية كانت من أكبر عمليات هذه الحرب (يونيو ١٩٥٦) ، لكن المناورة الفرنسية اخفقت أخفاقا تاما ، وارتد الفرنسيون دون أن ينالوا منالا من المجاهدين الذين بقوا سادة الموقف ، وبقوا مالكين زمام المبادرة .

وتمتد هذه المنطقة من الحد المراكشى غربا إلى حوالى مدينة مستغانم شرقا ، وتنحدر إلى سيدى بلعباس ثم تشمل كامل جبال تلمسان ، واشتهرت بها معارك بنى صاف ، والغزوات (نمور) وندرومة ، وتساله ، وضواحى تلمسان ، وقد نال المجاهدون فى جميعها انتصارات كبيرة ،وغنموا من الفرنسيين غنائم عظيمة ، ولا تزال هذه الواجهة ثابتة ثبات الأطواد فى وجه القوة الفرنسية ، بحيث لا وجود لسلطة الاستعمار فيها إلا فى بعض المدن والقرى الكبيرة . أما البادية ، وبقية القرى ، والطرق فهى تحت حكم أو تحت إشراف المجاهدين . ويقود هذه الواجهة ويدبر أمورها ، القائد « المبروك » .

جبال الوسط والجنوب

تعتبر جبال تيطرى والونشريس ، وهى العمود الفقرى لجبال الاطلس التلى ، واجهة ثانويه ، تشد ازر الواجهات السابقة ، وتساعد على أعمالها ،

ى تراقب جهات البليدة ، والمدية ، والبرواقية ، وثنية الحد ، وقصر
خارى ، فالاستعمار فى هذه الناحية كلها يذوق كل يوم وكل ليلة العذاب
ليم ، وتحطم منشآته ، وتحرق مزارعه ، ولا يستطيع الجندى الفرنسى
يجتاز هذه المنطقة الحيوية لمواصلاته إلا بجهد جهيد ، وبعد تكبد خسائر
حة مستمرة . وقد ذهبت كل جهوده لاخماد حركتها أدراج الرياح .

أما فى جبال الجنوب ، فإن حركة الثورة قد امتدت واشتدت ، وشملت
التوالى جبال الزاب (وكانت السابقة منذ عهد الثورة) ثم جبال عمور ،
خيراً جبال القصور إلى الحد المراكشى الجنوبى . وهذه حركة خطرة جداً
النظام الفرنسى فى سائر جهات إفريقيا المستعمرة : لأن الطرق الاستعمارية
كبرى ؛ التى تصل شمال الجزائر ببلاد الجنوب وتتسرب إلى الصحراء
كبرى ، وإلى موريطانيا ، وإلى التشاد وغيرها ، تجتاز هذه الجبال ، فإذا
انقطعت هذه الطرق ، أو أصبحت غير آمنة ، لم يبق للفرنسيين من
سائل الاتصال ، إلا طريق الجو .

فجماعة الأوراس والزاب قد جعلوا طريق سوف الثائر وتقرت وورقلة ،
صالحة للاستعمال ، وجماعة جبال أولاد نائل ، يهددون كل يوم وكل
ة الطريق العسكرى الكبير الذى يصل الجلفة بالأغواط . فلا تسير
، إلا القوافل المسلحة ، ولا تمر غالباً إلا بعد معارك ومقتلة عظيمة .

وجماعة جبال القصور قد أعدموا المواصلات الفرنسة على طريق البيض
جرفيل » وعين صفراء . ثم أن انتشار الثورة فى هذه الجبال المتواصلة ،

د ال الأطلس الصحراوى ، من الأوراس شرقا ، إلى القصور غرباً ، يحصر الجند الفرنسى فى المنطقة الشمالية ، ويفصل بين الشمال والجنوب ، ويجبر الفرنسيين على حشد قوى عظيمة بهذه الجهات الوعرة ، كيلا يفقدوا بصفة تامة كل اتصال بالجنوب ، فهذه العمليات خففت الضغط كثيراً على الواجهات الست الآنفة الذكر .

وختاماً فلا يجب أن نغفل نتيجة اشتعال الثورة بجبال القصور ، ألا وهى وقوع المعارك الحربية الكبيرة على حدود المغرب الأقصى ، واستيلاء المجاهدين فعلاً على واحات الفقيق ، وجهات بشار الجنوبية .

الجبهة الداخلية : المدن ، الطرقات ، المزارع ، المنشآت

العمليات فى كل منطقة من مناطق الثورة التى فصلناها فيما سلف ، تقع على ثلاثة أنواع :

أولاً : معارك حربية ناشطة ، قوية ، تقع بصفة مستمرة بين المجاهدين والجند الفرنسى فى حالة ما إذا أرادهذا الجند مهاجمة مركز للمجاهدين ، أو اجتياز طريق يكمن فيه المجاهدون ، أو فى حالة ما إذا رأى المجاهدون مهاجمة مركز فرنسى لتحطيمه ، وقتل حاميته أو أسرها ، والاستيلاء على سلاحها .

ثانياً : داخل المدن والقرى الكبيرة التى يحتلها الفرنسيون ، ومنها العواصم كمدينة الجزائر ، وقسطنطينة ، ووهران ، وتلمسان ، وعنابة ، وبجاية ، وسكيكدة ، وبسكرة ، وباطنة ، وغيرها ؛ يوالى المجاهدون

أعمالهم دون انقطاع ، منذ ماشبت الثورة إلى الآن ، فيغتالون الجند وكبار المستعمرين ، ويقتلون كبار الخونه المحكوم عليهم بالاعدام من قِبل محاكم الثورة ، وينسفون المراكز الحكومية ، ويهاجمون الثكنات للاستيلاء على الأسلحة ؛ ويحرقون فى المدن والقرى والبادية سائر المدارس الحكومية التى يسكنها الجند ويتخذمنها ثكنات ، وسائر ديار حراسة الغابة التى صارت مراكز عسكرية استعمارية ، بحيث أصبح الأوربيون من سكان المدن والقرى فى حالة ذعر وخوف شديدين . فإذا علمنا أن هؤلاء السكان هم عمدة الاستعمار ، وهم أكثر الناس مناكبة لآمال الجزائريين ، وأنهم قد تسلحوا وشكلوا فرق « الدفاع الذاتى » لصيد المسلمين والامعان فى قتلهم وتعذيبهم ، رأينا جدوى عملية المجاهدين داخل المدن والقرى ، فلولا هذا العمل الذى أصبح كابوساً جاثماً على صدر الجند الفرنسى وعلى صدر غلاة رجال الجالية الفرنسية ، لأمعنوا فى قتل وتعذيب الجزائريين والاعتداء عليهم بصفة لا يتصورها العقل .

ثالثاً : بما أن الاستعمار مادى بحت ، دينه المـال ، ومبدؤه الثروة ، [illegible] ، فمحاربة الاستعمار لا تقع فى الميدان الحربى ، وبعمليات ضد الجند الفرنسى فحسب ، بل تقع إلى جانب ذلك وأكثر من ذلك ، فى الميدان الاقتصادى .

فالمجاهدون فى كل منطقة من مناطق الثورة قد خربوا معظم الثروة الاستعمارية الفرنسيه ، وحطموا أغلب المزارع ، واحرقوا أكثر المزروعات

وقطعوا أشجار الكروم والأعناب التي هي منبع ثروة الاستعمار . فكانت خسارة المستعمرين من هذه الناحية تتجاوز حسب إحصاء مبدئى مبلغ ٣٥٠ ملياراً من الفرنكات ، (٣٥٠ مليون جنيه) واضطر أكثر المستعمرين فى الداخل إلى الالتجاء إلى المدن تاركين القرى والمزارع المحطمة للمجاهدين

القوى المتقابلة

قوة المجاهدين

أنت ترى من هذا العرض البسيط المختصر ، أن الثورة قد شملت كل جهات القطر الجزائرى ، وأنهـــا تحارب الاستعمار عسكريا واقتصاديا و « عصبياً » فى كل مكان : فى كل بادية ، وفى كل جبل ، وفى كل مدينة وفى كل قرية ، فما هى قوة المجاهدين يا ترى ؟ وما هى القوة التى تقابلهم بها فرنسا ؟ وما هو البون الشاسع بين القوتين من جهة السلاح ؟ .

إن القوة الأساسية التى يعتمد عليها المجاهدون الأبرار ، هى قوة الروح ، قوة العزيمة ، قوة الإيمان . وتلك قوة ما غلبتها فى العالم قوة .

فالمجاهدون المسلحون ، لا يتجاوز عددهم فى القطر الجزائرى بأسره الثلاثين ألف رجل . وهم ينقسمون إلى قسمين :

١ — الجند النظامى الجزائرى ، وعدده نحو خمسة عشر ألفا ، وهو يرتدى اللباس العسكرى الكاكى اللون . ويخضع لنظام عسكرى فى انقياد صارم ، ويتألف معظمه ممن خدموا الجندية من قبل ، وشاركوا فى الحرب



(ش ٣٠)
الجند النظامى فى خندق ينازل طائرة

الـكبرى أو حرب الهند الصينية ، وفيه جمع عظيم من الجزائريين الذين فروا من الجندية الفرنسية ، وانضموا للمجاهدين بسلاحهم وعتادهم ، إلى أن تفاقم أمرهم ونما عددهم ، فاضطرت فرنسا لتسفير الجنود المسلمين العاملين فى صفوفها كرها ، إلى خارج البلاد .

٢ - نحو خمسة عشر ألفاً من المجاهدين المتطوعين ، الذين تدربوا على حرب الـكمين ، وأغلبهم جاء من الجهات التى دمرها الجند الاستعمارى تدميراً ، وارتـكب فيها الموبقات والفظائع والآثام. فهؤلاء المتطوعين جاؤوا انتقاماً لعرضهم ولشرفهم ولأمواتهم ، وللمشاركة فى تقويض أركان هذا الاستعمار الآثم الذى أفقر البلاد وأذلهـا ، وأراد أن يستأثر فيها بكل شىء فانتزعت الثورة منه كل شىء .

السلاح :

البندقية والخنجر والمسدس. ذلك هو السلاح الأساسى لفرق المجاهدين ، وخاصة المتطوعين منهم .

أما الفرق النظامية ، فتملك الرشاشات ، والبندقيات السريعة الطلقات (المترايات) وتستعمل القنابل اليدوية بكثرة وإجادة .

ولدى الـكثير من فرق المجاهدين ، وخاصة فى الأوراس ، وجهات الشمال الشرق الجزائرى ، والبلاد القبائلية والوهرانية ، عدد من المدافع المضادة للطيران وعدد من مدافع الهاون ، وبعض القطع المدفعية الجبلية ، وقد غنموا أغلب ذلك من الفرنسيين .

فقليل من هذا السلاح كان موجوداً بالبلاد ، مدخراً لوقت الحاجة .

وقليل منه جاء البلاد أيام الثورة بواسطة التهريب ، وقد اشترى من مختلف الأسواق العالمية . أما معظم السلاح ، فقد غنمه المجاهدون من الجند الفرنسى ، أثناء المعارك ، بواسطة الهجوم على الثكنات والمراكز ، أو جاء به الجنود الجزائريون الذين كانوا يعملون تحت راية الجندية الفرنسية

فهذه القلة فى السلاح ، هى التى جعلت الحرب تطول فى البلاد الجزائرية مدة عشرين شهراً إلى اليوم . ولو كنا نملك فى القطر الجزائرى عشرين ألف بندقية ورشاشه إلى جانب ما لدينا ، لكنا قد صفينا حسابنا مع الاستعمار منذ أشهر طويلة .

الرديف :

ذلك أنه يوجد نحو الثلاثمائة ألف رجل من الأشداء الأقوياء ، يرغبون المشاركة فى أعمال القتال ، ويريدون الاندفاع فى معركة التحرير ، وقد سجلت مختلف قيادات الثورة أسماءهم ، لكن قلة السلاح تركتهم ينتظرون ، فما سقط مجاهد فى ميدان الشرف ، إلا وأسرعت جماعة من رجال الرديف تتزاحم على أخذ بندقيته ، واحتلال محله .

القيادة :

كل منطقة من مناطق الثورة تقع تحت سلطة « القائد العام » الذى يعتبر المسئول لدى جيش التحرير الوطنى عن كل مايقع داخل منطقة الثورة عنده .

وتجتمع حول القائد العام هيئة أركان حرب ، مؤلفة فى أغلبيتها من قدماء ضباط الجند الذين عمل أكثرهم فى الحرب الكبرى وحرب الهند الصينية . وإلى جانب القيادة العسكرية يوجد « المندوب السياسى » الذى يمثل جبهة التحرير الوطنى ، ويسهر على نظام المنطقة ويشرف على إدارتها .

ويتولى الضباط الجزائريون الأقدمون قيادة الجند ، على نفس نظام الجند الفرنسى ، ثم أن عدداً من هؤلاء الضباط يقودون وينظمون أمور الفرق المتطوعة التى تعمل إلى جانب الجند النظامى وتحت أمره .

ولكل منطقة من مناطق الثورة أستقلال واسع فى إدارة حركاتها العسكرية . انما هى تنفذ بكل دقة أوامر وتوجيهات « القيادة العليا لجيش التحرير الوطنى » الموجودة بالبلاد الجزائرية .

الشعب :

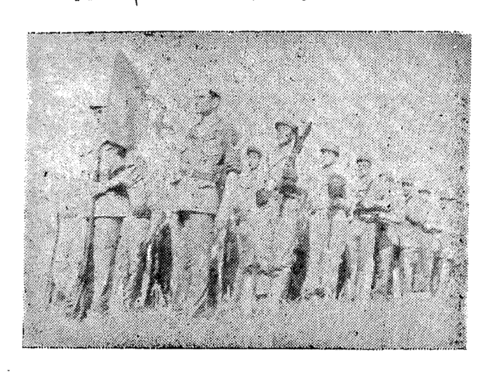
أما نظام التموين ، والتمريض ، وتهيئة الألبسة ، فكل ذلك من عمل السكان المدنيين، فالأمة الجزائرية كلها مجندة تجنيداً فعليا فى هذه المعركة . ولا يستطيع انسان أن يدعى بأن جزائريا واحداً لم يقم بواجبه فى هذا النضال الوحيد فى العالم . فكل رجل مدنى تابع لجيش من الجيوش ، عامل ضمن أطار قيادة من القيادات العامة . فهنالك الفرق المدنية التى تعمل لتزويد الجيش بالمال ، وهنالك الفرق التى تعمل على تهريب الأسلحة ، وهنالك الفرق التى تقيم فى ديارها نوعا من المستشفيات البسيطة التى يعمل بها الرجال والنساء لمعالجة الجرحى ، أما نساء سائر

فقوة المجاهدين الحقيقية ، ليست فى الثلاثين ألف قطعة من السلاح الخفيف التى يملكونها ، انما هى كما قلنا ، قوة إيمانهم ، وعزمهم على الخروج من المذلة والهوان ، من جهة ، والتفاف الأمة حولهم ، رجالا ونساء التفافا روحانيا صادقا ، لا يضعف ولا يتزعزع ، من جهة أخرى .

وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله مع الصابرين .

حكم الجهات المحررة .

الجهات المحررة ـ وهى كثيرة فى القطر الجزائرى ـ تقع من ناحيتها العسكرية والمدنية تحت أشراف وإدارة القائد العام ؛ ويعينه « المرشد



(شكل ٣٣) فريق من المجاهدين النظاميين ، عند رجوعهم من معركة

السياسى » الذى يتولى السلطة باسم جبهة التحرير الوطنى . و
هذه السلطة :

أولا : القضاء ، ويتولاه أحد الشيوخ ، العلماء أو الطلبة ،
أهمية السكان ، فيحكم بين الناس بما أنزل الله . ولا تصدر أحكام فى
لأن الأمة قد اختمرت بفكرة الثورة ، وأندمجت فى روحها ، و
بالانقلاب فى اسمى معانيه ، فتركت النزاع والخصام وأقبلت على
الجماعى المنظم . فان شجر خلاف فسرعان مايحله « القاضى » — الذ
غالباً من المدارس العربية الحرة — بواسطة الأقناع والتراضى .

ثانياً : الجباية ، فيقوم مستخلص الضرائب القومى بأخذ الف
المستحقة على الناس ، حسب الدفاتر الحكومية القديمة ، ويسلم
الوصل الذى يبرىء الذمة . وقد أقبل الناس إقبالا منقطع النظير ع
سائر ماعليهم من الضرائب ، ومنهم من تطوع إلى جانب ذلك بمعظ
أو بكل ماله نصراً للثورة وتأييداً لها .

ثالثاً : المرافق العامة ، كإصلاح الطرقات ، وإحياء الأرض ، و
الأغذيه ، وإعانة الفلاحين على البذر ، والعناية بالمرضى والفقراء ،
المدارس ، وتمهد الأمة ، وتهيئها للدور العظيم المقبل ، دور
والاستقلال . وفى كثير من الجهات ، تولت السلطة القومية توزيع ا
الاستعماريه على مستحقيها ، توزيعاً فردياً أو جماعياً . ويعين «
السياسى » على مهام مسئولياته ، جماعة من قدماء الموظفين المحليين الـ

أن تثبت صلاحهم وإخلاصهم ، أو جماعة من الذين لم تستعملهم الجندية . ويجتمع حوله غالباً « مجلس جماعة » يمثل أحسن تمثيل سكان المنطقة .

القوة الفرنسية :

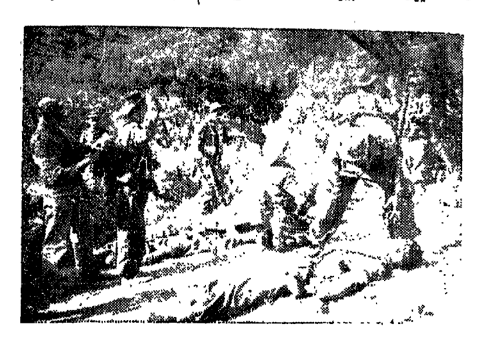
لم يؤمن الفرنسيون لحمقهم وغرورهم ، بالثورة وقوتها، فى الأيام الأولى. وقد ظنوا أنها فوران محلى لا يلبث حتى ينتهى أمره فى بركة من الدم وأتون من النار . كما انتهى أمر الثورات السابقة . وقد خالوا أنهم قد قضوا القضاء المبرم على الأمة الجزائرية ، فلا يمكن أن تقوم لها قائمة ، بثورة أو بأعمال إيجابية حقيقية .

لذلك اكتفوا بإرسال مالديهم من القوى أول يوم ، أى نحو المائة ألف جندى ، ووزعوهم على بعض النقط الحساسة ، ورموا ببعضهم فى ميدان الأوراس قصد إخماد حركته والتنكيل بأهله . ثم أخذوا يستعملون وسائل الزجر والفظاعة للقضاء على الثورة ، كما سيمر بك . لكنهم رأوا أنهم مهما ازدادوا إمعانا فى سياسة البطش والتنكيل ، إلا وازدادت الأمة اندفاعا فى ميدان الثورة وتأييدها والالتفاف حولها ، وعندئذ أخذوا ينادون بالويل والثبور ، ويرسلون بالنجدات ، ويأتون بكل أنواع الأسلحة ماخف منها وماثقل ، وأعلنوا فى بلادهم نوعا من التجهيز العام ، على كره من الأمة ، فأصبحت قوتهم اليوم فى قطر الجزائر تشمل :

أولا : ٤٠٠ ألف جندى ، من الفرق التى سلحتها أميركا لمواجهة ما اصطلحوا على تسميته بالخطر الشيوعى فى أوربا .

ثانياً : ١٠٠ ألف رجل من رجال الشرطة والجند رمة والحرس الوطنى وكلهم مسلح مشارك فى العمليات .

ثالثا : ١٠٠ ألف من السكان المدنيين الفرنسيين ، الذين وزعت عليهم الأسلحة الخفيفة ، داخل المدن والقرى ، ليتولوا أمر الدفاع عن أنفسهم ضد الجزائريين، وألف هؤلاء المدنيون الأوربيون فرقامن «الميليشيا» قامت بأدوار فظيعة فى ميادين العدوان على الجزائريين الآمنين ، وقتلت الجموع الكبيرة منهم أشنع قتلة ، ولولا خوفها من رد الفعل القوى ، لاستمرت على أعمالها الفظيعة . ولقد توزعت الفرق العسكرية الفرنسية على مختلف المدن والقرى والمنشآت العامة والجسور والسدود وغيرها ، لحراستها ، وحراسة السكان المدنيين الأوربيين ، وخصص قسم منها كبير ، لمجابهة الثورة



(شكل ٣٤) بعد المعركة . قتلى من الفرنسيين وأسرى بين يدى أبطال جيش التحرير الوطنى

ومحاولة كسر شوكتها أو الوقوف دون امتدادها . وأنت تعرف ماذا كانت النتيجة ...

أما السلاح الفرنسى ، فهو مؤلف من تلك الأسلحه الحديثة الصنع ، المختلفة الأنواع والأشكال التى أمدت بهـا أميركا الجندية الفرنسية ، حسب نظام حلف الدفاع « الأطلسى » والتى كانت مهيئة لمجابهة روسيا ودول الحلف الشرقى .

فالجند الفرنسى فى القطر الجزائرى مجهز أعظم تجهيز ، بحيث أن القوة التى يقابل بها الشعب الجزائرى اليوم ، أعظم من القوة التى قابل بها سيل الجند الألمانى الهتلرى عام ١٩٤٠ .

ويعتمد الفرنسيون زيادة على أسلحتهم المختلفة ، على ١٤٠٠ طائرة مختلفة الأنواع ، و ٨٠ طائرة عمودية من نوع الهليكوبتر ، و ١٧٠٠ دبابة وسيارة مصفحة ، إلى كامل مايلزم الجندية الحديثة من آلات وأدوات ، ومستشفيات متنقلة ، وآلات الاتصال اللاسلكى ، وغير ذلك . مع أسطول بحرى ضخم .

كل هذا تقابله الأمة بقوة إيمانها ، فتتغلب عليه ، ويقابله المجاهدون ببنادقهم القليلة ووسائلهم الضعيفة ، فيقهرونه ، ويهزمونه . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

التربيعة :

لكن الجند الفرنسي لا يعتمد في حربه مع الجزائريين على الطرق الحربية المألوفة، ولا على المقابلات الشريفة العسكرية في ميدان القتال وجها لوجه. إنه لعجزه وفتوره لا يكاد يقابل المجاهدين إلا ما عندما يجبرونه على المقابلة ؛ إنما يصب جام انتقامه ويسلط سوط عذابه على الجموع المدنية ، في القرى والبوادي والمدن ، فيقتل دون شفقة ولا رحمة ، ويسلك سياسة الإفناء الجماعي بصفة لا نعرف أنها وقعت في حرب استعمارية أخرى .

والتربيعة هي آخر اختراعاته : يحدد فوق الخارطة مربعا من الأرض في الجهة التي تقع تحت تصرف الثورة ، ثم يحيط الجند بذلك المربع ، وتنصب حوله المدافع المختلفة ، وتحوم الطائرات فوقه ، وتسدد نحوه بطاريات السفن الحربية مدافعها إن كان قريباً من البحر . وفي الساعة المعينة ، تنقض سائر القوى من البر والبحر والجو على ذلك المربع ، فتتركه بعد حين قاعا صفصفا ، وتدك سائر ما فيه من قرى ومشاتي وغيرها .

فالرجال المسلحون يعرفون المسالك . ويسرعون ساعة ابتداء القذف إلى مخابئهم ، ربما يتمكنون من الإنسحاب خارج المنطقة الجهنمية ، بينما يحصد الموت الزؤام كل إنسان من المدنيين وكل حيوان داخل تلك المنطقة .

ولقد تكررت مثل هذه العملية مراراً عديدة ، وخاصة بمنطقتي الثورة في الشمال الشرقي ، وفي وادي الساحل ، وفي بعض الجهات من بلاد القبائل الكبرى ، بحيث جاوز عدد الضحايا المدنيين ، من جراء هذه



(شكل ٣٥) هكذا يقع التفتيش المخجل. كل يوم ؛ وفى كل مدينة أو قرية ، من قبل الجند الفرنسى بالبلاد الجزائرية .

التربيعات وغيرها من أنواع المذابح الجماعية ، المائة والثلاثين ألفاً ، إلى يوم ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٦ .

الفظائع والمنكرات :

ولقد خيل للجند الفرنسي ، أنه يستطيع قهر قوة الشعب المعنوية ، وإرغام المجاهدين على وضع السلاح ، بما يرتكبه في المدن والقرى والبوادي من المذابح الفظيعة ، والقتل الجماعي ، والاعتداء على عفاف النساء ، وسرقة الأمتعة ، وإتلاف المؤن والأقوات ، مما أصبح مضرب المثل ، ولا يستطيع الإنسان أن يفصّله على صفحات هذه الفذلكة الوجيزة ، إنما هو مسجل مسطور ، وستصدر به كتب ومجلدات ، لتخليد آثار المدنية الاستعمارية الفرنسية ، في القرن العشرين .



(شكل ٣٦) هكذا يقع تشريد النساء والأطفال من مئات القرى ، إنتقاماً من المجاهدين



(شكل ٣٧) جثث مئات من شهداء الجزائريين ، قتلوا أثناء عملية « تطهير » وعرضوا في الملعب البلدي بمدينة سكيكدة

السجون والمعتقلات :

أما فى المدن وفى القرى ، فهنالك أنواع من الإهانة ومن التعذيب تصب على الجزائريين ، لايستطيع تحملها إلا من علم أنها نوع من أنواع الجهاد ، وأن يوم الحساب عنها قريب .

فأغلب رجال وشبان الطبقة المثقفة من الأمة ، أودعوا السجون ، أو سيقوا إلى الفسيح من المعتقلات . وفى السجون اليوم ١٤٩ رجلا قد حكم عليهم بالإعدام ، ونحو الأربعة آلاف ممن صدرت عليهم أحكام تتراوح بين العامين سجناً ، والأشغال المؤبدة . وثلاثة آلاف رجل لايزالون ينتظرون ما تأتى به أيام الاستعمار ولياليه ، فهم كل يوم فى خطر جديد .



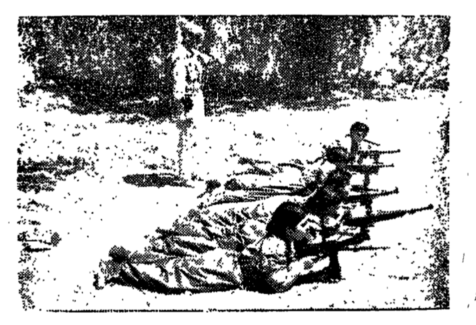
(شكل ٣٨) البنت الجزائرية تعمل فى مركز قيادة عامة

أما المعتقلات ، وهى ١٩ فقد جمعت أغلب النخبة المفكرة العالمة العاملة من الأمة . وبين جدرانها أو أسلاكها الشائكة نحو العشرة آلاف رجل هم نخبة رجال الأمة وزهرة شبابها .

وقليل من رجال الأمة ومفكريها ، ممن لم يتمكنوا من الالتجاء لمناطق الثورة ، قد استطاعوا الاختفاء أو السفر للخارج .

وهكذا تحاول السلطة الفرنسية ، بواسطة القتل الجماعى والفتك الذريع ، وبواسطة السجون والمعتقلات ، وبواسطة الفظائع والموبقات والآثام ، أن تحطم إرادة الثورة ، وأن تنال من عزيمة الثائرين المجاهدين .

أما فى المدن ، فباب القتل والتنكيل مفتوح على مصراعيه . والتفتيش المؤلم الجارح يشمل فى كل بلدة عشرات الآلاف من الرجال والنساء .



(شكل ٣٩) البنت الجزائرية ، تتمرن على استعمال الأسلحة الحديثة استعداداً لخوض معركة الحياة والشرف

ومنهم من يؤخذ بعد التفتيش إلى ساح الإعدام دون محاكمة أو سؤال ، وعددهم كثير جداً ، ومن أشهرهم الحكيم الكبير الدكتور ابن دزيرجب ، التلمسانى ، والأديب الكبير الأستاذ أحمد رضى حوحو القسطنطينى ، والمئات من أضرابهم ، رحمهم الله ، وعوض الأمة عنهم خيراً .

* * *

وماذا كانت نتيجة كل هذا ياترى ؟

كانت النتيجة ، بعد عشرين شهراً من إعلان الثورة ، وبعد العذاب والتنكيل والزجر ، وبعد الآثام والموبقات العسكرية ، وبعد الآتيان بقوة تستطيع تدويخ دولة من الدول الأوروبية ، كانت النتيجة اليوم ، موفى يوليو ١٩٥٦ ، أن فرنسا الاستعمارية قد أصابها الوهن ، وما أصاب الوهن الأمة الجزائرية .

كانت النتيجة ، أن المجاهدين قد ثبتوا فى مراكزهم ، كل مراكزهم ، وأنهم يوسعونها شيئاً فشيئاً .

كانت النتيجة ، أن الأمة الجزائرية قد اشتدت مقاومتها ، وتصلبت تصلباً فاق الرقم القياسى الذى كانت مشتهرة به منذ أقدم العصور .

كانت النتيجة ، أن الأمة مستعدة اليوم لخوض معركة تدوم إلى ماشاء الله ، بينما أخذت فرنسا تتململ ، وازدادت نقمة رأيها العام على حكومتها ، وتكاد تعلن الانتقاض على سياسة هذه الحزب الاستعمارية الفاشلة .

كانت النتيجة ، أن المجاهدين يثبتون ، وأن الأمة تلتف حولهم كأنها

درع من زرد ، بينما الفرنسيون يتظاهرون ضد التجنيد ، وينامون فوق قضبان السكة الحديد ، لمنع القطار الذى يحمل المجندين عن المسير لأرض الجزائر .

كانت النتيجة ، أن فرنسا أصيبت بخراب مالى لا نظير له . فهى لم تستطع تحمل أعباء مليار فرنك يومياً ، نفقات هذه الحرب الجزائرية الفاشلة . وقد أصيبت معاملها بالشلل ، من جراء التجنيد الذى حرمها من قسم من اليد العاملة ، وأصيبت تجارتها بكارثة فى الصميم ، لأن القطر الجزائرى الذى كان يغذيها ، وكان يطعمها ويسقيها ، قد أصبح لا يكاد ينتج شيئاً ، ولا يكاد يستهلك شيئاً من مصنوعاتها .



(شكل ٤٠) قرية تحتفل بمرور فريق مؤلف من الشابات والشبان
وقد تجندوا واستعدوا للموت فى سبيل الحياة

نظرة الى الخارج :

فإذا ما نحن جلنا بأبصارنا جولة فاحصة حول أرجاء العالم ، وتأملنا وقع هذه الثورة المدهشة ، رأينا عجبا ، وسمعنا أعجب .

أنظروا الصحافة العالمية ، من أميركا إلى جنوب استراليا ، تروا أن الرأى العام العالمى قد أصبح مركزا حول هذه البقعة من الأرض الإفريقية ، أرض الجزائر المجاهدة ، يدرس قضيتها ويسجل أعمال مجاهديها ، ويحمل فى الغالب على الاستعمار الفرنسى حملات واسعة عريضة ، وينادى بوجوب إنصاف هذه الأمة التى نهضت كالرجل الواحد تريد حياة الحرية ، أو تريد موت الكرامة ، إنما لا تريد بحال ، ولا تقبل بحال ، ولا ترضى بحال ، أن تعيش يوما واحدا تحت سلطة الاستعمار وتحت قوانين الاستعمار .

أنظروا جامعة الدول العربية ، وانظروا مجموع الدول العربية ، وانظروا كل أمم العروبة على الاطلاق : لقد التفت كلها حول القضية الجزائرية التفافا قلبيا صادقا ، وانفجرت براكين الشعور العربى حول الشعب الجزائرى ، حتى لكأن الجزائريين قد حلوا فى كل قلب عربى أبى ، ويتدفق هذا الشعور ماديا بشتى أنواع الإعانة ، فإن لم تكن هذه المعاونات متناسبة مع ثورة الشعور ، ومع حاجات الثورة الجزائرية ، فهى على كل حال موجودة ، وهى على كل حال مستمرة ، ونرجو أن تكون على كل حال سائرة فى طريق الزيادة لا فى طريق النقصان .

انظروا تونس والمغرب الأقصى ، ولا يزال استقلالها فى المهد صبيا ، أنهما قد ربطتا رسميا مستقبلهما بمستقبل الكفاح فى القطر الجزائرى ، وعلمتا علم اليقين ، وأعلنتا علمهما ، أنه لا استقلال لها بصفة حقيقية إلا متى تحررت الجزائر من قيود الاستعمار ، وشدت أزر شقيقتى الشرق والغرب فى تضامن مغربى عربى متين ، فيه الرفعة والسؤدد والنهضة الكبرى .

انظروا ذلك الحدث العالمى العظيم ، ذلك المؤتمر الذى يعتبر انقلابا فى أوضاع السياسة وفاروقا بين العالم القديم والعالم الحديث : مؤتمر باندونج . أرأيتم ذلك المؤتمر الذى يمثل ثلاثة ارباع الأرض ؛ ويمثل قوى المستقبل فى هذه الدنيا ، يقرر الاعتراف بحق الشعب الجزائرى فى حريته ، والمنادات باستقلاله ، ويقرر وجوب التضامن البشرى حوله ، قولا وعملا وجهودا لكى يخرج من هذه المنطقة الاستعماريه الآفنة ، إلى منطقة النور والعلم والكرامة والاستقلال والحريه ؟ .

انظروا هيئة الأمم المتحدة تقرر خلال دورتها السابقة (اكتوبر ١٩٥٥) أن قضية الجزائر المجاهدة ليست قضية فرنسية بحتة حسب أدعاء فرنسا ، بل هى قضية أممية ، وأن لهيئة الأمم المتحدة حق دراستها وفحصها ، وحق إصدار التوصيات بشأنها .

فإن لم يتم فى تلك الدورة شىء ، خضوعاً لملابسات سياسية خاصة ؛ فالمؤكد الذى لا ريب فيه هو أن هيئة الأمم ستدرس هذه القضية دراسة عميقة أثناء دورتها المقبلة ، مفتتح سنة ١٩٥٧ ، وستجد أغلبية محترمة تؤيد

الجزائر فى مطالبتهـا بالحرية والاستقلال ، مطالبة سجلت بالدماء و
بالأرواح .

انظروا الهند ، أنظروا باكستان ، انظرو يوغسلافيا ، انظروا ا
السوفيتى ، فالرجال المسئولون فى كل هذه الدول ، قد تدخلوا رسميا
فرنسا ، وسعوا السعى الحثيث للتأثير عليها ، حتى تعدل عن سياسة
العسكرية ، وقد ظهر عدم جدواها ، وتركن لسياسة التفاهم مع
المجاهدة ، على قاعدة العدل والانصاف وحق تقرير المصير .

انظروا مؤتمر بريونى ، يسير له بطل العروبة جمال عبد الناصر ،
له بطل الهند ، شرى نهرو ، ويؤمه بطل يوغسلافيا المارشال :
فيجتمعون ليفحصوا قضية الجزائر ، وليجـدوا مخرجا عادلا
الجزائر ، على الأسس التى وضعها مؤتمر باندونغ .

بل انظروا نفس حكومة فرنسا تنهار وتتخلى شيئاً فشيئاً عن س
التقليدية المتطرفة ، فتقول رسمياً أن الحل العسكرى مستحيل ف
الجزائر ، أى أنها تعترف بصراحة أنها لن تستطيع التغلب على قوة
ثم هى تعترف رسميا ، بأن الجزائر فى الغد ان تـكون قطعة من
كسائر القطع الأخرى .

ثم انظروا نفس الأحزاب التى تشكل الأغلبية الحـكومية ، فى ا
فالحزب الاشتراكى يقرر فى مؤتمره بمدينة ليل ، أن قطر الجزائر
ينال نظاماً مقبلا ، يملك قوة التشريع ، وقوة التنفيذ (حكومة) ،
مع فرنسا بواسطة تعاقد حر . والحزب الجمهورى الشعبى يقرر أ

فدرالية تكون دولة الجزائر ضمن أعضائها . والجزائريون يرفضون كلا من الحلين، لأنهما لا يحققان الاستقلال المنشود . أما الحزب الشيوعى، فينادى بالاستقلال واعطاء الكلمة للشعب .

وانظروا الكثير من أحرار فرنسا ، والكثير من كتابها ، والكثير من فلاسفتها ، والكثير من صحافتها . يتألب كلهم للدفاع عن الحرية فى قطر الجزائر . ويمعنون فى مهاجمة الاستعمار ، وإظهار عيوبه ومساويه . ومنهم من سجن فى سبيل هذه الحملة الصادقة ، ومنهم من ناله الأذى الكبير . ولا يزالون مستمرين .

وهكذا مآل القضايا العادلة .

وهكذا يعلو الحق ولا يعلى عليه .

فكل يوم يمر علينا فى هذه الثورة ، ونحن صابرون صامدون ، يحقق لنا كسباً جديدا ، ويقربنا من الهدف الاسمى خطوات شاسعة . فقضيتنا تتلخص فى ثلاث كلمات :

سلاح . ثبات . انتصار ! .

* * *

إن حكومة فرنسا تراودنا اليوم على أنصاف حلول . تريد فرنسا أن نوقف الحرب دون شروط ، مقابل اعترافها لنا باستقلال داخلى واسع ، ضمن المنطقة الترابية الفرنسية ، على أن تجرى انتخابات حرة (؟) بعد ثلاثة أشهر من وقف الحرب ، لتقع المفاوضة مع وفد المنتخبين ، حول تنفيذ سياسة الإصلاحات الفرنسية المعروضة . والأمة الجزائرية ترفض هذه العروض السخيفة رفضاً حاسماً .

هذه هى إرادتنا . وهذا هو سبيلنا

فماذا تريد الأمة الجزائرية يا ترى ، من وراء هذه الحرب القاسية التى تحملت وقرها عشرين شهرا ، والتى لا تزال مستعدة لتحملها ، إذا لزم الحال ، أشهرا أخرى ، أو أعواما أخرى ؟ .

ولماذا هى ترفض بإباء وشمم عروض فرنسا ؟

هل هى تحارب حبا فى الحرب ؟ هل هى تقبل أن تحطم ديارها ويقتل رجالها ونساؤها وتصاب بالضربات الفتاكة ، كما تصيب خصمها بالضربات الفتاكة ، لمجرد التلذذ بالفناء ، والتسلية بأعمال الفتك والتخريب ؟

كلا !

بل هى تقول فى لسان فصيح ، منطقى ، معقول : أنها لن ترضخ أبدا ، ومهما كانت الحالة ، ومهما تغيرت الظروف ، لحكم النظام الاستعمارى الذى ضرب عليها الذل والمسكنة ، والذى حال بينها وبين العلم والعمل والثروة والسعادة ، والذى جعلها محكومة بغير بنيها ، ووزع ثروتها على غير ذويها ، وأبقاها تحت نظام هو شر أنواع النظم الرأسمالية ، بينما يستقبل العالم أجمع حياة النور والحرية ، والعزة والكرامة . وما عروض فرنسا ، مهما تفننت فى زخرفتها نفاقاً وتضليلا ، إلا تثبيت للنظام الاستعمارى ، وقضاء على الحرية والاستقلال .

أمة الجزائر تريد الاستقلال بأرضها . الاستقلال بحكمها . الاستقلال بتقرير مصيرها . تريد أن تكون أمة كسائر الأمم ، ودولة كسائر الدول ، ذات جنسية كسائر الجنسيات ، وذات علم كسائر الأعلام . ثم أن أمة الجزائر لم تصب بعدوى المنصرية ، ولا تريد أن تسق غيرها من الكأس التى سقاها بها . فهى فى استقلالها المقبل ، الآتى قريبا لا ريب فيه ، تفسح فى وجه الفرنسيين الذين استقروا فى أرض الجزائر ميادين العمل ، على قاعدة التساوى التام ، على شرط أن يعتنقوا مخلصين الجنسية الجزائرية ، وعلى شرط أن لا يكون لهم أدنى امتياز ، مهما كان أمره على بقية المواطنين ، لا من حيث الكم ، ولا من حيث الكيفية .

ولا تتسامح الأمة الجزائرية فى أى شبر من تراب أرضها ، كما هو محدد الآن ، وخاصة صحراءها الجنوبية التى هى جزء لا يتجزأ من تراثها القومى . فما تدعيه فرنسا هـذه الأيام من محاولة بتر الصحراء عن أرض الجزائر ، إنما هو ادعاء باطل خاسر ، تقف الأمة الجزائرية ضده موقفاً صارماً لا هوادة ولا لين فيه .

وأمة الجزائر تريد أن تكون دولة ديمقراطية حرة ، تسير مع العالم الحديث متساوية فى الحقوق والواجبات ، واضعة جهودها فى خدمة المثل العليا الإنسانية ، وتحقيق السلام العالمى الدائم . مع شقيقاتها من الدول العربية الحرة .

إنها تعلم أن كل حرب لا تنتهى إلا بمفاوضات . وانها تعلم أن حربها هذه لا تنتهى كذلك إلا بمفاوضات . لكن هذه المفاوضات لا يمكن أن تقع — بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة — إلا على هذه الأسس :

أولها : الاعتراف الصريح من الجانب الفرنسى ، باستقلال البلاد الجزائرية ، استقلالا تاماً ، يشمل كل مظاهر السيادة القومية ، وخاصة التمثيل السياسى ، والقوة العسكرية الوطنية .

وثانيها : اطلاق سراح سائر المسجونين والمعتقلين من أحرار البلاد .

وثالثها : المفاوضة مع جيش التحرير الوطنى وجبهة التحرير الوطنى بعد ذلك الاعتراف لوقف أعمال الحرب ، والأقدام على بناء المستقبل الجزائرى المستقل والقضاء على مخلفات الاستعمار ، وذلك بواسطة حكومة جزائرية حرة ، تشرف على أنتخاب مجلس تأسيسى حر .

هذا هو الحل الوحيد ، العادل ، الإنسانى ، الذى تريده الأمة الجزائرية والذى هى مستعدة لقبوله والعمل به منذ الساعة ، متى رضخ الخصم للحق ، وكف عن العناد الاجرامى .

إنها تكافح وتنتظر ، ولا تمل الكفاح ولا تمل الانتظار ، لانها واثقة من الفوز والانتصار .

احمد توفيق المدنى

القاهرة ٢٩ يوليو ١٩٥٦

الفهرس

الفهرس

التعريف بالبلاد الجزائرية

سكان القطر الجزائري

تاريخ القطر الجزائري

تحطيم أمة

المقاومة

الثورة الكبرى

غلطات مطبعية

نرجو القارئ الكريم اصلاحها قبل مطالعة الكتاب

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
٩	٦	المقاذة	إنقاذه	٦٩	١٦	تنشأت	نشأت
»	»	لطب	اطلب	٧٠	٣	الدبوان	الديوان
٢٢	٧	الزاغر	الزّاغز	٨٣	١١	التحرير الوقح	التحرير لوا
٢٣	١٢	بوخيفية	بوحنيفيه	١٠٤	٣	اصدقائه	اصدقائها
٢٥	١٦	Hier	Liege	١١٨	١٤	يستأثريها	يستأثر بم
٢٥	١٧	الونشريين	الونشريس	١٣١	٧	٣٩٠	٣١٠
٢٥	١٨	d'aep	d'Alep	١٣٣	١٥	المجب	العجب
٢٦	١	الزاياتين	الزياتين	١٣٤	٨	المال	العمال
٢٦	[illegible]	عدد	عدد ٦٨٦٨ ط	١٤٥	١١	الشيوح	الشيوخ
٢٩	١٤	فتسكونت	فتسكونّ	١٤٦	١٥	وتأعر	وتأمر
٣٢	١	بالمازيع	بالأمازيع	١٥٨	٨	سنت	سنة
٣٢	١٤	وإذ كانت	وقد كانت	١٦٣	١٧	فم	فلم
٤٠	٢	شاهد	شاهدت	١٧٨	١٦	ويندون	ويندوا
٤٣	٨	التنكيل	التشكيل	١٨٥	١١	فعل من	فعل عز
٤٦	[illegible]	الفة	لغة	١٩١	١١	كان	كانوا
٥٦	٣	مسقتتلة	مستقلة	٢٠٢	١	الاصطلاحات	الأصلاحات
٥٦	٤	١٦٩	١٦٠	٢٠٣	١٠	يالسيادة	بالسياد
٥٦	١٤	ستة	سبعة				